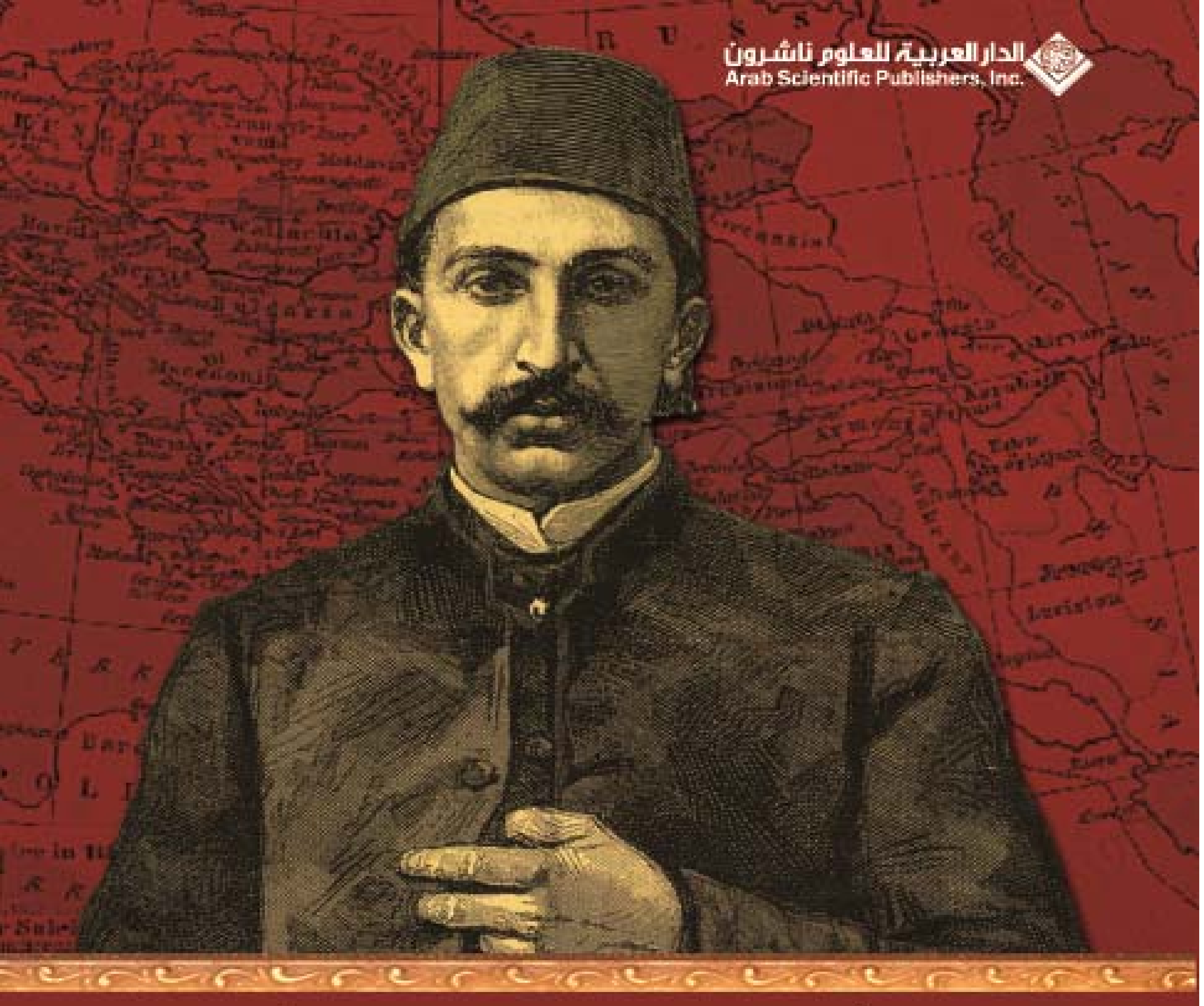
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



mustafa armağan مصطفى أرمغان

السلطان عبد الحميد والرقص مع الذئاب

20 طبعة
220 ألف نسخة

السلطان عبد الحميد والرقص مع الذئاب

تأليف

مصطفى أرمغان

ترجمة

مصطفى حمزة

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة





يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل التركي ABDÜLHAMİD'İN
Armağan Mustafa by DANSI KURTLARLA

نشر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة والسياحة في الجمهورية التركية
ضمن مشروع

TEDA by sponsered is Translation
Bakanligi Turizm ve Kultur .T.C
Mudurlugu Genel Yayimlar ve Kutuphaneler
Sayıştay Eski) No:4 Bulvarı Cumhuriyet Mahallesi Paşa Fevzi
(Binası
Ulus/ANKARA/TURKEY 06030
www.tedaproject.com :Web - teda@kulturturizm.gov.tr :e-mail

الطبعة الأولى
143 3 هـ - 2012 م

ISBN: 978-614-421-848-8



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: (+961-1) 785107 - 785108 - 786233
ص. ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: (+961-1) 786230 - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف (+9611) 785107
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف (+9611) 786233

مقدمة المترجم

استمرت البشرية في عمارتها للأرض وبنائها للحضارات عبر سلسلة من الجولات بين الحق والباطل والخطأ والصواب، تجلى ذلك على شكل تدافع حضاريٍّ، سنة الله التي لا تتخلف في تطور المجتمعات وبقائها في الحياة) ... وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ([1] . وهذا التدافع في إطاره العام يجري في تفاعلين: تفاعلٍ داخليٍّ يؤمن تطور الحضارة من داخلها. وتفاعلٍ خارجيٍّ يؤمن وقاية الحضارة من الانحلال والزوال أمام الحضارات الأخرى، ويدفعها للتكيف مع المستجدات في الموقف الدولي، ومعالجة مواضع الضعف في بنيانها.

والحضارات تتمايز عن بعضها بالعقيدة التي تشكل وجهة نظرها عن الكون والإنسان والحياة، وما يبنى على هذه العقيدة أو ينبثق عنها من أفكارٍ يحتاج إليها الإنسان فرداً أو جماعةً للسير الأمثل في الحياة، ويتشكل بالسلوك على أساسها طراز خاص من العيش.

وإذا كانت صحة المفاهيم التي تقوم عليها الحضارات شرطاً ضرورياً لقوتها؛ فإن الهوية الحضارية والشعور بالانتماء إلى الحضارة؛ شرطان ضروريان لبقائها في الحياة. فالأمة أيًّا كانت؛ سرعان ما تتجاوز الأزمات والكوارث التي تلمّ بها إذا كانت حضارتها حيةً في نفوس أبنائها، ويكون غيابها وغياب الشعور بالانتماء إليها في النفوس؛ إيذاناً باضمحلالها وزوالها.

ولقد ألمت بالأمة الإسلامية خلال تاريخها المديد؛ العديد من النكبات والأزمات، ومرّت بمراحل من الانحطاط يندى لها الجبين وتدمع لها العيون، وشهدت في بعض مراحل تاريخها تفككاً سياسياً بدأ منذ عهد ضعف الخلفاء العباسيين، وسقطت بعض ديارها أمام الغزو الصليبي، وسقط كثير من ديارها أمام غزوات المغول والتتار. وعانى المجتمع الإسلامي في بعض حقب التاريخ بعض الأزمات الاقتصادية وغيرها. غير أن الأمة الإسلامية كانت بعد كل كبوةٍ تنتفض من جديدٍ؛ لتواجه ما ألمّ بها من سوءٍ؛ ولتعالج ما أرّقها من المشاكل والأزمات، معتمدةً في ذلك على عقيدتها الراسخة ومنظومتها الثقافية وشخصيتها الحضارية، وتستعيد دور الريادة وموقع الغلبة في الساحة الدولية.

ولعل عهد الخلفاء العثمانيين الأوائل كان من أبرز تلك الانطلاقات النهضوية التي مضت بعد مراحل من السبات والركود والانكفاء. ولقد كانت بعض النكبات التي ألـمّت بالأمة وعلى رأسها نكبة المغول والتتار من ذلك

النوع الذي من شأنه القضاء على كياناتٍ حضاريةٍ برمّتها. ولولا رؤية الأمة الإسلامية لهويتها الحضارية، وشعور أبنائها بانتمائهم إليها؛ لما استطاعت أن تتابع مسيرتها من جديدٍ ماخرةً عباب التاريخ لعدة قرونٍ تاليةٍ.

حتى إذا كان القرن التاسع عشر؛ أطلّت الكارثة العظمى برأسها حين ظهر على الساحة الدولية غريم حضاري لها هو الحضارة الغربية المعاصرة، التي ظهرت على مسرح التاريخ بعد اكتمال معالمها وقيام كياناتها السياسية المتمثلة بالإمبراطوريات الإمبريالية الصاعدة: الإنكليزية والفرنسية والنمساوية والبرتغالية والإسبانية والألمانية وغيرها؛ فكانت أخطر تحدٍّ يواجه الأمة الإسلامية. نعم، لقد استهدف الغرب القضاء على الهوية الحضارية للأمة الإسلامية بعدما أدرك بعد قرونٍ من المواجهة معها أنها لا تغلب عسكرياً ومادياً، ما دام يقاتلها بوصفها "أمةً إسلاميةً".

وهنا لا بد لنا من وقفةٍ عند مفهوم الدولة الدينية والدولة المدنية :

عندما كانت أوروبا تعيش قرونها الوسطى في ظلامٍ دامسٍ، كانت السلطة يتوارثها الحكام باسم الحق الإلهي المقدس، فكانوا فوق القانون والمحاسبة، وكان ما يرونه هو الحق المطلق الذي ينبغي لجميع الناس أن يستسلموا له من دون نقاشٍ. وهو ما يعرف بالدولة الدينية. حتى إذا حصل الاحتكاك بالحضارة الإسلامية، اقتبسوا منها منهجها في البحث العلمي من دون اعتناق لعقيدتها. وكان من آثار هذا المنهج العلمي أن العلماء توصلوا إلى حقائق علمية وترجحت لديهم نظريات تخالف الرؤية الكنسية في ذلك الزمن. ونتج عن ذلك صراع مرير بين رجال الحكم والعلماء والأدباء والمفكرين، وكان من نتيجته ظهور اتجاهين فكريين: الشيوعية التي رأت في الدين أفيون الحياة تجب محاربته، والرأسمالية التي رأت أن الدين مسألة فردية تتعلق بأحوالٍ خاصةٍ وتنحصر في دور العبادة ويجب إقصاؤها من مواقع الحكم والتشريع والقضاء، فكانت تلك هي فكرة فصل الدين عن الحياة، والتي قامت على أساسها "الدولة المدنية الغربية".

غير أن الدولة الإسلامية على امتدادها في التاريخ لم تعرف الدولة الدينية بالمفهوم الكنسي السائد في أوروبا، ولم يكن هناك رجال يتولون السلطة بالحق الإلهي. والجدل الدائر بين "الإمامة والخلافة" بقي على العموم في إطار الجدل النظري. والاستبداد الذي حصل في معظم قرونها إنما قام على مفهوم السلطان المتغلب، ولم يكن ذلك سوى إساءة تطبيقٍ لهذا الجزء من الإسلام، علاوةً على ضعف المؤسسات والآليات المتروكة للناس والتي تحول دون استبداد الحاكم. وهذا الاستبداد في العالم الإسلامي لم

يكن استثناءً، وكل الإمبراطوريات التي قامت في أوروبا كانت أسوأ بكثير من "استبداد" السلاطين إن صح هذا الإطلاق، والجزء الأكبر من صورة الحاكم المزاجي المستبد المنغمس في عالم الفسق والمجون رسمته أيدي المستشرقين في تاريخنا المعاصر من خلال اعتماد نصوصٍ تاريخيةٍ مغرضةٍ مكذوبةٍ أو مجتزأةٍ لم يجرِ التثبت من سياقها ومصداقيتها. والثابت في تاريخنا أن القضاء بقيت له مكانته الكبرى التي ينزل تحت حكمها جميع الناس حكاماً ومحكومين، والتمرد على حكمه كان يعتبر نهايةً لشرعية الحاكم، وأن الفقه الإسلامي كان يشكل التشريعات التي تعالج مشاكل الحياة. وأن الناس مسلمين وغير مسلمين كانوا سعداء في ظل الدولة الإسلامية على وجه الإجمال، وكانت ملجأ المضطهدين من أتباع الديانات والشعوب الأخرى.

وهكذا عندما كانت الدول الغربية في القرن التاسع عشر تستمر بصعودها الحضاري بعد تخليها عن الدين في الحياة وبعد فصله عن الدولة، وعندما كانت مؤسساتها السياسية تتكون على أساسٍ قوي، ومجتمعاتها تستقر إلى حدٍّ كبيرٍ، وقوتها تتعاظم اقتصادياً وعسكرياً ومدنياً وعمرانياً وتقنياً؛ كانت الدولة العثمانية تتصدع وتفقد ثغورها * الواحد تلو الآخر، وتتفاقم فيها المشاكل والأزمات السياسية والاقتصادية، وتضعف عسكرياً، وتتخلّف على الصعيد المدني والتقني، وتهوي بسرعةٍ هائلةٍ لصالح الحضارة الغربية بعد الجمود الفكري الذي خيم على المسلمين.

في مثل هذه الظروف اعتلى السلطان عبد الحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار عرش الدولة العثمانية، فكان عليه حمل عظيم، وأمامه حرب حضارية شاملة، سلاحها الأفكار ووجهات النظر وأنظمة الحياة، وميدانها الثقافة والمعرفة والمناظرات. علاوةً على المناورات السياسية والحرب الاقتصادية والمواجهات العسكرية على الجبهات. وما يحتاج إليه كل ذلك من البنى التحتية والمؤسسات والمحاضن السليمة التي تنجب رجال الدولة وأصحاب الفكر والدعوة ورواد النهضة الجديدة على أساس الانتماء إلى الحضارة الإسلامية. وكان عليه وهو يرى ما آلت إليه أحوال المسلمين من فقدان الانتماء عند النخب الفكرية، وانبهارهم بالحضارة الغربية وطرازها في العيش والجهل المتفشّي عند العامة، ويرى أن الأجواء تنذر منذ البداية بانتصار الغرب على المسلمين، فالمسلمون بسبب ما لمسوا من تخلّفهم وتفوّق عدوّهم عليهم، بدأوا يفقدون الثقة بمفاهيمهم وأنظمتهم الإسلامية، ومعنوياتهم ضعيفة أمام عدوٍّ يتمتع بارتفاع المعنويات ويفتخر بحضارته

وأفكاره وأنظمته "العصرية الحديثة"؛ كان عليه وهو يرى كل ذلك أن يضع يده على الزناد من دون إطلاق النار، وتأجيل الحروب العسكرية على الجبهات، والاستفادة من الوقت المستقطع لإعادة البناء الداخلي.

وكان عليه أن يجيب عن الأسئلة التي تطرق أذهان المسلمين: لماذا نهض الغرب؟ لماذا تخلّفنا؟ هل أخذ الغرب بأسباب القوة وتركناها؟ هل يمكن أن تكون مفاهيمنا غير صحيحة؟ لعلنا فهمنا الإسلام على نحو غير صحيح! لعل الغرب أخذ بمحاسن إسلامنا! ألا يجوز أن نأخذ من الغرب أسباب نهضته؟ ألم يأخذ هو منّا أسباب النهضة بعد أن كنّا روّادها؟! ألا يمكن التوفيق بين الإسلام والحضارة الغربية؟ ألا يجوز أن نقتبس بعض الأنظمة من الغرب؟ هل يحرّم الإسلام الانتفاع بما عند الآخرين؟ كان عليه أن يجيب عن جميع هذه الأسئلة ليبني عليها خارطة الطريق لنهضة أمته ليتمكن من مواجهة الغزو الحضاري الشامل، ويحافظ على أمته قائمةً على قدميها في الوجود؛ لأنه كان واثقاً بأن الحضارة الإسلامية هي الحضارة الصحيحة الوحيدة الجديرة بالبقاء في الحياة. وباختصار؛ كان عليه أن يؤمّن توجيه التفاعل الداخلي لحضارته التي ينتمي إليها ليعيد صفاءها ونقاءها وقدرتها وقوتها إلى المجتمع الإسلامي الأوسع، وأن يؤمّن المعادلة السليمة للتفاعل مع الحضارة الرأسمالية، تلك المعادلة التي تحفظ للحضارة الإسلامية وجودها وتميزها من دون أن تمنع الاستفادة من الأشكال المدنية والعلوم والوسائل المادية مما عند الشعوب والأمم الأخرى، والمعادلة التي تبيّن ما ينبغي أن يؤخذ وما ينبغي أن يترك.

نعم، كانت الدولة العثمانية بمثابة الرجل المريض وقد أحاطت به الذئاب منتظرةً إعلان وفاته. وكان على عبد الحميد- رحمه الله- أن يراقص الذئاب ويشغلهم ويأخذهم بعيداً عن الفريسة، حتى تتمكن الدولة العثمانية من استعادة عافيتها الحضارية، ويتمكن من إحياء الجامعة والرابطة الإسلامية بين الشعوب الإسلامية، ويتمكن من استيعاب المستجدات المدنية وامتثالها في البنية الإسلامية، فلم يألُ جهداً في سبيل ذلك من الاتصال بكل جديد في ميدان العلوم والتقنيات ونشر المدارس والجامعات و... والكثير الكثير الذي قام به هذا السلطان العظيم منطلقاً من انتمائه الصحيح إلى الإسلام.

وإذا كانت الأعمال التي تناولت بالدراسة والبحث شخصية السلطان عبد الحميد بشكل مباشرٍ أو غير مباشرٍ كثيرةً؛ فإنها جميعاً كانت تهتم بأغراضٍ خاصةٍ كما في كتاب صحوة الرجل المريض بقلم الباحث موفق بني

مرجة، وهو كتاب يرصد فيه المؤلف محاولات النهضة التي ظهرت في ذلك العصر، أو تتناول شخصيته وعصره في خطوطٍ عريضةٍ كما في كتاب السلطان عبد الحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار ضمن سلسلة أعلام المسلمين بقلم الدكتور محمد حرب، علاوة على المذكرات التي كتبها السلطان، وبناته وزوجاته.

غير أن كاتبنا القدير ينحو في كتابه الذي صدر منه حتى الآن جزءان؛ منحىً آخر، ينطلق فيه من الجزئيات المتناثرة محاولاً إعادة تركيبها وبنائها لتكتمل صورة السلطان عبد الحميد باعتباره آخر السلاطين العثمانيين الكبار، وباعتباره حارس القلعة الأخيرة والجزيرة الأخيرة للأمة الإسلامية، وباعتباره شخصيةً مفتاحيةً لفهم تاريخنا الماضي القريب، وهذا الفهم شرط ضروري لإدراك واقعنا المعاصر.

نعم، كانت سعادتي لا توصف عندما عثرت على عنوان هذا الكتاب في أثناء زيارتي أسواق الكتب في إستنبول، وعلى الرغم من أنني قرأت الكثير عن السلطان- رحمه الله- إلا أنني وجدته في هذا الكتاب شخصيةً أخرى مختلفةً عن الصور التي تعرضها آليات البحث الأخرى والتي تخلّف وراءها ألغازاً كبيرةً محيرةً، ووجدت نفسي أمام قامةٍ عبقريةٍ فذّةٍ، ورجل دولةٍ من الطراز الأرفع، ورجل أمةٍ تجده في كل الميادين، والأهم من ذلك كله، وجدت نفسي أمام إرادةٍ قويةٍ وهمةٍ عاليةٍ تقف وراءها عقلية جبارة متنورة تنأى بصاحبها عن الخرافات والأوهام التي كانت سائدة في ذلك العصر من دون أن يتخلى عن إيمانه المطلق بدين الإسلام.

والآن تكتمل سعادتي بعد تمام ترجمة الجزء الأول من الكتاب، آملا أن تساهم في جسر الهوة بين الثقافة التركية والعربية، تلك الهوة التي أحدثها الفكر القومي المقيت، ومتمنياً أن تلحقها ترجمة الجزء الثاني للكتاب وترجمة أجزاء أخرى وعدنا بها الكاتب جزاه الله خيراً في مقدمة كتابه.

وهنا لا يسعني إلا أن أعبر عن شكري وامتناني العظيم لمؤلف الكتاب؛ أخي وسميي الأستاذ مصطفى أرمغان على ما بذله من جهدٍ في إخراج هذا السفر الرائع، وعلى غيرته في خدمة هذه الحضارة الإسلامية العظيمة. كما أقدم شكري للسيد آدم كوجال مدير تحرير دار تيماش وله الفضل والحظ الأوفر في خروج هذا الكتاب بنسختيه التركية والعربية إلى القراء الكرام. كما أقدم شكري إلى كل من ساهم في هذا الكتاب مادياً أو معنوياً، وأخص بالذكر القائمين على دار تيماش إدارةً وتمويلاً.

مصطفى حمزة

دمشق

رمضان *1432*/آب *2011*

مقدمة المؤلف

كانت عائلة جدي لأمي في أورفة تعرف بآل المفتي موفتوغيللر؛ لأن حسن أفندي من أجدادي تم تعيينه مفتياً في أورفة بعد نجاحه في امتحان الافتاء في الشام، وبذلك استقرت عائلته في أورفة، وانتقل معه بعض إخوته، في الوقت الذي أبى فيه الآخرون الرحيل عن الشام. وبعد صدور قانون "القبعة" [2] عام 1925، عاد قسم منهم إلى الشام، وبذلك أصبح فرع من عائلتنا أتراكاً وفرع سوريين.

أما جد والدي عبد الرحمن أفندي، فكان مدرساً للعربية والفارسية في مدرسة يوسف باشا في أورفة، وربما كان حجّه عام 1905، وفي طريق عودته توفي بمرض الكوليرا بعد تناوله لحم جملٍ في الشام، ودفن هناك قرب قدمي الصحابي الجليل بلال الحبشي رضي الله عنه وفق مصادر العائلة. وبعد 15 عاماً حيل بينه وبين أولاده وأحفاده؛ حيث بقيت أورفة داخل الحدود التركية، وبقي هو راقداً هناك في الشام.

هكذا هو القدر، تفيض صفحاته بما تحمله من ألغازٍ، فمن كان يدري أنه سيقوم من قامات الأتراك ممن طاردهم المغول حتى أبواب الأناضول؛ من سيؤسس إمارةً وإمبراطوريةً عثمانيةً تستمر في الحياة 600 عام؟! ربما لو لم يكن المغول؛ لما كان العثمانيون ليخرجوا من أواسط آسيا، ويقيموا دولةً لعبت دور القدر في تغيير مصائر الأناضول والبلقان وشبه الجزيرة العربية والقفقاس والبحر الأبيض المتوسط، وربما كانت مصائر تلك البلاد تأخذ مسارها في خطوط مختلفة.

والسلطان عبد الحميد الثاني- أو السلطان حميد حسب تعبير الناس- الذي اعتلى العرش العثماني من عام 1876 وحتى عام 1909، واحد من شخصيات التاريخ الغامضة، ولغز من ألغاز القدر. فلولا مقاومته من عام 1880 وحتى عام 1908، واتباعه سياسة الإلهاء، وإدارته الماهرة للعبة الدول العظمى أمثال إنكلترا وفرنسا وإيطاليا وروسيا؛ ولولا حسن استغلاله للثلاثين عاماً الوقت المكتسب [3] ، في تأسيس آلاف المدارس، ومدّ آلاف الكيلومترات من السكك الحديدية، وافتتاح مئات المستشفيات، وتعبيد عدد يستعصي على الحصر من الطرق والجسور والثكنات العسكرية وأبراج الساعات والدوائر الرسمية، ... والأهم من ذلك كله، لو لم يدرك مبكراً اللعبة الكبرى التي تحيط بفلسطين، ولو خضع للألاعيب الدولية والصهيونية وسلمها إلى العصابات اليهودية؛ لكان من المؤكد أن تركيا اليوم، والبلاد

العربية على حدٍّ سواء، كانت ستكون في صورةٍ تاريخيةٍ مختلفةٍ.

فقد ذكر السلطان عبد الحميد في كتابه مذكراتي السياسية منذ ذلك الوقت المبكر، أن "بيع أرضٍ من فلسطين لليهود إنما هو بمثابة فرمانٍ بإعدام إخوتنا الفلسطينيين". ولم تقصّر إسرائيل منذ قيامها بمنح السلطان عبد الحميد الحق في ما ذهب إليه من خلال مجازرها وأعمال الإبادة الجماعية والتهجير. ولن ننسى كيف أصبح هرتزل لعبةً في يد السلطان، ولما أدرك ذلك هرتزل بعد وقت طويل، جمع حقائبه ويمم شطره نحو إنكلترا وهو يقول: "لم يبقَ لنا سوى التوجه إلى إنكلترا لحل هذه القضية"، كما ذكر ذلك في مذكراته.

نعم، استطاع السلطان عبد الحميد أن يفسد مشروعاتٍ إمبرياليةً كثيرةً، أو أرجأها على الأقل، ولذلك كان ذنبه كبيراً، لا يمكن أن يغتفر. والسبب الأصلي لحقد الإنكليز على عبد الحميد وعدم تمكنهم من الصفح عنه وإصرارهم على تسميته بالسلطان الأحمر؛ يكمن في الكلفة الباهظة التي سببها لهم في التقاسم الإمبريالي للتركة العثمانية، ورفضه تسليم المصادر والأسلحة الغنية التي يمتلكها المسلمون بما فيها البترول بأثمانٍ قليلة، فكان يكرر دائماً: "ينبغي أن نكون أقوياء، أقوياء في إسلامنا، وأقوياء في العلوم والمعارف، من خلال مواردنا البشرية الذاتية...".

وهكذا، تم إعداد سكة الحجاز الحديدية ليكون مشروعاً يفتخر به العالم الإسلامي. فللمرة الأولى تخرج قوة من غير الدول الإمبريالية، معلنةً للملأ أنها ستبني بنفسها السكك الحديدية من غير أن تحتاج إلى إذنٍ أو خبراتٍ أو ملازم وأدواتٍ أو تمويلٍ من تلك الدول، ويستنفر في سبيل ذلك جميع المسلمين. ويومها تتصدر الصحف الإنكليزية مقالات الاستهزاء بقدرات المسلمين. غير أن المشروع كان بالنسبة إلى المسلمين قضية شرفٍ وكرامةٍ يدافعون عنها، فتراكمت القروش من التبرعات ليتم تمهيد الطريق لهذا الخيل الحديدي ليبلغ حضرة نبينا عليه الصلاة والسلام. وعندما تم هذا المشروع وبلغت السكك الحديدية المدينة المنورة عام 1908 كان العالم الإسلامي يحتفل به من سيلان إلى الجزائر، وبدأ الكاتب الفرنسي يوجين مورل؛ يتحدث عن صحوة الرجل المريض .

وغريب الأمر أنه في العام نفسه؛ تنطلق فوهات البنادق، ويسير موكب أبطال الحرية من مناستر؛ في سبيل إعلان المشروطية وخلع عبد الحميد عن العرش. غير أنه أسقط في يد الحركة، ولم تجد ما تعمله عندما بلغت إستنبول؛ لأن عبد الحميد كان قد سبقهم إلى إعلان

المشروطية. وتبقى الحركة في نشاطٍ جديدٍ، فهم لا يمكنهم خلع السلطان الذي أعلن المشروطية عن العرش في سبيل "إعلان المشروطية"، ولا يمكنهم أن يشرحوا موقفهم ويكسبوا الرأي العام. ويتأجل هدفهم إلى 27 نيسان عام 1909 حيث يسقط السلطان عن العرش بتهمة تأييده المزعوم للتمرد الذي عُرف بحركة 31 آذار/مارت حسب التقويم العثماني.

لم يكن حزن السلطان الأكبر بسبب سقوطه عن العرش، بل لانتقال البلاد إلى أيدٍ طائشة غير خبيرة، وقال يومها هذه الكلمات التي تقترب من التوقعات: "فليحكموا البلاد بعدي فقط عشرة أعوام، عندها سأعتبر حكمهم فيها مئة عام". والمدة التي تفصل تسليم البلاد إلى الدول المتحالفة في تشرين الأول 1918 عن عزله عن العرش في نيسان 1909 لا تبلغ سوى تسعة أعوامٍ ونصفٍ، ولم يتمكن الاتحاديون من إتمام الأعوام العشرة في حكم البلاد.

لهذه الأسباب ومشابهاتها يزداد مع الأيام الاهتمام بالسلطان عبد الحميد الثاني في تركيا والعالم الإسلامي، وفي العالم أجمع.

لقد كان عبد الحميد حريصاً على تطوير الاهتمام العالمي بالإسلام، فإلى جانب استقباله أمراء اليابان والتايلانديين؛ يأتي إرساله سفينة أرطغرل باعتبارها صوت الخليفة للمسلمين في شرق آسيا، وزحف المسلمين إلى السفينة في بعض الموانئ وازدحامهم للصلاة فيها وهم يقولون: "إن علم الخليفة هو الذي يرفرف على هذه السفينة، وهذه البقاع بلاده"، ويأتي تقبيل الناس والحسرة تملأ قلوبهم؛ طغراء * السلطان التي يحملها جواز السفر ووضعها على رؤوسهم بعد الوضوء باحترامٍ بالغٍ، ومدرسة البنات في كيب تاون، ومدرسة الحميدية في الصين، وافتتاح مسجدٍ ومركزٍ إسلاميٍّ في نيويورك وبرودوي، واشتراك روائيٍّ كبيرٍ كمارك توين في المؤتمرات التي تقام فيه واهتمامه بالإسلام، وغيرها من الأمثلة الكثيرة الدالة على تنامي هذا الاهتمام العالمي؛ يأتي كل ذلك في إطار هذا الحرص الكبير.

لا يمكننا حتى الآن؛ الادعاء بإتمام الجزء الأول من أنسيكلوبيديا عبد الحميد. وفي الأصل لا نعرف العدد الذي ستبلغه أجزاؤها. والآثار التي تركها أو ساهم فيها في تركيا اليوم تبلغ كثافةً تحتاج في جردها إلى مجلداتٍ كاملة. وإذا توجهت أنظارنا إلى البلاد العربية وبلاد البلقان والقفقاس والبلدان الخارجة عن السلطة العثمانية؛ عندها يمكن أن نأخذ فكرة عن حجم المجلدات التي تحتاج إليها الأنسيكلوبيديا.

إن تطور الأحداث في العالم، ومأزق الانتماء والهوية والتاريخ الذي

عشناه في الماضي في العالم الإسلامي؛ يسوقاننا للوقوف وجهاً لوجهٍ مع السلطان عبد الحميد، وكلما ازداد فهمنا له عمقاً؛ ازدادت الجوانب الغامضة في حياتنا انكشافاً. وهكذا فإن إعادة اكتشافه وفهمه من جديدٍ تمنحني سعادةً كسعادتي عندما اكتشفت الصورة الفريدة لجدّي المدفون في الشام بين أرشيف الصور المنتشرة في قصر يلدز على مساحة 30 ألف متر مربع، إنها سعادة وفرصة سانحة للتفكير. فنظراته تخاطب كل واحدٍ منا، وعنده الكثير مما يريد أن يقوله لنا. وإذا كانت هذه الأقوال تتعلق بالماضي فإنها يمكن أن تتعلق بالمستقبل أيضاً، تماماً كما في هذا الثبت أدناه، والذي يحمل عرضاً معقولاً لطريق الحل:

"نحن كنهرٍ فاض عن مجراه... ولسنا أبداً أمةً في نزعها الأخير. نحن أمة حية قوية، والقوة الفريدة القادرة على الحفاظ علينا أقوياء: هي الإسلام!".

لقد انتابني سرور عظيم لا يوصف عندما علمت أن كتابي عبد الحميد والرقص مع الذئاب الذي لقي في نسخته التركية قبولاً واهتماماً أعظم مما تخيلته في تركيا؛ سيترجم إلى العربية، وربما كان اطمئناني وثقتي بأن روحانية السلطان ستكون سعيدة؛ من أعظم أسباب سعادتي. فالحاجة تشتد إلى اكتشاف عبد الحميد من جديدٍ، ومعرفة خبرته، وإدراك طاقته، وتمييز حساسيته الإسلامية؛ في ذلك المنعطف الخطير من التاريخ الإسلامي. حتى إنني كلما وقفت عنده على كثيرٍ مما أضعناه من حساسيتنا الإسلامية؛ أبقى في حياءٍ وخجلٍ من نفسي. وربما كان في قمة هذه الحساسية عندما كان يملي تعليماته على صديقه عثمان بيك صاحب المطبعة التي أصدرت الطبعة الأولى للقرآن الكريم، فلنستمع إلى السلطان الأخير وهو يقول:

"إياك أن تلقي نثريات الورق وبقايا الحبر وزيوت المكنات من مخلفات طباعة القرآن في قنوات التصريف. فلا أرضى أن تختلط بالنفايات. أمنحك هذا الإذن بطباعة القرآن بشرط شق قناةٍ مستقلةٍ تحمل بقاياها إلى البحر".

أتمنى أن تكون هذه الترجمة التي وجدت طريقها إلى الظهور بحماسةٍ أخي الكريم وسميّي السيد مصطفى حمزة؛ هديةً جزئيةً للذكرى المعنوية للسلطان عبد الحميد، وأن تكون دليلاً متواضعاً لخارطة طريقٍ لنا، شاكراً كل من ساهم في إخراج السفر، وأخص بالذكر إخوتي: السيد مصطفى حمزة الذي قام بترجمة الكتاب في غيرةٍ وتضحيةٍ وحماسةٍ، والسيد آدم كوجال وله نصيب وافر في ظهور هذه الترجمة، راجياً أن تكون وسيلةً

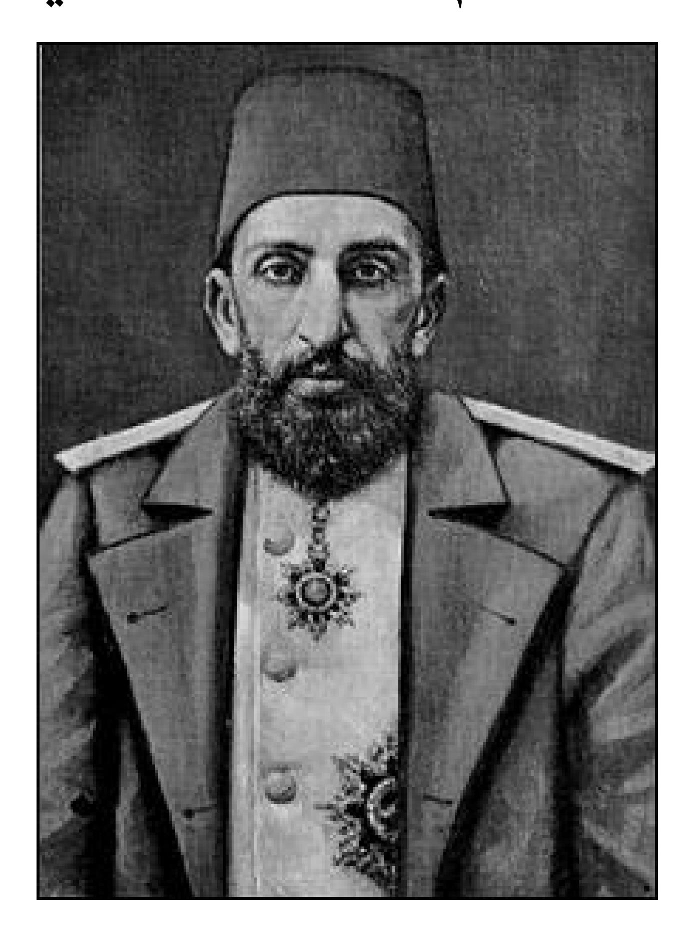
للخير.

مصطفى أرمغان

تموز *2011*إستنبول

الباب الأول

كيف نفهم عبد الحميد الثاني؟



سكتّ، فسكتت المقاومة

" كانوا يرونني رجلاً تتخبطه الأوهام، غير أنني لم أكن سوى امرئٍ غير مغفل " [4] .
السلطان عبد الحميد الثاني



السلطان عبد الحميد محتضناً "طفل السلام العالمي" وظهرت عبارة "صلح جهان".

هذا ما جرى به قلم حزين في يوم من أعوام الهدنة...

ففي إحدى صحف إستنبول، في يوم من أيام آب، في شهرٍ يعتصره الآلام، عام 1919، كان هذا التعليق المثير المليء بالأسى تحت رسم تعبيريٍّ كاريكاتيري: "سكتّ، فسكتت المقاومة!".

ولم يكن هذا المخاطب سوى السلطان عبد الحميد الثاني، الذي خلع عن عرشه قبل عشرة أعوام.

نعم... سقطتّ، فسقطت معك المقاومة... سقطتّ، فغابت منا العقول والأحلام... سقطتّ، فكان هذا السقوط الذي نحاول حتى الآن أن نكتشف:

كيف كان؟ ومن أين؟ ونحاول أن نكتشف الموقد البرونزي [5] الذي انتزعت منه اليد التي كانت تحول دون سقوطنا...

لم تكن قد مضت سوى عشرة أعوامٍ على تعرض هذا الرجل لأقذع الشتائم، وعلى نيله أشد الافتراءات، ومخاطبته بأسوأ الكاريكاتيرات وأشدها دناءةً... فقط عشرة أعوامٍ، كانت كافيةً لتنبثق هذه الخاطرة فجأةً من أعماق اللاشعور، وتجد طريقها إلى الطباعة في نار الهدنة تلك، وأتونها ومصائبها... نعم كانت كافيةً لتثير الشوق إليه، إلى درجة الجنون.

ومرة أخرى، كان السلطان عبد الحميد الثاني، وهو الرجل الأمين على الصلح والقادر على حمايته، يعود من جديدٍ؛ ليعتلي العرش مجدّداً، ولكنه يعود هذه المرة ليعتلي عرشه في نفوس الأمة... يعود فيجري في عروق صفحات نفوسهم البيضاء: تجديد البيعة، وتقديم الاعتذارات، وصكوك الندم...

كان قد رحل برحيله عصر كامل، عصر يُذكِّر بدرع داوود عليه الصلاة والسلام [6] ، فتربع على عرش النفوس متحرراً من قيود الزمان، تربع في نفوس أولئك الذين كانوا يرون في قبته التي كان يسكنها [7] محرساً لهم.

هذه القبة كانت قد سوّيت بالأرض بعد تسعة أعوامٍ من إخراجه بالقوة من قصر يلدز، وترحيله بالقطار، ونفيه إلى سلانيك... لقد دمّرت على أيدي أولئك الذين سيطروا على الحكم بوعودٍ وادعاءاتٍ متباهيةٍ مختلفةٍ... ثم ماذا كان؟!...

نعم، كان عام 1918 عام الفرار لأبطال الحرية! أولئك الذين خلعوا السلطان... فرّوا مثانيَ وفرادى من الأوطان، وتبرؤوا منها، وخلعوها كما تخلع الثياب... لم يكن قد مضت سوى عشرة أعوامٍ على انقلابهم، ولم تكن أحبار الصحف التي تسوّد صفحاتها ادعاءاتهم الطورانية، ودولتها القومية، وتوسيع الممالك العثمانية، ومدّها إلى حدود آسيا الوسطى... واحتلالهم (من أجل ذلك) الباب العالي؛ لوضع السلطة في قبضتهم القاهرة، وإدخالهم الدولة في الحرب قبل خمسة أعوام... نعم، لم تكن أحبار الصحف هذه قد جفت بعد!

لم تكن قد جفت، وكانوا يهربون...

فبعد 13 آذار/مارت حسب التقويم العثماني، أحرقوا أهم الوثائق التي كانت في قصر يلدز في ميدان بيازيد. ثم كانوا يفرون إلى خارج البلاد حاملين معهم الوثائق المتبقية...

كان ينبغي ألاّ يتركوا خلفهم آثاراً... وكان ينبغي أن تمحى كل آثار

العار من الذاكرة الخبيثة للتاريخ...

ماذا لو كشفت هذه الوثائق المهربة؟ ولماذا كانوا يشعرون بضرورة هذا التدبير الغرّ الجاهل (الحرق والتهريب)؟ وهل يشترط أن يكون هناك دوماً رجل جريء شجاع كالسلطان عبد الحميد حتى تكون هناك محاكمة في ديوان الحرب؟!... ثم... ألم يكن هؤلاء من (تركيا الفتاة) هم أنفسهم الذين حالوا دون محاكمته، على الرغم من مطالبته بذلك؟!...

فما الذي كان يعرفه هذا الرجل، ويعرفونه؟

نعم كانوا يعرفون ما يعرفه السلطان، ويعرف ذلك أيضاً بلا ريبٍ؛ فتحي أوقيار الذي نقل لنا (مطالبة السلطان عبد الحميد بمحاكمته)!...

لقد كان السلطان عبد الحميد الصندوق الأسود لعصره، بتعبير اليوم. وفتح هذا الصندوق كان يعني كشف الخبايا الخبيثة ونشرها، فإذا ما جرت محاكمته في يوم من الأيام، وبدأ بالكلام، فإن أبطال الحرية سيتساقطون من مواقعهم التي جلسوا عليها، الواحد تلو الآخر... ولذلك لم يمنحوا السلطان المخلوع حق الدفاع عن نفسه، وأحكموا عليه الباب، تحت حراب طابور من العسكر، حتى لا يعلم أحد ما يعلمه...

فهل كان يليق بهم هذا الفرار، حتى لو كان ذلك من وجه الإنكليز؟! وهم الذين ساروا في طريق الفتح الطوراني ؟! وهل كان هذا هو المثل الأعلى (الطوراني)؟ وهل هذه هي (التفاحة الحمراء) الجديدة؟!... أم إن هذا الحلم الطّوراني كان مختبئاً في يريڤان أو باكو أو برلين؟!...

ثم، ممّ كانوا يهربون؟ وإلى أين؟!... من الدوريات الإنكليزية؟! أم من الحراب الفرنسية؟! أحمد الله أننا واثقون بأنهم لم يكونوا جبناء إلى هذه الدرجة... ولكن هل كان ينبغي أن يكون أول عملهم تهريب هذا الصندوق إلى بلدان أخرى وهم ينهزمون أمام العدو في الحرب التي أدخلوا فيها الإمبراطورية؟!...

لقد مثلت هيئة أمام السلطان عبد الحميد والدولة على وشك السقوط، للمطالبة بنقل العاصمة إلى بورصة أو إلى الأناضول، فما كان منه إلا أن غضب وقال وهو يطردهم: "أبلغ العجز بنا ألاّ نستطيع أن نفعل ما فعله إمبراطور بيزنطة قسطنطين؟!"... ألم تكن هذه الحقيقة الناصعة صفعة على وجوههم؟

ويضيف فتحي أوقيار الذي أصبح رئيساً للوزراء في عهد الجمهورية، وقد فاضت عيناه، وهو يذكر ما قاله السلطان: "لقد فضل قسطنطين أن يموت قائماً وهو يحارب؛ على أن يستسلم، فهل عدمنا حتى هذه الجرأة؟!...

هاتوا لي بندقيةً، فأنا مستعد لمحاربة العدو وحدي، ولن أغادر إلى أي مكان...".

نعم، أنت هنا سلطاني العظيم وما زلت! لم تغادر إلى أي مكان... أنت هنا، وقيمتك بين الناس في ارتفاع مستمر؛ حتى وأنت ميت...

ما زلت فينا... وما زالت أنفاسك تبعث العقل والروح والحياة في أرواحنا التي تصارع الغرق في هذا البحر العالمي المتلاطم... ما زال فينا عرشك المعنوي الذي بنيته بروح المقاومة، والفهم، والتصرف الحكيم، والذكاء، وحب الوطن... وإيمان رجلٍ يعمل على تطوير عصره؛ بالملكة والقدرة العجيبة التي يملكها على التفكير متعدد الجوانب [8] ، والقدرة على الحركة...

سنصنع من الحبة قبة

تلك كلها كانت الحبات التي تتقاطر علينا من عالمك، فهل ينبغي أن نجعل من كل حبةٍ قبةً؟!... وهذه الأمة التي جعلت من كل قبةٍ حبةً تافهةً، ألا ينبغي لها أن تتعلم كيف تعود فتصنع من كل حبة قبة؟!... بلى، لقد آن الأوان لها، وهي التي سرقت من مقعدها الذي تبوّأته في قبة السماء، أن تجعل كل حباتها قبباً... وأنت يا سلطاني العظيم: ألست النموذج الأبرز في مدونة غيتسبي العجيبة للكاتب ج. سكوت فيتس جيرالد بأخلاقيتك في العمل وصرامتك وجديتك؟!... وأنت بعد ثمانيةٍ وثمانين عاماً؛ أما زلت بيننا واقفاً على علوٍّ شاهقٍ يستعصي على القياس، ببصرك الحاد الذي يميز وجهي الميدالية في آنٍ، وعقلك الجبار القادر على الإمساك بقطبي الموجب والسالب في آنٍ واحد... غير أنك في الوقت نفسه تقف في مكانك بيننا كحاجزٍ يدعونا للقفز من فوقه واجتيازه؟!

وأنت يا سلطاني العظيم، بالتأكيد لم تكن تريد أن يحصل كل هذا... غير أن الفراغ الذي تركته خلفك كان عميقاً جداً وواسعاً جداً، يجعل الناس في أمسّ الحاجة إلى موقفك، وفلسفتك، ومقدار حبك للنبي عليه الصلاة والسلام، ووطنيتك، وروح المقاومة عندك، ليتمسكوا بها... لقد سقط الناس في هذا الفراغ بعدك بل أسقطوا فيها...

وأنت بنفسك أيها السلطان لم تقل عنهم إنهم خونة، ولم يكونوا في نظرك سوى رجالٍ مغفلين. ولم يكن هؤلاء في الحقيقة إلا أدواتٍ في الحديقة التركية للعبة التقاسم الدولية، وقد أدركوا ذلك في وقتٍ متأخرٍ جداً، في عام 1919 وهم يهربون، بعدما ارتفعت أصوات المفرقعات، وبعد فوات الأوان...

وبعد تسعة أعوامٍ فقط؛ انكمشت مساحة المليون كيلومتر مربع إلى مئات ألوفٍ مربعةٍ قليلةٍ، بسبب تلك الأيدي الغافلة الجاهلة. واللاعبون الكبار ممن حاولت جهدك في إشغالهم، كانوا يرون في الأرض المنحصرة في مثلث أنقرة- سقاريا- قونيا فقط بلداً يليق بهذه الأمة المنكوبة. ولولا الوثبة الأخيرة لكان من الممكن ألاّ يبقى لنا وطن ولا علم مستقل.

لقد تم احتلال (الوطن) الذي آليت على نفسك بألا تبيعه، بعد وفاتك، من قبل الإنكليز والفرنسيين والطليان وحتى اليونانيين، فداست ترابه أحذية الإمبرياليين ودنّسته.

نعم لقد تركت وطنك قبل أن ترى سفن الإنكليز، تستعرض قوتها في مضيق البوسفور، وتقصف وتحرق إستنبول قبيل هدنة موندروس ، تماماً على عتبة هذه الأيام المليئة بالكوابيس... تركته ولكن ليس كما يتركه الآخرون...

فهم فروا إلى الخارج، وانسحبت أنت إلى أعماق الأرض... لقد حفظتك قدرة الله التي انحنيت أمامها كل يومٍ خمس مراتٍ من سيول أمواج النار...

لقد كتب سزائي قرة قوچ في اليوم التالي لوفاة نجيب فاضل وعنون مقالته بمقولته الشهيرة: "النسر الذي سحبته السماء" فحطّت فوق المقالة كالتاج أو كالعقاب...

غير أن هذه المقولة في رأيي كانت تليق بالسلطان عبد الحميد الثاني على الأقل؛ بالدرجة نفسها التي تناسب نجيب فاضل، حيث كان السلطان متمسكاً بالجذور المورثة نفسها التي ارتبط بها.

وما ينبغي لنا أن ندركه هنا: أنه من غير المهم اليوم وجود السلطان عبد الحميد بشخصه، وليس مهماً وجوده البيولوجي، لحمه، دمه، ظفره، عينه، أذنه... بل المعنى الذي يتركه لهذه الأمة، وهذه الملة، وهذا المجتمع... فهو رمز المقاومة النبيلة للإمبريالية... وواحد من بقايا شجعان القلعة الأخيرة ، والجزيرة الأخيرة...

فأسوار القلعة في زمانه قد كثرت فيها الثقوب والثغرات، واستعصت على الراقع... فما يكاد يسد ثغرةً إلا ويرى ثغرةً أخرى تفتح... فيتوجب عليه أن يجري نحوها ليستدرك فيها الخلل... لقد ارتفعت ألسنة اللهب، وبدأت تسيطر على سواري هذه الدولة... وما كان السلطان ليغتمّ، لو أن المدافعين عنها أرادوا الثبات والمقاومة والدفاع... ولكن، لم يكن يستطيع أن يرى الحل في حركة الخروج، فبصره كان سيبقى معلقاً وراءه... [9] .

إذاً، لم يكن هناك سوى عملٍ وحيدٍ ينبغي له أن يقوم به، مستفيداً

ممن قاموا بدفاعهم الكبير وانتفاضتهم الأخيرة، ألا وهو بناء سورٍ جديدٍ من الداخل، بعدما تهالك السور القديم بفعل الأعداء، وعندها وفي غمرة فرحهم بسقوط هذا السور القديم، وظنهم أن الطريق إلى الداخل صار ممهداً؛ سيفاجئهم السور الجديد، وهناك ما بين السورين سيجري الصراع الأكبر والأشد دموية...

ولهذا كان حكم السلطان عبد الحميد الحازم يشبه حقيقةً النظام الحميدي كما يعبر عنه الغربيون. هذا النظام الذي يقدم السور الداخلي جواباً للحصار الذي ترك الباب مفتوحاً لعبور الحدود إلى الخارج... وهذا النظام الذي كان يرفع السور الداخلي على شكل رقابةٍ قويةٍ، ويستعرض قوته على شكل استبدادٍ، ولا يخلو من جهاز شرطةٍ سريةٍ لا تفوته فائتة كما يقولون... ولكن... ولكن، هذه كلمة مهمة... لا بد من التوقف عندها.

الحرية، أم الأمن؟!

لنحاول الآن أن نغرز المسلّة في أجسامنا، ولنحرض خيالنا، ولنتصور: لو أن الجمهورية التركية دخلت في حربٍ مع الولايات الأميركية، وأن جيشنا تعرض للهزيمة أمامها، وقدمنا خسائر كبيرةً في الأرض، ثم جلسنا على طاولة مفاوضاتٍ تلتمس الصلح مع الولايات المتحدة الأميركية، ولم يكتفوا بالأراضي التي احتلوها، بل فرضوا علاوةً على ذلك ملايين الدولارات تعويضاً لهم، وقبلنا شروطهم مضطرين؛ لأن العمود الفقري للجيش قد تعرض لتخريبٍ كبيرٍ؛ ولأنهم لو استمروا في الحرب لكانت عاصمتنا ستقيم مجالس العزاء. ولنتصور أن هذا الاحتلال للأرض كان انتقائياً لم يخضع لأي منطقٍ عقليٍّ، بل كان الاختيار بالنظر فقط إلى أرقام الولايات من 1 إلى 25، أي من أضنة إلى أرض روم، فاختارت فيها مواقعها...

فما هي هذه الولايات؟! إنها:

أضنة، أدي يمان، أفيون، آغري، أماسيا، أنقرة، أنطاكية، أرتوين، أيدن، بالي كسير، بيلاجيك، بينغول، بيتليس، بولو، بوردور، بورصة، چناق قلعة، چانكري، چوروم، دنيزلي، ديار بكر، أدرنة، ألازيغ، أرزنجان، أرض روم.

فلو تعرضنا- لا قدر الله- لمثل الاحتلال، فكيف يكون شعورنا؟! أيمكن أن يكون هناك تصرف طبيعي أكثر من اتخاذ كل التدابير اللازمة لتأمين ربط الأجزاء بعضها ببعض من أجل حمايتها؟!... أم كان من الممكن أن تبقى الحقوق الديمقراطية، وحرية الرأي والصحافة والقضاء، ومؤسسات المجتمع المدني من دون أن تتأثر بهذا الذعر والهلع؟!... والدول المنتصرة في الأصل تسعى إلى التدخل في العناصر الداخلية، وتحاول أن تضع تحت

إشرافها كل أمورنا الداخلية... أيمكن في ظل هذه الظروف أن يقال: "فليقل كل ما يريد، فسأمنح شعبي الحرية التامة"؟!... وفي وضع عصيبٍ كهذا، أكان من الممكن أن تمنح الحريات، وأن يترك الحبل على عاتق الدولة لتسير على هواها؟!...

وتصوروا الذعر والطيش اللذين يتملّكان رئيس الولايات المتحدة في العالم الحر، فيأمر بإخضاع الناس لتفتيشٍ دقيقٍ يصل إلى الأحزمة الداخلية للناس، لماذا؟؛ لأن ثلاث طائرات ضربت هنا وهناك... ضعوا نصب أعينكم هذا، ثم تكلموا عن استخبارات السلطان عبد الحميد، واستبداده، وشرطته السرية.

فعبد الحميد كان بالضبط في وضع كهذا، عندما دفعوه إلى حرب 93 [10] واصطلى بنارها، بل كان في وضع أشد؛ لأنه لم يكن لديه المعين الذي يصنع الرجال الذين يرتقون إلى المستوى الذي يحتاج إليه الصراع مع الأعداء في عالمه.

أضف إلى ذلك جلوس الذئاب على رأس الرجل المريض يتقاسمون تركته في العاصمة، في مؤتمر الترسانة البحرية الذي انعقد في إستنبول بين الدول الكبرى لمناقشة دار السعادة العثمانية [11] .

أتعلمون؟!... إنه لم يسمح للعثمانيين أن يرسلوا، على الأقل، مندوباً يمثلهم في هذا المؤتمر الذي يناقش مصير الدولة العثمانية كله وجوداً وعدماً... نعم، لم يسمح لهم بذلك، كما لو أن عمليةً جراحيةً تجرى على أجسامكم ولا يسمح لأيّ مراقبٍ من قبلكم أن يتابع سيرها، فليس لكم إلا أن تنتظروا وتذعنوا للقرارات التي تتخذ في حقكم... وربما كان أكثر شيء يمكن فعله، الإعلانَ عن هذا المؤتمر مع التمنيات بأن يكون ذلك لخيرنا... ثم الالتفات إلى ما يسمى بالدولة الحديثة وشل قدرتها وردود أفعالها، من خلال مزاعم الحرية والديمقراطية التي تحاول تجميل الصورة على طريقة المساحيق، بدلاً من العمل على إنقاذ الأجزاء المتبقية الناجية من الاحتلال؛ بتقوية روابطها وتماسكها في مواجهة تهديدات الإمعان في تمزيقها...

في ظل وضعٍ حرجٍ كهذا، قام صاحب الأمر السلطان عبد الحميد بكل ما ينبغي أن يقوم به أي حاكمٍ مسؤولٍ: فكان عليه أولاً أن يقصي الذئاب ، ويُوجِد لهم مشاكل تشغلهم وتلهيهم، ثم يسحبهم بعيداً إلى مسافة لا يمكنهم معها معاودة الهجوم. وفي الداخل، كان عليه أن يدرك أن هذه الحرب التي أجّلها؛ إنما يؤجّلها إلى أجلٍ سيكون بعده أمام حربٍ

لا يمكن تجنّبها، ولذلك كان عليه أن ينسج التركيبة المعرفية والروحية التي تهيئ الناس ليكونوا أقوى وأقدر على المقاومة والكفاح، وأكثر معرفةً، وأشد تمسكاً بالوحدة، وإدراكاً لمفهوم الوطن وارتباطاً به.

والطريق إلى هذا كان يمر من معبرٍ وحيدٍ يقوم على تأمين مرحلةٍ من الهدنة والصلح. وكان لا بد من أن يبدو هو في صورة المسالم، المرن والميال إلى الصلح، وأن ينجح في ذلك من دون المساس بشرفه أو التضحية بشخصيته. وإلا فسيسقط عن الاعتبار، ويفقد دوره وأهميته.

ولن تبقى للحدود وحمايتها أهمية كبيرة إن تم التخلي عن عثمانيته ... [12]

فكان على السلطان أن ينجح في ذلك كله، من دون أن يقطع إشارة الإرسال: "أنا هنا"...

لقد نجح عبد الحميد في كل هذا، ولو فشل؛ لكانت الدولة قد تمزقت أشلاء ما بين عامي 1880-1890، في ظل النهم الاستعماري الذي كان يأتي على الأخضر واليابس، في ذلك العصر...

وكان يتوجب عليه القيام بكل المواقف التي تطيل عمر الدولة، حتى اللحظة الأخيرة من حياته. وكان الأمر يحتاج إلى الهدنة والاستقرار، وكان لا بد في هذا الوقت المصيري من إعادة تشكيل بنية النظام، وكان ينبغي قبل كل شيءٍ أن تبقى الصورة العثمانية قائمةً...، قبل التربية والتعليم، وقبل التكنولوجيا والثقافة والعلوم والمؤسسات والبناء و...؛ لأنه كان يدرك أنها - أي العثمانية - إن ذهبت، فسيتعرّض الكل لابتزاز العقوبات، ولن يكون هناك مفرّ من فقدان فلسطين ومقدونيا وأدرنة والموصل...

فالسلطان عبد الحميد ولي الأمر المقيد بكل هذه الشروط عندما كان يعطل المجلس في يوم من أيام شباط عام 1878 [13] ؛ كان يتحرك بحركة حاكمٍ وضعت يداه تحت الصخور: الثلث الأفضل من أراضيه تحت الاحتلال، وخمس سكانه لم يعودوا تحت سلطته، حتى الأناضول وقبرص لم تسلما من التضحيات [14] .

كنت قد قلت: من الصعب أن تكون عبد الحميد. وأضيف هنا: من الصعب أيضاً صياغة المجتمع الذي أوجد عبد الحميد في ظل هذه الشروط. ومن يتكلم من دون أن يدرك هذا الوسط الاجتماعي الذي كوّن عبد الحميد ثم ساقه إلى النفي، فهو رجل غرٌّ جاهل في نظر العالم... إذاً، فليس أمامنا سوى أن نتعلم وأن نفهم...

فهم عبد الحميد

أنت كالأم، تملأ الآفاق عطفاً ورعايةً وحناناً .
سزائي قرة كوچ

ختم نجيب فاضل قيصة كورك [15] كتابه الشهير الخاقان [16] المعظم عبد الحميد خان الثاني بهذه العبارة البينة الرائعة: "أن تفهم عبد الحميد؛ يعني أنك تفهم كل شيءٍ".

فهل حقاً فهم السلطان عبد الحميد الثاني يمكن أن يكون المفتاح السحري الذي يفسر لنا كل شيءٍ كما يقول نجيب فاضل؟!... فإذا كانت هذه العبارة قد قالها نجيب فاضل، وفي جملةٍ ختاميةٍ لكتابه الشهير، فإنها تكون بالتأكيد جديرةً بالوقوف عندها... فأمثال هذه الجمل عندما يرسلها كتّاب كبار؛ تكون كالقنابل النووية في خلايا الدماغ، تتحرر بتفجيرها طاقة عظيمة تحار لها العقول... وهذه الجملة، أليست موجودةً هناك ليتمّ تفجيرها في العقول؟!...

وكتاب نجيب فاضل هذا بحجمه الكبير البالغ 639 صفحة في طبعته الثالثة عام 1977؛ يشكل على العموم أحد الأعمدة التاريخية التي تنهض عليها إيديولوجيته في لونها الخاص به... ونجيب فاضل الذي يعشق دائماً أن ينظر في مغامراته الفكرية بالارتقاء إلى أكتاف القمم من شخصيات التاريخ، نراه يظهر لنا السلطان عبد الحميد الثاني خطيباً مفوهاً يعلن بصيحاته المدوية أسرار عصرٍ تم فيه إسكاته وسوقه إلى الظلام. كما نراه قد وضع كتابه الخاقان المعظم عبد الحميد الثاني إلى جانب أطروحته التأسيسية النسيج الإيديولوجي [17] والذي يعتبر من أهمّ كتبه حسب تعبيره، بل يعتبر منشوره وبيانه العام؛ المانيفيستو .

يرى نجيب فاضل في مطلع كتابه أن كل ما قيل عن عبد الحميد الثاني من اتهاماتٍ؛ كان نقيضها هو الصحيح، ويقبل به مبدأً عاماً يجري به في صفحات كتابه كلها، ويسوق الأدلة في ذلك... ربما لن يسلم ذلك عند النظر في مناهج المؤرخين وقواعد التاريخ؛ فالتاريخ لا يبدو كسلسلةٍ متناظرةٍ من الخطأ والصواب. غير أنه في نظره؛ كان من الضروري أن ندرك أن عبد الحميد الثاني يؤدي في تاريخنا القريب دوراً يتميز به عن الكتب الصفراء [18] .

وبتعبير آخر، يمكن في نظره أن نميز المثقفين ورؤيتهم للعالم، ووجهة

نظرهم عن تاريخنا وحاضرنا، وأن ندرك اتساع آفاق تفكيرهم أو ضيقها، وما يدعون إليه... من خلال موقفهم من السلطان عبد الحميد الثاني. ويمكن أن نوجز رأيه بهذا القول: "قل لي من هو عبد الحميد، أقل لك من تكون!". ولذلك ينبغي لنا أن نفهم قوله: "أن تفهم عبد الحميد يعني أنك تفهم كل شيء" في إطار محاولته إيجاد معيارٍ لتشخيص الانتماء إلى الأمة...

وبتعبيرٍ آخر أيضاً، يشكل هذا السؤال الصيغة التي ترينا مشهد الظلال التي تسقط على بلدنا القاحل من تاريخنا القريب، على شكل ثلاثية الأسئلة التي افتتح بها أحمد حمدي طنبنار كتابه المدن الخمس : ماذا كنا؟ ومن نكون؟ وإلى أين نمضي؟ [19] .

وفهم العالم الواسع للشخصيات المفتاحية في التاريخ؛ يملك القدرة على أن ينير حاضرنا ومستقبلنا، وربما كان عقد اللقاء بين المرشحين لقيادة المستقبل وبين أصدقائهم في المهنة من التاريخ، جزءاً من عمل المؤرخ ووظائف التاريخ.

مفاتيح التاريخ القريب

وهكذا بمرور الوقت يتبين بوضوح أن عبد الحميد الثاني كان قبل كل شيءٍ واحداً من هذه الشخصيات المفتاحية في تاريخنا السياسي والاجتماعي والثقافي والعسكري والتكنولوجي... بل في تاريخنا كله. ويعود تفرده هذا إلى واقع من سبقه من السلاطين، على الأقل في سلسلة سلاطين العصر الأخير، وإلى الفراغ المدوّي الذي تركه مباشرةً بعد رحيله، وصدمة الانهيار المتسارع الرهيب... فكان ينبغي تصوير الذّروة التي لا يرتقى إليها، والتي رفعه إليها دوره الحرج في نقطة القدر التاريخي التي تجمع بين مشهدين تفوح من طرفيهما رائحة الحريق...

ومن السعادة اليوم أن نرى انكشاف الخطوط العريضة لتلك الذّروة التي غيّبت عنّا بطلاءٍ كثيفٍ، وإن كان ذلك ببطءٍ وتثاقلٍ... وأن تظهر في هيبةٍ وجلالٍ حقيقة عبد الحميد في آفاقنا من جديدٍ. وإذا تحدثنا بلسان نظام الدين نظيف، فإن عبد الحميد كالنور، يزداد بريقاً بين الناس كلما تقدم الزمان .

لقد جرت المضاربات السلبية على الركام المتعلق بعبد الحميد خان الثاني، الذي يحمل صفة رئيس الدولة لأطول فترة حكمٍ خلال 322 عاماً بدءاً من خلع السلطان محمد الرابع عن العرش عام 1687 [20] ، وما زالت هذه المضاربات مستمرةً، وعلى الأغلب ستستمر وإن ضعفت جرعتها،

وهذا أكبر دليلٍ على كون هذه الشخصية ما زالت على قيد الحياة.

لقد خلع عبد الحميد الثاني الذي نصفه بالسلطان الأخير عن العرش في 24 نيسان عام 1909، ويقابل 31 آذار/مارت حسب التقويم العثماني قبل مئة عامٍ، بحجة حادثةٍ مصطنعةٍ [21] ، والأغرب منها اللجوء إلى أسبابٍ شرعيةٍ مزعومةٍ، كالأمر بإحراق الكتب الدينية أو منعها.

يتحدث حسين جاهد يالچين صاحب جريدة طنين التي كانت تصدر في تلك الأعوام، في ما بعد في خواطره قصة عشرة أعوام بأسلوبٍ وجيزٍ، عن الدولة التي تدحرجت إلى الفوضى والضياع بعد المشروطية، وتركت بلا راعٍ ولا صاحبٍ [22] . ويذهب فتحي أوقيار الذي أصبح في ما بعد رئيساً للوزراء إلى الرأي نفسه، فيتحدث عن الذهول والحيرة والشغب والاضطراب في عهد المشروطية الثانية، فيقول:

لقد أعلن الاتحاد والترقي المشروطية، وحوّل نظام الحكم من المطلق إلى المقيد، لكنه لم يتمكن بعد ترقّيه إلى الحكم أن يحافظ عليه، ويقوم بمسؤوليته؛ لأنه لم يكن يملك فلسفةً للحكم، ولا الكادر الذي يديره، ولا الاستعداد الذي يتطلبه... ففي المشروطية كان الحكم في الظاهر لنا، ولكنه في الحقيقة كان استمراراً للماضي [23] ، ولم تكن سوى حركة هدمٍ انفجرت فجأةً في ظل تلك الفجوات [24] .

ونحن باعتبارنا الاتحاد والترقي؛ لم نتحمل كامل مسؤوليات المشروطية، وفي الوقت نفسه كنا الحزب الحاكم باعتبار الأغلبية في المجلس. وبينما كانت أقدار الوطن في أيدينا، وعلى عاتقنا؛ لم نكن في الحكم حقيقةً؛ لأننا لم نكن نملك الكفاءات القادرة على ممارسته، ولا الفلسفة القادرة على تكوين هذه الكفاءات. وما من شكٍّ في نوايانا الحسنة التي كانت- على ما أعتقد- الدافع الحقيقي في التصدي لحمل مسؤوليةٍ عظيمةٍ كهذه [25] .

آهٍ من النيات الحسنة هذه! ولم يكن عبثاً قول الإنكليز: "إن الطريق إلى جهنم معبّدة بأحجارٍ من النوايا الحسنة".

وما دامت أبخرة الجدل حولهم تفوح بيننا، فإن هذا النوع من الشخصيات تبقى بعد وفاتها وكأنها على قيد الحياة، ولذلك أصرّ على تسميتها بالشخصيات الحية . وبهذا المفهوم، ألا يكون عبد الحميد على قيد الحياة: بما عمله وما تركه، بحسناته وعثراته، وصوابه وخطأه، ومشاريعه وحملاته ومواقفه، وآفاق تفكيره وحدوده؟!...

ويمكننا أن نقول: "ما دامت خفقات حياته تنبض في سرائرنا جيلاً بعد جيلٍ بعد إبعاده عن السلطة، وما دام بين الناس يدعوهم ويحرضهم

على الجدل حول شخصيته، عندها تكون شخصيته هذه قد وجدت إكسير التحمل والمقاومة والبقاء في تيار الزمن المفتّت الطاحن الهدام".

وينبغي ألا يغيب عن الأنظار التحول الأصولي الراديكالي في بنية التنظيمات العثمانية في إصلاحات عبد الحميد، وهذه الإصلاحات إن لم تكن في صلب التنظيمات؛ فإنها ظاهرة في معالجتها أخطاء التطبيق الأساسية. فقد باشر السلطان عبد الحميد إصلاحاته في ترميم نظام الحكم والسلطنة، وقد بدأ بالتآكل من زمن السلطان محمود الثاني، وتضررت مشروعيته في عيون الرعية؛ وذلك من خلال التطوير المعنوي لمحيطه، واستهدفت استعادة الدولة العثمانية القوة والعافية لبنيتها، واستعادة مكانتها في الصراع الدولي.

النظام القضائي لدى عبد الحميد

ينبغي لنا هنا أن نستمع إلى المؤرخ يلماز أوزتونا وهو يتحدث عن النظام القضائي- التنظيمات العدلية- في عهد السلطان عبد الحميد، وكيفية الإشراف الحازم عليه، إذ يقول:

" لم يلتقط السلطان الدولة من الشارع، ولم تكن فضلاً عليه وإحساناً من أصحاب المشروطية. فاستطاع أن يكون أهلاً للإمبراطورية، واختار مسؤوليةً ثقيلةً باختياره السلطة الفردية .

وكان منظماً بارعاً؛ إذ قام بتطوير النظامين القضائي والتعليمي اللذين أسسهما جودت باشا، ووضعهما موضع التطبيق. ولما كان من مبادئه الفصل بين السلطتين القضائية والتنفيذية، وبتعبير آخر عدم تدخل السلطة السياسية في عمل المحاكم؛ فإنه خضع له خضوعاً كاملاً من غير تقصيرٍ " **[26]** .

لم يصادق السلطان عبد الحميد طيلة سنوات حكمه إلا على أحكام الإعدام الصادرة بحق أحد عشر شخصاً في الجرائم العادية، بينما كان عفوه الدائم يطال مرتكبي الجرائم السياسية، وكان ذلك سبباً لإفساد العلاقة بينه وبين القضاء، حتى إن وزير العدل- ناظر العدلية- عبد الرحمن باشا وهو من أكثر من يثق به من وزرائه، قد توجه إلى القصر وقدم استقالته قائلاً: "ألا تثقون بعدالتنا فتخفّفوا أحكام الإعدام إلى الحبس المؤبد؟! فما كان من السلطان أمام هذا الانتقاد الشديد إلا أن بين له وجهة نظره: إن القضاة بطبيعتهم البشرية ربما وقعوا في الخطأ، فهو يحاول فقط أن يجنبه عذاب النفس بسبب خطأ لا يمكن الرجوع عنه. فعدل عن استقالته [27] .

وإذا كنا لا نستطيع أن نصف قدرته على التنظيم بالكمال، فإن من المفيد هنا أن نتحدث عن توجّهٍ جديدٍ لديه للتمسك بروح التنظيمات واستدراك الخلل فيها، ومواجهة أي سلوك للانفصال عن الأمة أو أي انزلاقٍ

نحو الاستبداد. وبتعبير آخر، ينبغي لنا ألاّ ننسى أنه عندما يذكر عبد الحميد، فإنه يقف أمامنا بصورة ملك الحكماء المصمّم على إعادة تشكيل التنظيمات، ووضعها من جديد على السكة العثمانية.

ويذهب فرنسوا جورجيون إلى الرأي نفسه، إذ يرى أن إدارة عبد الحميد والتي اقترنت بتنظيماته قد صيغت كردّ فعلٍ؛ في تجديدين اثنين:

الأول: يبدو في إقامة سلطنةٍ قويةٍ مقابل الضعف والتقلص اللذين كانا قد لحقا بصلاحيات السلطان.

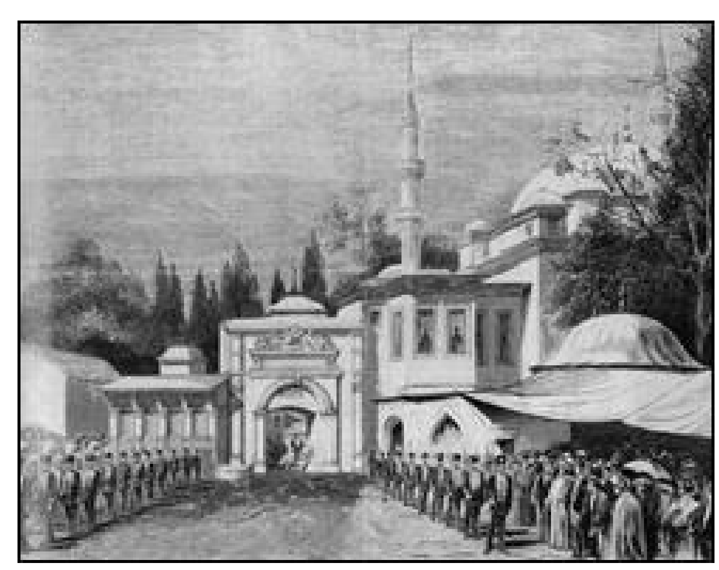
الثاني: يبدو كردٍّ على ليبرالية مدحت باشا، وانتصاره للحكم الدستوري، والذي يمثل الحلقة الأخيرة للضعف [28] .

ولهذا السبب ينبغي لنا أن نأخذ مقولة نجيب فاضل: "أن تفهم عبد الحميد يعني أنك تفهم كل شيء"، على أنه يظهر أن المقاومة التي قام بها عبد الحميد لم تكن على طريقة وضع القدم في طريق الجريان الأعمى للأحداث، ولكنه أمل وشوق إلى وضع أحداث عصره مرةً أخرى في لون الحضارة التي ينتسب إليها، وليس هو الشوق والأمل فقط، ولكنه مشروع قابل للتحقيق ينبغي لنا أن نجرّبه.

لقد كان هذا الرجل صاحب مشروعٍ كما سنرى، لكنه لم يكن طوباوياً. وبكلمةٍ واحدةٍ، كان المندوب الخاص الأخير الذي يؤمن بقدرة الإسلام والعثمانية على إضفاء لونها الخاص على العصر الحديث، ويحمل المعرفة اللازمة لتحقيقه.

وعندما يقال السلطان عبد الحميد خان الثاني؛ فإنه يعني عودة المفاتيح الصدئة للأبواب السوداء التي أغلقت علينا من مكامنها.

الباب الثاني
شخصية عبد الحميد



حفرية تظهر مراسم تقليد السيف للسلطان عبد الحميد في جامع أيوب سلطان
(كما يسميه الأتراك، وهو جامع أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه، وفيه قبره رضي الله عنه،
وفق كرامات أق شمس الدين شيخ السلطان محمد الفاتح. م.). من مجلة L'illustration الفرنسية.

من هو عبد الحميد؟!

إن كل يومٍ من عصر عبد الحميد يمتلئ بألف لغزٍ [29] .
نظام الدين نظيف

إن عبد الحميد الثاني واحد من أكبر ألغاز تاريخنا القريب. وعلى الرغم من أنه عاش بالأمس في تاريخنا القريب، فلم تستطع أيّ شخصية أخرى أن تجيد الانسحاب إلى الظلال، وتسدل على نفسها الستائر، وتحتجب عن الخارج مثله. وهذه نقطة التقاءٍ بين المراقبين من الداخل والخارج.

وأعوامه الثلاثة والثلاثون (1876-1909) التي أمضاها في الحكم؛ تشكل أكثر الفترات وأشدها ألماً وإحراجاً في علاقاتنا مع العالم الإسلامي وأوروبا والعالم، إذ تصادف نقطة تحولٍ في غاية الحرج بسبب التطور العلمي والتكنولوجي في التاريخ الإنساني والمدني، كما أنها نقطة تحولٍ حادةٍ في المدنية والجغرافيا والمجتمع والتاريخ العثماني.

يصادف قدوم عبد الحميد إلى الحكم في نهايات القرن التاسع عشر؛ بداية الصعود الإمبريالي العام، وسيره نحو التقاسم الدولي. فقد كان على رأس الإمبراطورية العثمانية كواحدةٍ ربما من أشد الإمبراطوريات تعقيداً في بنيتها، وفي فترة من أسرع فترات التاريخ الإنساني [30] ، كما يقول فرنسوا جورجيون، وهو من أوائل الكتّاب الذين تناولوا سيرة عبد الحميد بشكلٍ علمي. وتعود العوائق التي تظهر في طريق فهمنا لساحة مقاومته وسياسته الخارجية التي نفذها، إلى غموض الظروف التي كانت تحيط به.

كيف يخرج في هذه الدولة، في هذه الفترة الحرجة التي تحاصر فيها الأزمات الخانقة مركّب علاقاتها الداخلية والخارجية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية إلى هذا الحد الذي يطلق عليها لقب الرجل المريض؟ ... كيف يخرج من هذه البنية رجل الدولة، والسياسي الخبير، والعبقري الذي يعرف كيف يلملم شتاتها، ويضع في الثلاجة مدة ثلاثين عاماً على الأقل كل التأثيرات السلبية للتطورات في بلده وإقليمه ويجمدها؟!... كيف يخرج هذا الرجل الذي يستطيع إدخال الدولة في سلسلة الأحداث التي تؤمّن له الزمن الذي يحتاج إليه العمل لبقائها، ويتمكّن من النجاح في ذلك؛ في أداءٍ مدهشٍ يفوق الخيال؟!...

حادثة 31 آذار/مارت حسب التقويم العثماني

تعطّل اتفاق السلطان عبد الحميد مع البلقان

إن كان يجوز لنا أن نقبل توقعات الخبراء، وشهادات الذين عرفوه

عن قربٍ؛ فلو كان السلطان عبد الحميد في الحكم، لما كان ليسمح بدخول الدولة العثمانية في حرب البلقان، وما كان ليسمح بدخولها الحرب العالمية الأولى، وكان من الممكن إطالة عمرها إلى ما بعد الحرب. وما كان ليدخلها، لو أراد ذلك، إلى جانب دولةٍ تعتمد على قواتها البرية كألمانيا، بل كان ليرجّح الدخول في تحالفٍ مع الدول التي تمتلك قواتٍ بحريةً كإنكلترا وفرنسا كما يتبين ذلك من أقوال السلطان.

بقي أن نقول إن السفير صالح منير باشا في باريس كان قد وصل إلى إستنبول يوم وقوع تمرد 31 آذار / مارت حسب التقويم العثماني قادماً من بخارست عقب لقاءاتٍ أجراها تحضيراً لمشروع اتفاق البلقان ، غير أنه عاد أدراجه من دون لقاء السلطان عندما نشب الصراع، وانتهت بلا نتيجةٍ خطوة السلطان عبد الحميد الجادة، والتي كان يتوقع منها تجنب حرب البلقان [31] .

ربما لم يسمح السلطان عبد الحميد في إدارته الحازمة للأدوات السياسية كالدستور والبرلمان والنواب؛ أن تمارس دورها في ظل الشروط الصعبة في عصره. غير أنه استطاع أن يؤمّن لنا بذلك أن نجتاز فترة الثلاثة والثلاثين عاماً من حكمه بأقل الخسائر. وبقيت الدولة بحسناتها وسيئاتها كعروسٍ بالمحافظة على وحدة أراضيها حتى حرب البلقان، بل حتى الحرب العالمية الأولى! والأهم من ذلك أن الأسس التي تقوم عليها تركيا اليوم قد وضعت في حكم عبد الحميد [32] ، ولو أنه تصرف خلال حكمه بلا حكمةٍ كالاتحاديين، فإن سفينة الدولة ما كانت لتبلغ شواطئ القرن العشرين، وربما كانت ستعيش مخاطر تقسيم أشد وأعمق منذ ثمانينيات القرن التاسع عشر- نحو عام 1880 - وعندها لم يكن لهذا الكيان السياسي الذي يدعى الجمهورية التركية وجود.

وختاماً، فإن حكم عبد الحميد يقع في مثل هذا المنعطف الحياتي الكبير، ومما لا جدال فيه أهمية هذه المرحلة المليئة بالمتغيرات في فهم حاضرنا وتاريخنا القريب.

ومع كل هذه الأبعاد الظاهرة لشخصية عبد الحميد الثاني، فإنه باستثناء مراسم تحية الجمعة التي يحضرها، حيث يستقبل الناس موكب السلطان ويسلّمون عليه عند قدومه لصلاة الجمعة، كان يغلق على نفسه أبواب قصر يلدز، فلا يطلع على خصوصياته وتفكيره أحداً إلا المقربين الذين يعيشون في محيطه، ويحافظ على مبدأ الحضور غير المرئي في علاقاته مع الخارج [33] . وبسبب ذلك جرى التنافس في المبالغات والأكاذيب حول

شخصيّته في تركيا والعالم الإسلامي والغربي، فمن قائلٍ: "إنه كان سفاحاً يقتل كل من يقبض عليه من الشبان، ويلقيهم في البحر"، إلى قائل: "إنه يكتنز في خزينته أطناناً من الذهب"، إلى آخر يقول: "في قصره آلاف الجواري".



في أثناء مراسم تحية الجمعة للسلطان عبد الحميد الثاني. تصوير أليسازونارو.

ولم تكن هذه المنافسات سوى آثار الدعايات الناجمة عن أولئك الذين ضاقوا ذرعاً بسبب عدم تمكنهم من النفوذ إلى حياته الخاصة وعالمه الداخلي. غير أنه في متناول أيدينا اليوم من الشهادات الخطية التي تحملها ملفات مئات الشهود الذين التقوا السلطان عبد الحميد الثاني، مواطنين وأجانب، بدءاً من السفراء والسيدة ماكس مول إلى الصحفي الإنكليزي أم دوبلاوتز والكاتب الحائز على جائزة نوبل Hamsun Knut ؛ ما نستطيع من خلالها إلقاء الضوء على جوانب غامضةٍ تتعلق بصفاته الإنسانية، وشخصيته الثقافية والفكرية والعقلية، وهواياته، وشخصيته القيادية، وصفاته كرجل دولة. وسنحاول التلميح إليها تباعاً.

صورة عبد الحميد الفكرية والثقافية

أسئلة وجهها إلى بغنام باشا عن الحرب الروسيا اليابانية كانت قد أسلمت هذا القبطان الأميركي إلى حيرةٍ كبيرةٍ، فكان يسأل: "عجباً كيف استطاع أن يمتلك هذه المعلومات التي تحتاج إلى الخبراء المتخصصين في هذا الموضوع؟"، ولم يصل إلى الجواب حتى الآن .

رؤوف أورباي

استراتيجية لفتح الإمبراطورية من جديدٍ

أخيراً، ظهرت السيرة الذاتية لعبد الحميد الثاني، وفي فرنسا التي كانت تدعوه ذات يوم بالسلطان الأحمر؛ Le Sultan Rouge ، باعتبارها أول سيرةٍ ذاتيةٍ لتركيٍّ. فقلم العالم الفرنسي فرنسوا جورجيون الذي كان قد أدهشنا من قبل في السيرة الذاتية ليوسف أقجورا، ... قد جرى هذه المرة في ردٍّ منصفٍ على ما يدعيه مؤرخو العالم، ورعاة الأرمن، ودعاة جون تورك- أي تركيا الفتاة- بمقدار ردّه على الرأي العام الفرنسي.

وكان جورجيون قد بين آراءه عن السلطان عبد الحميد الثاني في مقالةٍ له من 15 صفحة [34] قال فيها: "أن تفهم عبد الحميد، وتفهم فترة حكمه؛ يعني أنك تفهم تركيا اليوم!". تذكروا ما كتبه نجيب فاضل: "أن تفهم عبد الحميد، يعني أنك تفهم كل شيء". ويتحدث جورجيون في فقرةٍ هامةٍ أخرى عن محاولة عبد الحميد فتح البلاد العثمانية من جديدٍ. وهذه المدوّنة في رأيي تستحق أن تحتل مكانها بين أكثر الأحكام اللافتة للانتباه في حق عبد الحميد!...

نعم، إنه فتح للإمبراطورية من جديد!... فتح سياسي، وفتح في المواصلات والاتصالات: نصب أعمدة التلغراف، ومشروعات السكك الحديدية، وفتح في الدبلوماسية والسياسية الخارجية... وفتح جديد في صورة الدولة العثمانية... وهو أيضاً فتح ثقافي جديد، وهو ما سنقف عنده في هذه الفقرات... وربما كانت الشخصية الحقيقية الخفية لعبد الحميد الثاني والتي تغيب عن أعين الكثيرين، تستقر في هذا المفهوم؛ مفهوم الفتح الجديد للإمبراطورية العثمانية.

والأبحاث الجديدة حول المجتمع العثماني والثقافة العثمانية في رأيه، تبيّن أن عهد عبد الحميد لم يكن عصراً من عصور الظلام كما يزعمون، بل على العكس تماماً، كانت تسوده حياة ممتعة مريحة حسب تعبيره، كما في مدن الموانئ الكبيرة المنتشرة على السواحل الشرقية للبحر الأبيض

المتوسط، وبعض المدن الأخرى. وقناعته هذه تتشكل من محور اللوحة التي خط خطوطها عبد الحميد من خلال تأهيله الموروث العثماني للعصر الحديث، وتحلّيه ببعض الصفات التي تقتضيها صورة رجل الدولة المعاصر.

ومن المثير تجاوز النص التركي الجملة الأخيرة من النص الفرنسي لجورجيون، وهي تقدم نموذجاً مهماً لعصرنة عبد الحميد. فقصر يلدز الذي شُيِّد بناؤه في عصره يحمل في أجنحته النمط المعماري المقتبس من قصر طوب قابي، في الوقت الذي تنتشر في بعض أجنحته الزخارف المقتبسة من المتاحف العالمية. فهذه الجملة تفيد أن قصر يلدز يشكل تركيباً من المنطق المحلي الموروث وفنون الزخرفة الأوروبية [35] .

وهكذا نرى أنه كلما انزاحت الستائر التي تحجب عنا عبد الحميد؛ تبين بوضوح أكثر أنه كان صاحب شخصيةٍ قياديةٍ وإداريةٍ تختلف كثيراً عما نراه فيها الآن. ويمكننا حينئذٍ أن نرى بجلاءٍ أنه كان "مجدّداً" بمقدار كونه "مقلّداً". فبينما كان يعيد إحياء المؤسسة العثمانية التقليدية التي تعرضت لتآكلٍ بليغٍ، بدءاً من التنظيمات، فإنه كان يعمل بجرأةٍ على إعادة بنائها على أسس حديثةٍ معاصرةٍ، ويقوم بما تقتضيه من إجراءاتٍ. وستظهر بوضوح أيضاً أهمية هذا التحرك المزدوج للسلطان عبد الحميد (أي النجاح في الحكم الفردي، والتنوير؛ جنباً إلى جنبٍ)، وأهمية سعيه من أجل كسب الوقت الكافي لملء الفراغ بين اللغز العثماني ومتطلبات العصر الحديث، وحرصه على تأمين النواقص وسد الثغرات في ذلك. وإنني على أملٍ أن الوقت لن يطول قبل أن ينال عبد الحميد الثاني مكانته اللائقة في صفحات التاريخ باعتباره الإداري الناجح في تطبيق تنظيماته في ساحتي التعليم والثقافة، ومواجهة (الاحتلال الثقافي)؛ على الرغم من كل الادعاءات والضجيج المثار حولها.

منعطف عبد الحميد

إنه حاكم يذكي الأزمات حدةً، وينضجها، بل ربما يثيرها، ونطالع في كل خطٍّ من تجاعيد وجهه أثراً من الأعوام المثقلة المضطربة الثلاثة والثلاثين. فقد كان عليه:

- حماية حدود الإمبراطورية التي تكاد أن تسقط في أيدي الروس مقابل تعويضات كبيرة ثقيلة.
- وضع استراتيجية بعيدة المدى، تسعى لتأمين التماسك والانسجام بين مواطني الإمبراطورية.
- تأمين الوقت الذي يتطلبه إعداد الكفاءات والكوادر الحديثة.

- تأمين الحدود القائمة في ذلك العصر وحمايتها.

والقيام بها جميعاً، جنباً إلى جنبٍ، في ظل مئات الحوادث الخطيرة التي تعاقبت عليه منذ أيامه الأولى في الحكم من المؤثرات، ومحاولات الانقلاب، والاغتيالات، والهزة الأرضية الكبيرة التي خرّبت إستنبول، والصخب الأرمني، وحرب تسيليا ضد اليونان... فكان كل ذلك يشكل منعطفاتٍ صعبةً طيلة ثلاثة وثلاثين عاماً من سنوات حكم السلطان عبد الحميد.

وفي هذا الإطار، كانت حملات النهضة في التربية والثقافة والتعليم جزءاً من استراتيجية السلطان عبد الحميد المجدّد [36] الفعّال كما كان يصفه لويس. فهل انبثقت كما يزعم من سعيد باشا الصغير؟ أم نشأت من عبقرية عبد الحميد وعنايته الخاصة بالنهضة؟!... وبعبارة أدق: من مشروع العصرنة الذي كان يحمله؟!... ربما كانت لائحة سعيد باشا الصغيرة ذات أهمية في مشروع النهضة، ولكن ليس عدلاً أن تكون الخبرة والمعرفة اللتان يمتلكهما عبد الحميد معلّقتين بها وتابعتين لها. وهذه نقطة تدعو للوقوف عندها والاعتبار. فلويس هذا لا يستطيع تجنّب الانحياز الكامل والتحامل على عبد الحميد حتى في أكثر مواضع حياته إشراقاً وعدالةً. فهو يتحدث دوماً عن سير الأحداث نحو الأسوأ في عصره الرجعي، وإذا ما وجدت بعض محاولات التقدم والنهوض، فإنه يبحث جاهداً عن آخرين يعزو إليهم عواملها وأسبابها [37] .

يرى كمال قرباط، وهو واحد من علمائنا في الاجتماع، في أحد أبحاثه الأخيرة عن حياة عبد الحميد الأدبية في أميركا؛ أن السلطان عبد الحميد واحد من الحكام القلائل في التاريخ العالمي ممن لعبوا دوراً هاماً وحساساً في تحديد مصائر مجتمعاتهم، ثم نالوا منهم الإساءة والتقزيم في الداخل والخارج باستثناء العالم العربي.

فبينما أطلق عليه الأوروبيون- الذين يعتبرون أنفسهم مسؤولين عن عصرنة العالم الإسلامي- اسم السلطان الأحمر في إطار الدعاية الأرمنية، والمتآمر على المدنية الغربية، يقف في وجههم، ويقوّض مناهجهم وأعمالهم في سبيلها، ويعيد الوحدة الإسلامية إلى دورة الحياة؛ فإن عبد الحميد تعرض للاتهامات نفسها من أنصار جون تورك؛ تركيا الفتاة.

وهبّت عليه العواصف في عصر الجمهورية ولم تهدأ حتى عام 1950، حين ضعفت الرقابة على الطباعة والنشر، فبدأت تتسلل إلى الوجود بعض الأعمال التي تنتصر لعبد الحميد.

ويأتي جواب نهال أتسيز عام 1942 لبيامي صفا الذي كان يحمّل

دائماً عبد الحميد مسؤولية وفاة والده إسماعيل صفا في منفاه في سيواس؛ كمرحلةٍ مهمةٍ في الانتصاف لعبد الحميد [38] .

كما تحتل مذكرات القصر التي كتبها سميح ممتاز في النصف الثاني من أربعينيات القرن العشرين مكانها بين المنشورات الإيجابية المتميزة الأولى والصادرة في الداخل عن عبد الحميد [39] .

الوجه العصري لعبد الحميد

يحمل عبد الحميد- في نظر القرباط- شخصيةً مدهشةً قادرةً على الجمع المتعدد لأطراف المتناقضات. ففي الوقت الذي نراه خليفةً؛ يدعو إلى مسرحه في القصر فرق التمثيل الأوروبية، وكان المرابي بانكر ظريفي، وكبير الأطباء مافروين، واليهودي المجري ويمبري... من أصدقائه المقربين. ونرى أيضاً في المشهد نفسه، أنه خليفة لم يتردد في تعيين بعض الموظفين من غير المسلمين في بعض المواقع المهمة، بشرط الثقة والصدق: ويمبري مثلاً كان مديراً لعلاقات الخليفة مع الصحافة الأوروبية، ومديراً لعلاقاته مع الشعب [40] . وكان مع كل تقدمٍ ماديٍّ، ديني ودنيوي في آنٍ واحدٍ. وكان الخليفة الذي يدافع عن المسلمين في العالم باعتبار أن الخلافة حرزهم وملاذهم؛ في الوقت الذي ينجح في تقويم رجال الدين في سلطته. يفضّل الموسيقى الأوروبية- كما سنرى- ويحب المسرح، وتزور الوسائلُ المدنيةُ الحديثةُ، كالغاز، والكهرباء، والسكك الحديدية، والأوتومبيلات... ترابَ الإمبراطورية في عهده.

وانتشار مهنة التصوير الفوتوغرافي في تركيا مدين له. وألبومات الصور الفوتوغرافية العملاقة البالغ عددها واحداً وخمسين ألبوماً، والتي التقطت بأمره عام 1893 والبالغة 30000 صورةٍ، ما زالت مجموعةً في مكتبة جامعة إستنبول حتى الآن. وقد أرسلت نسخ منها إلى أميركا وإنكلترا بأمر منه. ولما كان الإحصاء من بين الموضوعات التي تستولي على اهتمام عبد الحميد، فقد تم تعيين صامويل س. كوكس الأميركي الذي أنجز أول إحصاء سكاني في أميركا سفيراً في إستنبول بطلب منه، وصمم له الاستعلامات اللازمة. والتواقيع التي تحملها دار الفنون ومتحف الآثار ومكتبتنا الحديثة تعود إليه.

ومجموعة المختارات الشخصية لعبد الحميد في قصر يلدز- على الرغم من النهب الذي تعرض له عام 1908 - واحدة من أهم المكتبات القيمة في تركيا، فيها من الكتب الغربية في التاريخ والفلسفة والأدب بمقدار ما فيها من الكتب التركية والعربية والفارسية النادرة ما بين تسعين ألف إلى مئة ألف كتاب. فقد استطاع أمين المكتبة- حافظ الكتب- صبري بيك،

وكان عاشقاً للكتب، أن يردّ القادمين للنهب على أعقابهم بوقوفه في وجوههم وهو يقول: "لن تستطيعوا الدخول إلا على جسدي". (وقد استهدف جماعة 27 أيار المكتبة وحاولوا توزيعها إلى عدة مكتبات، إلا أن هذه المحاولة التي تفصلها عن أختها خمسون عاماً فشلت أيضاً، ولكن بمقاومة نور الدين بن صبري هذه المرة. ويضيف الأستاذ قرباط في لحنٍ استهزائيٍّ هنا: "إن دوغماتية الجمهورية التي تختبئ وراء شعار العلم والتقدم، تدفعنا للبحث عن محافظة عبد الحميد وإسلاميته " [41] .

ويضيف القرباط إلى صورة عبد الحميد العصرية ملاحظةً أخرى مهمة، فقد أصدر عبد الحميد أوامره للحكومة بالاشتراك في المعرض العالمي الذي أقيم في شيكاغو عام 1893 تلبيةً للدعوة الموجهة إليه، ولكن بأيّ شروطٍ؟!...

قبل عبد الحميد الدعوة على أن يبنى في المعرض نموذج لمسجدٍ إلى جانب سوقٍ مغطّاة [42] تباع فيها المنتجات العثمانية، رافضاً وضع التماثيل على طريقة المجسّمات التي تعرض عليها الأزياء في محلات الألبسة، على أن يظهر هذا النموذج المصلين في المسجد، والدراويش في الحلقة المولوية. فنرى في هذه الشروط المقاومة الواعية لنظرة الاستشراق المحتقرة والمزيفة للعثمانية والعثمانيين، ويظهر فيها قرفه من الصورة التي يرانا عليها المستشرقون، كما في مشاركة سرتاب أرن في مسابقة الغناء في التلفزيون التركي TRT في بثه الأوروبي؛ إذ يفرغ المشاهد المولوية من معانيها، ويشرذم صورتها إلى حركات راقصٍ وراقصة، ويحصد النقط على أساسها.

فإذا كان المسجد يبرز الهوية العثمانية؛ فإن العثمانيين ليسوا كائناتٍ للعرض تعيش خارج الحياة بل هم فاعلون يعملون وينتجون بهمّةٍ ونشاطٍ دائبين. والرفض المسؤول للعرض المولوي عام 1893 من قبل السلطان عبد الحميد، وإسلامه التقليدي، يقفان عام 2004 في شموخ أمام عدم مبالاة المحافظين الديمقراطيين الجدد عندما أرسلوا الفريق المولوي لإثارة المتعة في أوروبا [43] .

نقطة أخرى تبدو فيها صورة عبد الحميد في تناقضٍ ظاهريٍّ: فبينما يبدو عبد الحميد مصمماً على تطبيق التنظيمات والإصلاحات، يبدي وجهاً آخر بالعمل على إعادة بنائها من جديد. فحركة التنظيمات انحدرت بشكل سريعٍ، ومالت نحو الانفصال عن الأمة منذ عام 1826 عندما أفرزت نخبة البيروقراطيين العسكر، وبدأت إصلاحاتهم تفقد مشروعيتها. ومن هذه النقطة بالذات ينشأ السد الذي يعيق طريق عبد الحميد.

ففي الوقت الذي أبدى فيه عبد الحميد التزامه الصارم بالتنظيمات في

ساحات التعليم والقضاء والجيش وغيرها، استطاع أن يكسر هيمنة زمرة البيروقراطيين العسكر في نهاية عام 1881 ويتجه إلى ترميم الحوار المتهالك مع الأمة، حيث استطاع أن يعيد استنبات المشروعية من الرموز والصور الدينية، وأن يطبق إيديولوجيةً جديدةً تقوم على الإيديولوجية العثمانية. وإذا كان لهذه الحركة منظروها من قادة الفكر من أمثال خير الدين باشا التونسي، فإنها تشكلت بشخصية عبد الحميد وعصره. غير أن حرب القرم والسنوات الأليمة التي تلتها كانت كافية لقهر سيرة عبد الحميد هذه، وتحطيم الدولة العثمانية.

الصبيّ الذي لم يقبل يد الإنكليز

كان ذلك في سنوات حرب القرم، وكان في الحادية عشرة من عمره... أمير (شاهزادة) ناشئ يراقب من بعيدٍ الصخب الذي يثيره ما يزيد على عشرة آلاف جنديٍّ إنكليزي في أسكدار، والسلوك المنافي للأخلاق العامة التي يبديها الفرنسيون المخيمون في بويورك دره في بي أوغلو، والضباط الإنكليز والفرنسيون المستجمون في الملاهي المنتشرة في عاصمة السلطان... وأحداث شنيعة كثيرة اضطر السلطان عبد المجيد إلى غضِّ الطرف عنها.

فبينما كان السفير الإنكليزي اللورد ستراتفورد كارنينغ ذات يوم، يزور السلطان عبد المجيد والد عبد الحميد، وأراد السلطان التعريف به باعتباره الأمير المحترم، طلب منه تقبيل يد السفير، غير أن عبد الحميد لم يستجب لإلحاح والده، ولم يقبّل يد هذا الدبلوماسي الذئب سفير الدولة العظمى في ذلك الوقت. وهذه الحادثة مهمة جداً باعتبارها تكشف عدم ثقته بالإنكليز، وتشكل الإشارة الأولى لسياسته عندما يتولى الحكم.

ثم تأتي زيارته إلى مصر عام 1864 بصحبة السلطان عبد العزيز [44] ثم إلى أوروبا عام 1867، فزار معرض باريس، ولندن، وبروكسل، وفيينا التي حاصرها أجداده قبل قرنين من الزمان، وبودابست التي تضم كلاً من بودين وبشتة وكانتا من البلدات العثمانية ذات يوم... ومن الواضح أنه كان يجري مقارناته بين الدول المختلفة طوال الطريق. وتحققت له فرصة التفكير الأفضل في البحث عن أسباب التفوق التقني والتنظيمي في أوروبا مقابل التخلف الذي يسود الدولة العثمانية [45] .

وتأتي اللوائح الإصلاحية المقدمة إليه من خير الدين التونسي، وهنري لايارد، ومدير مدرسة غلطة سراي علي سوافي، وسعيد باشا الصغير، وغيرهم من مثقفي عصره؛ لتتكاثف وتتشكل من جديد في عقله، ثم لتخرج على شكل "سياسة التوازن" و"استراتيجية كسب الوقت" في السياسة الخارجية،

وعلى شكل استثماراتٍ في البنى التحتية ورسمٍ لخطوط سلسلة الأحداث المتعاقبة. إن الخلفية الشخصية والسياسية الغنية التي تسير دائماً على حدِّ السيف، تظهر عبد الحميد وهو يملك خيوطاً مدهشةً وانفتاحاً ثقافياً عجيباً.

سأتوقف عند ثلاثة أحداث تدور حول الانفتاح الفكري والثقافي والعقلي عند عبد الحميد، آملاً أن أتمكن من التأكيد على أهمية عبد الحميد في تاريخنا الثقافي كسلطانٍ مثقفٍ كوّن نفسه بنفسه وترك بصماته في تفرعات حياتنا اليومية كالاحتفال بسنة الختان في أيامنا [46] .

الخليفة الذي يرسل الدعم المالي لباستور

وضع باستور لقاح الكلب موضع التطبيق للمرة الأولى عام 1885. فتحرك السلطان عبد الحميد لافتتاح مشفى دار الكلب فور علمه بأول إصابة في إستنبول، وتم ذلك خلال عامين. بينما دخل تدريسه في كلية الطب بجهود الأميرالاي الدكتور حسين رمزي بيك (1839-1896) والذي يعرف بلقب أولياء، وهو أول عالم أحياءٍ مجهريٍّ. وفي عام 1886 - أي بعد عام من اكتشاف اللقاح- تم إرسال زويروس باشا والطبيب البيطري حسين خلوقي إلى باريس للعمل في معهد باريس لمدة عام كاملٍ، وبعد عودتهما انضمّا إلى العمل في مشفى دار الكلب . وسرعان ما بدأت ثمرات العمل في باريس بالظهور؛ إذ ظهر الكتاب الأول في لقاح الكلب لحسين رمزي بيك (1888-1889)، ليقدم المعلومات والنتائج العلمية الأولى عن اللقاح في بلدنا، ويلقي المحاضرات عن مشاهداته وأبحاثه في باريس.

يتحدث حسين رمزي بيك فيقول: "إن لقاءه الأول مع باستور كان في أثناء تقليده الميدالية والنيشان المجيدي كرجل علم مشهور، وتقديم عشرة آلاف فرنك هديةً من السلطان عبد الحميد لمعهد باستور. واستقبل باستور بدوره الضيوف العثمانيين استقبالاً حسناً". وقد صدر كتابه هذا، كما يقول سهيل أنور، قبل كتاب رونيه ڤاليري- رادوت؛ صهر باستور، ليحتل بذلك مقام البحث الأول عن باستور وهو على قيد الحياة، كما يقدم كتابه المعلومات القيمة عن الوسط العلمي لعصره وآراء باستور والآراء المخالفة لها، والكيفيات المختلفة التي يجري بها تطبيق اللقاح [47] .

وفي المعلومات التي يقدمها سعيد نعوم دخاني- من كاثوليك سوريا، ومن الوسط المحيط بالقصر- نجد الحديث عن الرسائل المتبادلة بين عبد الحميد وباستور، وعبارة عبد الحميد؛ عزيزي السيد باستور. وفي المصدر نفسه؛ يطلق الأطباء الأميركيون اسم عبد الحميد على أحد السيرومات اعترافاً منهم بفضل جنابه العالي . حتى إن أحد أبطال فيلم Untamed ؛

الجامع من إنتاج شركة بارمونيت بكتشرز والذي عرض في إستنبول عام 1941 ورد على لسانه: "سيروم السلطان عبد الحميد" [48] .

ثم تأتي الوثائق التي ظهرت بين الأوراق والكتب التي اشتراها معهد تاريخ الطب من ورثة زويروس باشا- أحد الثلاثة الذين أوفدهم السلطان عبد الحميد إلى معهد باستور- مفاجأةً أخرى بين المفاجآت الثقافية السارة للمرحوم الأستاذ سهيل أنور [49] ، وفيها على وجه الخصوص، رسالتان مهمتان بخط باستور إلى زويروس باشا، إضافة إلى بطاقات زيارة معهد باستور. وهاتان الرسالتان العلميتان لهما دلالتهما الواضحة على التتبع الحثيث للمستجدات العالمية في مجال الطب من قبل الطبابة التركية في عهد عبد الحميد.

ولا بد لنا هنا قبل ختام هذا البحث من أن نقول: إن اهتمام السلطان عبد الحميد الطبّي لم يتوقف عند باستور، فقد كان الأطباء العثمانيون الذين أرسلهم السلطان عبد الحميد إلى برلين أول الوفود التي طرقت أبواب الدكتور روبرت كوخ مكتشف عصيّات السّل ومكتشف علاجه تورباكولين. وكان من ضمن هذا الوفد حسين خلوقي بيك؛ من أساتذة المدرسة الطبية العسكرية، توفي مبكراً في ريعان شبابه. يذكر في كتابه مذكرات برلين عام 1889 محادثاته مع كوخ، وآراء كوخ عن العلاقة بين الجزام والسّل، ومع الأطباء الذين التقى بهم، والمراكز الطبية المختلفة التي زارها في برلين.

أبدى كوخ اهتماماً كبيراً بالوفد التركي الذي يزوره، فاستقبل الوافدين إليه بالمصافحة الحارة عند باب الغرفة الواسعة والتي لم يكن فيها سوى أربع طاولاتٍ وأربعة مقاعد حمل بنفسه أحدها وقدمه لأحد الوافدين. وبعد شكره السلطان عبد الحميد بسبب منحه وسام الرتبة الأولى العثماني؛ طلب من الوفد تطبيق العلاج على مرضى الجزام في إستنبول، وإخباره بالنتائج. ووعده حسين خلوقي بأنه سيخبره بنتائج تطبيق العلاج على مرضى الجزام في مستوصف الأمراض الجلدية والزهري [50] .

لقد كان واضحاً من شهادة برنارد لويس أن عصر عبد الحميد كان الأغزر إنتاجاً في عالم الصحافة، كما كان الأغزر في صناعة الكتب ونشرها. فمن بين أربعة آلاف كتاب صدرت خلال 14 عاماً (1876-1890) كان هناك فقط مئتا كتاب حول الدين، وألف كتابٍ حول العلوم والفنون، وأكثر من ذلك بقليل حول الآداب، وسائر الكتب: إما حول القوانين والمراسيم والإدارة، أو حول القواميس وتعليم اللغات والقراءة. فالكتب الأدبية تحتل

المرتبة الأولى في عهده، تليها الكتب العلمية المعممة [51] . وهذا التوجه نحو المثقف التركي في ساحتي الآداب والعلوم، وإن تعرض للعراقيل السياسية، كان بمثابة المبشرات الدالة على تطور البناء الفكري عنده حتى عهد المشروطية الثانية، بل حتى السنوات الأولى للجمهورية.

لم تقتصر علاقة عبد الحميد بأدباء عصره على نامق كمال فقط، بل كان إلى جانبه أيضاً الأدباء الذين بلغوا القمة في عصره، وقبلوا العمل معه من أمثال مراد ميزانجي وأحمد مدحت أفندي والمعلم ناجي. وقد عين السلطان عبد الحميد المعلم ناجي عام 1892 قبل وفاته بعامين كاتباً للوقائع التاريخية- anüvis ' Vak - وكلفه بكتابة تاريخ السلاطين القديم. وما زالت الملاحظات غير المكتملة التي جمعها موجودة في كلية اللغة والتاريخ والجغرافيا في أنقرة، ومكتبة جامعة إستنبول [52] .

السلطان التركي المعجب بعدو الأتراك هوغو

اشتهر فيكتور هوغو- الذي عرف بعدائه للعثمانيين والأتراك في أشعاره وكتاباته وعلى الأخص في Orientales Les ؛ الشرقيون- بعد طباعة الترجمة التركية لقصة البؤساء بعنوان حكاية المغدورين عام 1862 . حتى إنه في عام وفاته 1885 تصدرت الصحافة التركية بمئات الأخبار والبرقيات والكتابات التي دارت حوله. وظهرت للمرة الأولى في الأدبيات التركية مرثيتان في وفاة كاتب أجنبي، وسيذكر هوغو في تاريخنا الأدبي ككاتب لقي من الحماسة والاهتمام ما لم يلقه أحد قبله ولا بعده.

تأتي برقية السلطان عبد الحميد على رأس أهم برقيات التعزية التي وصلت إلى الصحافة. فقد ظهرت برقيته الشخصية إلى عائلة الشاعر هوغو في جريدة الطريق بعد وفاته بعشرة أيام (3 حزيران 1885).

يخطئ من يظن أن اهتمام السلطان عبد الحميد بهوغو كان ينحصر في برقية التعزية الرسمية. ففي بيبليوغرافيا زينب كرمان وتحت عنوان فيكتور هوغو في الأدبيات التركية ، تتحدث الكاتبة عن روايتين مترجمتين من روايات هوغو في مكتبته المشهورة التي سبق ذكرها، وهما:

- رواية Bug-Jargal ترجمها رضا بيك- من مترجمي السلطان في القصر- عام 1890/1891 . مكتبة الجامعة تحت رقم (7490) والواقعة في 110 صفحات.

- والرواية الأخرى الرجل الضاحك تحمل اسم آدم كولان؛ من غير تاريخ. وهذه الرواية المخطوطة التي لا يظهر عليها اسم مترجمها ما زالت موجودة في مكتبة الجامعة تحت رقم (7456) والواقعة في 640 صفحة

[53] . وهذه الرواية لم تطبع ترجمتها حتى الآن.

حساسية السلطان عبد الحميد في موضوع اللغة التركية

تحتل الأوامر والمراسيم التي تنقل وجهات نظر السلاطين الخاصة لحكوماتهم مرتبةً بالغة الأهمية باعتبارها وثائق تبين تصرفاتهم وأفكارهم الشخصية. من بين هذه المراسيم ثلاث وثائق تبين بجلاء حساسية السلطان عبد الحميد في موضوع تعليم اللغة التركية:

ففي الوثيقة المؤرخة في 25 تموز عام 1894، حديث عن فرض الدول الأوروبية تعليم لغاتها في بلادها وفي البلدان التي تحتلها، وعن نشاطها في سبيل نشرها في البلاد العثمانية. وعبد الحميد، وهو يبحث عن الحلول المانعة لهذه الفعاليات الأوروبية بين رعاياه من غير المسلمين، يشدد في وثيقته هذه، على نظارة المعارف أن تمارس الجدية في تطبيق تعليم اللغة التركية في المدارس النصرانية، فترسل مراقبين في أثناء الامتحانات؛ ليقفوا على مستوى الطلاب في اللغة التركية، ويرفعوا تقاريرهم، وفيها أيضاً أمر بإغلاق المدارس التي لا تمارس تعليمها [54] .

وفي إرادته الصادرة في 15 شباط 1895 تنبيه إلى الأسماء التي تحملها الفنادق. وفي ما يلي نموذج لنص مبسط لمضمون هذه الإرادة:

افتُتِح في العام الماضي فندق في ترابيا وآخر في هذا العام في بي أوغلو. يحمل الأول اسم سمر بالاس والثاني بيرا بالاس. ولأن بالاس تعني السراي؛ القصر، ولأن توصيف أمثال هذه الأماكن بأمثال هذه الأسماء سيكون سبباً لمحاذير في المستقبل، فإن أمر سيدنا السلطان وإرادته يوجبان إجراء ما يلزمه تغيير هذين الاسمين .

وفي الإرادة الخاصة [55] الصادرة في 30 حزيران عام 1896 أمر باستبدال اسم الشركة المكتوب بالفرنسية Şirketi Rihtim Osmanlı على العلم المرفوع على الرصيف المخصص لها لتفريغ البضائع في ميناء إستنبول وإعادة كتابتها بالتركية [56] .

وكذلك نجد اهتمام السلطان عبد الحميد باللغة التركية في تعميم موجه من قبله إلى إعدادية مناستر في 19 أيار 1894 مخاطباً ناظر المعارف زهدي باشا، طالباً منه "الاهتمام الجيد بتعليم التركية الصافية والنقية للطلاب الأتراك"، شارحاً بشكل مطول فوائد استعمال التركية الواضحة، آمراً إياه باستخدام الكلمات التركية المستعملة بدلاً من الكلمات الفرنسية والعربية غير المستعملة عند عامة الناس [57] .

ولم يكن صدفة ميل النصوص في المراسلات الرسمية التي تنطق بها

الأوراق المغرّاة في عهد السلطان عبد الحميد نحو البساطة، بل كان أثراً من آثار حرصه على التتريك الواعي. ورسالته إلى الشاه مظفر الدين عام 1900 والتي يرجوه فيها إلغاء قرار منع اللغة التركية في مدارس أذربيجان من أكبر الدلائل على أن حماسته لم تبقَ منحصرةً بالمدارس في حدود الدولة العثمانية، بل كانت تمتد إلى العالمين التركي والإسلامي باعتبارهما ساحة لنفوذه الثقافي [58] .

وأخيراً، يمكن أن نقول: إن الآداب والعلوم واللغات، والحرص الشديد في موضوع اللغة التركية، والعلاقات الواسعة التي تمتد من باستور وكوخ إلى فيكتور هوغو، والحساسية الخاصة في الحفاظ على اللغة التركية وتبسيطها؛ كانت في تنظيم (تنظيمات) عبد الحميد، ومشروعه الجديد في النهضة والإصلاح.

ولنترك ختام هذا القسم للباحث الفرنسي فرنسوا جورجيون:

"... إن تبرئة عبد الحميد أمام التاريخ تشكل حدثاً جديداً... والبحث الدقيق والعميق في الأرشيف الذي يعود إلى قصر يلدز، يظهر للعيان حجم الجهود التي بذلها عبد الحميد لتسليك عمل المؤسسات والتعليم والقضاء وإصلاحها، وبفضل هذه الأبحاث في أرشيف قصر يلدز نجد أيضاً أن حركة الإصلاح (التنظيمات) لم تكن قد بلغت حالة الشلل عام 1876، بل على العكس تماماً، إن لم تكتسب سرعة وفعالية من حين إلى آخر، ولذلك ينبغي أن يقيّم عبد الحميد بتنظيماته على أنه استمرار لحركة التنظيمات ومجدد لها، وقد أحدث من المستجدات ما يمحو بها الصورة السلبية للدولة العثمانية، أو يضفي بها المرونة على سياسة الدولة الريفية... وإذا ما أردنا تقييمه من خلال الحقائق التاريخية المتعلقة بشخصيته وآثاره ونظامه والتي خرجت إلى النور حتى الآن، فإننا نستطيع أن نرى فيه صورة رجل عبقري يحمل من الخصائص ما تتطلبها العصرنة، ورجل يعمل على إعادة تشكيل الموروث العثماني ليكون صالحاً لعصره وزمانه".

عبد الحميد... رجل أمةٍ

أختار القتل إن كان البديل هو اقتتال الأمة ... [59] .
السلطان عبد الحميد الثاني

كان النصر على اليونان في حرب تسيليا عام 1897 واحداً من الانتصارات الكبيرة الأخيرة في التاريخ العثماني، فقد أعلن الجيش العثماني ربع حالة الحرب ربع سفر برلك عندما حاولت اليونان احتلال الأراضي المحاذية على طول الحدود التي تم تخطيطها مؤخراً في غريت [60] ، فكانت حركةً جريئةً للعثمانيين لم تتوقعها الأوساط الدولية، وألزمت الحيرة صمت سفراء الدول العظمى في ذلك الوقت، وحدث ما لم يكن في الحسبان، واستولت القوات العثمانية بقيادة الغازي أدهم باشا على الأراضي حتى حدود أثينا.

سرعان ما تخطت الدول العظمى حيرتها المفاجئة، وفرضت، كما هو المتوقع، وقف إطلاق النار على الطرفين، وتوصلت في المحادثات التي تلته إلى اتفاقٍ يتم فيه انسحاب الجيش العثماني من الأراضي اليونانية مقابل تعويضاتٍ تقدمها اليونان. ولأننا لم نملك هذا القدر من الجرأة في لوزان، قدمنا التنازلات إلى درجة إسقاط مطالبة اليونان بهذه التعويضات المؤكدة .

ولنلقِ نظرة على الأعمال التي قام بها السلطان عبد الحميد الثاني من إعلان حرب اليونان عام 1897:

كان الأمراء- من أبناء السلاطين، الشاهزادات- في هذه الحرب في الخطوط الأمامية، وكان قبول السلطان عبد الحميد الدخول في الحرب نتيجة لإصرار السرعسكر- ناظر الحربية- رضا باشا، وبقية القادة من الصف الأول بقيادة الجيش؛ لأن الحرب في نظره:

" ليست منحصرة في الحدود، بل ينبغي أن تكون الأمة كلها في حالة الحرب، فإن لم تكن كذلك، فإن النصر يكون صدفةً، والهزيمة مقدرة [61] ".

لقد اتخذ قرار الحرب، وكان عبد الحميد على قيادة الجيش باعتباره الخليفة والسلطان. وأريد هنا أن أنقل مقطعاً آخر يشد الانتباه من مذكرات الهانم فاطمة پسند:

" كانت سيدات القصر يجهزن الضمادات للعسكر، ويفصّلن الألبسة لهم، ويقمن بحياكتها، كما يجهزن أغطية النوم. لم يكن هناك توقف ولا نوم. فالنساء الحريم اللواتي نظن أنهن لا يعرفن سوى المتعة والسرور في القصر؛

كنّ يواصلن العمل ليل نهار في ورشةٍ دائمةٍ لتأمين لوازم العسكر من لباسٍ وأغطية نوم وغيرها... فهؤلاء النسوة ينسحبن إلى زاويةٍ ويأخذن قسطاً من الراحة، ثم يباشرن العمل مرة أخرى. الخزندار الثانية القلفة زلفت تراقب الخياطات، وتقوم بتوزيع الأقمشة في حمل الشاحنات لتفصيلها وخياطتها وفق النماذج المطلوبة. يقوم السلطان بزيارة المشفى كل يوم: يتفقد أحوال الجرحى فرداً فرداً، يطلع على حاجاتهم، ويصدر أوامره لتأمينها. كان الجميع، من قروييه إلى سلطانه، في حالة الحرب؛ ولذلك وأمام هذه القوة انهزم اليونانيون، وردّت أصابع الدنيا تعض عليها الأفواه عجباً ودهشةً. والسلطان الذي يختلط ليله بنهاره يهتم بالجميع فرداً فرداً، وبكل شيء، يهتم بالتفاصيل الدقيقة التي تصل إلى مراقبة درجة حرارة المرضى، ويتفقد عائلات الشهداء، ويضم العائلات التي فقدت معيلها إلى القصر، وخُصِّصت الرواتب للغزاة المجاهدين. كان الجميع يقدمون أبدانهم وأرواحهم بإخلاصٍ، خدمة العاشق لهذا القطب. وبينما كان الجنود يهتفون بطول العمر للسلطان عندما يسألهم عن حاجاتهم، كان السلطان يبدي حساسيته بغضب قائلاً: "ينبغي أن يكون لهؤلاء حاجيات غير صحّتي، كيف لي أن أعرف هذه الحاجيات؟!". ختاماً أقول: "هذا السلطان يحزن ويبكي من أجل جندي، ليس لبتر ساقه في الحرب فقط، بل لكسر ساعته أيضاً، فيأمر من ليلته بإهداء ساعة لكل جندي في المشفى. غير أن نفسه لم تعرف السكينة والهدوء بالهدايا التي قدمها، وبعد جهدٍ وتفكيرٍ اتخذ قراراً أن يصنع عكازاً بيديه، ويقدمه لهذا البطل الذي بترت ساقه. لقد كانت لديه الملكة والقابلية في مهنة النجارة، غير أنه لم يكن قد صنع عكازاً حتى ذلك اليوم، فكان العكاز الأول والأخير. وبقي هذا التصرف الجميل حكاية تتداولها بيوتات إستنبول " **[62]** .

فالسلطان عبد الحميد كما يبدو كان سلطاناً عازماً على التكامل مع أمته، واثقاً بها، قادراً على استنفار كل من حوله لمساعدتها. وأمته عرفت ذلك فيه، ورأى هو في أمته ما تعرفها. غير أنه كان يعبر دائماً عن حسرته وحزنه على المثقفين الذين لم يتفهموه. لقد كان في وضع يصعب عليهم أن يفهموه، وربما يتحمل هو بعض الخطأ في ذلك، فقد أغلق على نفسه القصر، باحثاً عن الصيغة التي يكون فيها حضوره من دون أن يُرى. فلم تكن لشخصه أهمية في نظره، فأرسل حضوره كالضباب في شرايين المجتمع، وكان هذا الضباب، شئنا أم أبينا، معيقاً لإدراك صورته السليمة. وباختصار، إن السلطان عبد الحميد ما زال في هيبته واقفاً في منعطفٍ

كبيرٍ، ومفترق طرقٍ في تاريخنا السياسي والثقافي؛ ينتظر فهمه وإدراكه.

فما الذي يميزه عن بقية حكام عصره؟ وما هي المؤثرات التي تجعله متفرداً وحياً إلى يومنا هذا في تاريخنا الحديث؟ أم إنه يملك خاصية قنبلةٍ موقوتةٍ بما يحمله من الأفكار والمعارف التي لم نتمكن من هضمها وامتثالها؟

عندما يذكر بيت الحريم يخطر في بالنا وللأسف، المكان الذي تسكنه طبقة من النساء السلبيات وغير الفاعلات، وفاقدات الإرادة المأسورات، والمحرومات من أيّ تحصيلٍ علميٍّ، في ظل تأثير التصور الاستشراقي، إنه عالم مقطوع عن الدنيا. غير أن الحقيقة أن كل واحدةٍ من هؤلاء النسوة لها فهمها الخاص للعالم، ونظرتها الخاصة للسلطان والدولة، وربما لها أيضاً تطلعاتها إلى السلطة والحكم، ونحمد الله أن وجدت بين أيدينا مذكرات ابنتيه شادية، وعائشة عثمان أوغلي، ومذكرات زوجته السيدة فاطمة پسند؛ تفصح لنا بعض الشيء عن الوجه الداخلي لبيت الحريم.

وجانب آخر في غاية الأهمية تفصح عنه مذكرات السيدة فاطمة پسند، أنها تعلّمنا رؤية السلطان وحريمه للدولة والأمة؛ ولذلك، فإننا نستطيع أن نرى في آلاف الوثائق سعي السلطان عبد الحميد، وعمله الدؤوب في الملمات التي تحيط بالناس؛ لإرسال رسائل- أنا عندكم- إلى أمّته وشعبه، يخرج أمام هذه الأمة كقائدٍ متطوّعٍ، وينفق من جيبه الخاص، محاولاً تضميد جروحها؛ كما حصل في الدمار الناتج عن الزلزال الكبير الذي ضرب إستنبول عام 1894.

فبعد الزلزال تشكلت لجنة مساعداتٍ برئاسة عبد الحميد الثاني الفخرية، افتتحها السلطان بتبرعه بمبلغ 1000 ليرةٍ، وأتبعها بمبلغ 500 ليرةٍ؛ من أجل أرواح الأمراء والسلاطين السابقين، ليتبرع في ما بعد بمبلغ 5000 ليرةٍ، والمثير للاهتمام في هذا التبرع الأخير؛ اشتراطه صرف ألفي ليرةٍ منها "للطلاب في حقل التعليم".

تخيلوا رئيس الجمهورية الأسبق أحمد نجدت سيزار خلال زيارته مدينة أفيون عقب الزلزال الذي ضربها؛ لم يستطع أن يغادر سيارته التي يستقلها، ثم تخيلوا السلطان عبد الحميد الذي يجري من سريرٍ إلى سريرٍ يتفقد المصابين في المشفى... ترى أيهما ألصق بأمته؟!... أترك القرار لكم...

الوجه الإنساني للسلطان عبد الحميد الثاني

آهٍ يا سيدي! إنكم لا تعلمون ولا تعرفون، أنه لم يأتِ، ولن يأتي سلطان رحيم وعاقل كوالدي... ستفهمون ذلك ولكن ... **[63]** .
شاه زادة عبد الرحيم أفندي *1909*

لقد كان السلطان عبد الحميد بشخصيته صاحب طيف أوسع وأغنى مما نتوقعه. فعندما نراه يرسل الوفود لتبليغ الإسلام إلى أفغانستان والصين واليابان- وهل يمكن، في هذا المقام، أن ننسى فاجعة أرطغرل في اليابان؟! [64] - من جهةٍ، نجده في أخرى يمارس بمهارةٍ لعبته الدبلوماسية مع الروس، في حين يشكّل الوجه السياسي من شخصيته موضوعاً مستقلاً لساحةٍ واسعةٍ من الخبرة المتكاملة كما سيأتي.

ويشكل الوجه الإنساني من شخصيته جانباً مثيراً لمشاعري، فعبد الحميد، باعتباره الإنساني، يظهر لنا عكس ما يبدو عليه خارج القصر؛ فهو ذو شخصيةٍ لطيفةٍ، سهل ليّن الطّباع، حليم مسالم، إذا تكلم فالحكمة تجري على لسانه، ويؤثّر بحديثه في جليسه ولو كان عدواً له.

يتحدث الجاسوس يهودي الأصل ترغولوغ أرمينوس ويمبري الذي يزعم إنه استطاع أن يكتسب صداقة عبد الحميد، وتعرف إليه عن قرب، فيقول: " إن السلطان واحد من أكثر الأمراء الذين عرفتهم في الشرق تهذيباً ورحمةً ولطفاً وتقديراً لمنازل الناس. وبتواضعه المبالغ فيه، وبساطة سلوكه، وصوته الحنون، ونظراته الأليفة والحنونة؛ كان سلطاناً يعطي سفيراً يقابله انطباع أميرٍ مسكينٍ من الدرجة الثانية أكثر من انطباع سلطانٍ قويٍّ، وحاكمٍ لثلاثين مليوناً من البشر " **[65]** .

لقد كان عبد الحميد متواضعاً إلى الحد الذي تنحل به كل أنظمة التحفز عند من يقابله من مبغضيه. وحضور السلطان افتتاح مجلس المبعوثان عقب إعلان المشروطية الثانية، دفع إلى حدٍّ بعيدٍ أولئك القلّة المخالفين له إلى الاختناق بمشاعر الاحترام. وينبغي أن يكون هذا الاحترام الذي يوقظه في نفوس الناس هو الدافع الذي ساق رئيس مجلس المبعوثان أحمد رضا بيك، أحد قادة تركيا الفتاة في باريس، لتقبيل يده، في حين، انحنى مبعوث آخر إلى الأرض مقبلاً قدميه.

وعلى الرغم من ذكائه الحاد، واستيعابه، وفهمه السريع، وحضور بديهته؛ نرى أمامنا شخصيةً حذرةً كثيرة الاحتياط، يفكر طويلاً، وبعمقٍ،

محاولاً أن يدرك وجهة نظر مخاطبه؛ قبل أن يبدي له رأيه. ويطلب في الموضوعات الكثيرة تقارير وآراء رجال العلم والدولة في عصره، ويبني عليها ترجيحاته. وقد تحدث بذلك هو بنفسه في مذكراته، فقال:
" لم أمارس الاستبداد قط، ولم أطلب أن يكون رأيي مقبولاً، وطبيعي أن يدلي الجمهور بآرائهم لوكلائهم... ورأيي في هذا الأمر يدور حول هذا المحور... فكروا في الأمر وتدارسوه، فما قبلتموه نفذتموه... وإن كان فيه محظور؛ فطبيعي أن لكم الحق في أن ترفضوه، وأنا لم أفعل شيئاً سوى استعمال هذا الحق " [66] .

من يوميات السلطان

ألف سميح ممتاز- ابن رشيد ممتاز باشا، رئيس بلدية إستنبول الأسبق شهرمين، ورشيد ممتاز باشا يحمل اسم مربّيه مصطفى رشيد باشا- كتيباً بعنوان في الزمان الأول ، وقد نشأ سميح منذ طفولته في القصر باعتباره سليل عائلة باشا ، وباعتبار نشأته يعتبر واحداً من أسلم الشهود على الجانب الإنساني للسلطان عبد الحميد .
ننقل هنا بعض النماذج من الكتاب :
كان لباس عبد الحميد الجيد من أكبر مميزاته، يخرج للناس دوماً في هندام متناسقٍ نظيفٍ. ولا يرى مناسباً ظهوره في ألبسةٍ متجعّدةٍ، ولأنها تتجعد على ركبتيه عند جلوسه على أريكته وعند صلاته؛ كان يضطر إلى تغييرها مرتين أو ثلاث مراتٍ. وكان يلبس معطفه دوماً، ويغلق أزراره حتى العنق، ولم يخلعه، بحسب ضياء شاكر، حتى في فراش الموت، ولم يظهر بقميصه أمام أحدٍ [67] .
يدس ساعته في الجيب المخصص للمنديل برباط دقيقٍ جداً، بينما يمسك المنديل بيده اليسرى. ربطات عنقه تماثل في لونها جواربه، ويلبس القميص الأبيض. يفضّل الأقمشة المحلية، ويحرّض الوزراء والباشوات الذين يفاخرون بألبستهم الأوروبية على استخدام الصناعة المحلية فيخاطبهم قائلاً: "لا أستطيع أن أرتدي الألبسة الفاخرة مثلكم، لباسي خرقة خالصة" [68] .
يتجول حاسر الرأس في القصر، ويعتمر طاقيته في أثناء الصلاة .
حرمة الإسراف [69] من مبادئه، ويعود الفضل في هذا المبدأ الصارم، إلى تسليم الخزينة الغارقة المثقلة بالديون والتي استلمها من عبد العزيز إلى الاتحاديين وقد قضى قسماً كبيراً من ديونها [70] . يحاسب الآغوات المكلفين بمشترياته الخاصة واحداً واحداً، وبشكلٍ مفصّلٍ: بكم قرشٍ اشتريت هذا؟ وهذا؟ ألم تجد أرخص من هذا؟... ويتابع شخصياً مراقبة مشتريات المطبخ .

لا يلتقي في بيت الحريم إلا بزوجاته والخزندارات. يحب تراكض الجواري، والخزندارات، والسلطانات، وأولاده الأمراء، ولعبهم في حديقة القصر، وربما يندسّ بينهم ويشاركهم مرحهم، ويمازحهم .

إضافة إلى ذلك، فإن السلطان ما إن يبلغ مسمعه شخص مهم- رجل دولة، أو شاعر، أو كاتب، أو صاحب صنعة- يجتاز مضيق البوسفور، من قبل استخباراته التي لا تفوتها فائتة، إلا ويرسل من يدعوه إلى القصر. ومهما حاول المدعو أن يقلل من شأن نفسه؛ فإنه يرحب به، ويوليه الاهتمام، ويمنحه الهدايا والأوسمة، ولسان حاله يقول:

يكفي أنكم زرتم بلادنا، ومررتم بأرضنا، ويكفينا أن تتحدثوا بذلك لأولادكم، وتعرضوا ما رأيتم في أوساطكم، أنتم أصحاب القلم، يكفينا أن تتحدثوا بما ترونه . فكان يولي أهمية كبيرة للرسائل الملائمة عن العثمانيين، يرسلها من خلالهم إلى مجتمعاتهم باعتبارهم النخبة فيها.

لا يلتقي في بيت الحريم إلا بزوجاته والخزندارات من النساء، ويحب تراكض الجواري والخزندارات والسلطانات وأولاده الأمراء ولعبهم في حديقة القصر، وربما يندس بينهم ويشاركهم مرحهم ويمازحهم. وكان يهوى النظافة فيفرغ زجاجة الكولونيا من ماركة Atkison التي يستعملها دائماً خلال ساعات. وإن كان حقاً ما يقوله مسؤول بيت المؤونة حسين أفندي؛ فإن السلطان كان سليم الشهية، شرب في يومٍ اشتد فيه الحرّ إبريقين من الماء في صحةٍ وعافيةٍ.

ينقل لنا سميح ممتاز هذه الحادثة الطريفة:

استدعى عبد الحميد الباش وكيل- رئيس النواب- أحمد وفيق باشا، وأمره بالمبيت ليلته في القصر، فخضع للأمر الواقع، إلا أن النوم لم يجد طريقه إلى عينيه؛ لأن الفراش كان يغيب في الحرير، الشراشف ووجوه الوسائد من الحرير، واللحف من ضفائر الحرير. إذا تقلب في فراشه صدرت أصوات الخشخشة، وإذا حرك يده وصل إلى سمعه (فش)، فبقي ليلته يتقلب في فراشه حتى حلّ الصباح، فتوجه إلى بيته ليخلد إلى نومٍ عميقٍ.

بالكاد مضى أسبوع حتى كان وجهاً لوجهٍ مع أمرٍ جديدٍ للسلطان، غير أن أحمد وفيق باشا لم يجرؤ على تمضية ليلةٍ أخرى من الأرق، لكنه أمام أمر السلطان، فماذا عساه يفعل؟ تعلل بمرض زوجته واستأذن السلطان أن يصل إلى بيته ثم يعود، وضع فراشه في العربة، ولبس ثياب النوم وانتعل خفّه، ووصل باب القصر. طرق الباب بقيافته تلك، وطلب منهم أن

ينقلوا فراشه إلى غرفته، ونام ليلته تلك وكأنه في بيته. ربما لا نعرف إن كان عمداً ما فعله السلطان للباشا، غير أن السلطان بقي يتحدث بذلك لجلسائه طوال أسابيع.

وبهذه الطريقة فقط، ومن خلال عرض اللوحات المحايدة والحميمية والحارة؛ ربما يمكن للتاريخ أن يقترب من حقيقته بشكلٍ إنسانيٍّ. وربما تخيلتم مثلي الشكل النهائي لصورته من خلال ما نقلته لكم.

أيها المؤرخون، إياكم أن تجعلوا آثاركم ومؤلفاتكم خالية من هذه الحرارة وهذه الروح...

وهكذا، فالسلطان عبد الحميد الذي عرفناه إنساناً عابس الوجه، منغلقاً على عالمه الداخلي، لا يضحك؛ له جانب مرح أيضاً. وإذا كانت حياته في إدارة الدولة تقتضي منه الجدية الكاملة، فألا يحتاج إلى متنفّسٍ يفرغ فيه شحنته في حياته الخاصة؟!

الوجه الخفي لعبد الحميد الإنسان

نكون موفقين في تصوير ملامح السلطان إذا ذكرنا أنه بلغ من تواضعه أن يقول: "بيتنا" عند الحديث عن القصر .
نهاد سرّي أوريك

عندما كانت الجدة حميدة، زوجة عمي لجدي، تقيم ضيفةً في بيتنا في بورصة، كنا نجمع حولها الأطفال، فتحدثهم عن ذكرياتها، وإذا ما وصل الحديث إلى الرواتب وعدم كفايتها، تسمعنا أسطوانتها المعهودة قائلةً: "أولادي، كنا في أيام السلطان عبد الحميد في بحبوحةٍ، ولم يبقَ للبركة بعده مكان". وكما نتفاءل في أيامنا هذه باسم "طيّب" عندما نراه بين الأولاد؛ كانت العائلات في ذلك الزمن يسمون مواليدهم الذكور "حميد" والإناث "حميدة" أو يسمونها "عطية" مثل جدي.

فإن قلتم: "فهمنا كل ذلك، إلا "عطية" هذه، فماذا تعني؟"، فالجواب أن لها حكايةً مثيرةً، تأتي كإلقاء الحديد في القاع من غير صوت ولا ضجيج، إنها رسالة تعلن أبوّة السلطان بمقدار بيانها وجهه الإنساني.

في مذكراته البلدة الحالمة: أسكدار عن خواطر طفولته التي تصادف أيام عبد الحميد، يتحدث برهان فلك بانفعال وحماسةٍ عن چيرك ألتون- ربع الليرة الذهبية- التي أرسلها السلطان بنفسه، ووضعت في يده بالذات، فيقول:

كان يجري ذلك يوم جلوس السلطان على العرش في 19 آب بالتاريخ الرومي من كل عامٍ في احتفالات الختان، من غير تمييزٍ بين العائلات، الخاصة منها والعامة. فبينما تعمّ الفرحة في ذكرى جلوسه على العرش، تأتي المكرمة لتضفي على حفلات الختان رونقها الخاص؛ حيث يرسل السلطان ربع ليرة ذهبية مكرمةً- إحسان شاهاني- إلى كل طفلٍ يجري ختانه في الأماكن العامة .

فإذا كان عدد الأطفال ما بين 5000 و20000، فإن تكاليف المكرمة تكون خمسة آلاف ليرةٍ ذهبيةٍ فقط، لكنها كانت تشكل دعايةً كبيرةً للسلطان، ومصدر فرحةٍ كبرى للأطفال. وبسبب تكرارها في 19 آب من كل عام؛ استقرت مواسم هذه السنة من منتصف آب وحتى منتصف أيلول إلى أيامنا هذه ...

وهذه المغامرة التي يمر بها كل الأطفال ما زلت أذكرها، أذكر أنني أخذت

في يدي ربع الليرة الذهبية والشمس تميل نحو الغروب [71] .

وهكذا يكون السلطان عبد الحميد بترتيبه حفلات الختان الجماعية في يوم جلوسه على العرش الذي يصادف في 19 آب بالتقويم الرومي (يقابله 31 آب بالميلادي) قد أجرى سنّةً مزدوجةً، أي: عادة مراسم الاحتفال الجماعي بالختان، وأن يجري في آب من كل عام؛ لتستمر حتى يومنا هذا. وبتعبيرٍ آخر، إذا كانت تجري اليوم هذه السنّة الاجتماعية، وإذا كنا نرحّل، من دون أن ندرك السبب، حفلات الختان إلى شهر آب؛ فإننا مدينون في ذلك إلى عبد الحميد بقلبه الإنساني، واستراتيجيته الرائعة في محاولته كسب قلوب الصغار. صحيح أنه لم يعد بيننا اليوم عبد الحميد الأب الذي يرسل ربع الليرة الذهبية إلى حفلات الختان؛ غير أننا نستطيع أن نرى آثار قدميه في حاراتنا.

وهكذا، فإن عطية - الاسم الذي استطاع أن يدخله إلى عائلةٍ من أورفة- جهدٌ غير مألوفٍ بذله سلطاننا في سبيل إحياء رسالة الأبوة في دولةٍ فسدت بنيتها الكيميائيّة، وفي تطعيم شعبه وأمته مشاعر اهتمامه بهم، وأنهم غير متروكين بلا رعايةٍ ولا راعٍ، فهو معهم، إلى جانب جهده في بناء تنظيماته.

ولا يكتب التاريخ مع الأسف حملات الاستنفار من أجل تأمين الفحم للناس في الأيام الباردة، كان يقوم بها السلطان عبد الحميد وإلى جانبه رئيس وزرائه، عبد الحميد هذا الذي كان يحاول جاهداً إعادة الشعور بأنهم أعضاء العائلة الكبيرة، وأن السلطان كالأب الكبير لها؛ إلى كتلٍ اجتماعيةٍ فقدت ثقتها بالدولة من كثرة الخطب البيروقراطية المتعالية التي صكّت آذانها.

وما كان للقلم أن يصمت صمته الأبدي أمام الأعمال الخيّرة الحسنة؛ لأن المؤرخين لم يذكروه. فها هو نادر أوزبك- من أعضاء الهيئة التدريسية في قسم التاريخ في جامعة Boğaziçi - في رسالة الدكتوراه [72] التي أعدها في قسم التاريخ في جامعة Binghampton يسلط مجهره على جانب حب عمل الخير في شخصية السلطان عبد الحميد؛ ليظهر في النهاية مشهد يصعب تصديقه، ونعثر في الكتاب على طرف الخيط لحب أمتنا العميق لعبد الحميد الذي يصر المثقفون على وصفه بالسلطان الأحمر .

هل تحبون رؤية طرف الخيط هذا؟

يظهر في البداية قضية العطية هذه... والهدايا السلطانية- عطايا سنية- التي يمنح السلطان الكتلة الواسعة من المجتمع إياها، لا تنحصر أبداً في

ربع الليرة التي يقدمها للأطفال في حفلات الختان، بل تشمل الكثير من الأمور التي تحولت إلى حالات الاستنفار بدءاً من هدايا الكتب للطلاب في حفلات تخرجهم حتى تركيب الساق الصناعية لابنة الإطفائي في أسكدار محمد أفندي البالغة من العمر سبع أو ثماني سنوات.

ففي ليلةٍ من ليالي الشتاء الباردة، شكّل لجنةً خاصةً- يحلو للبعض أن يسميها شرطةً سريةً - لتسجيل العائلات التي لا تملك ما تؤمن به الدفء لبيوتها، وخصص مبلغ 15300 قرش من نظارة الخزينة الخاصة، وأنفقه في شراء خمسين طناً من الفحم، وقام بتوزيعها على الأهالي المعدمين في إستنبول.

فرح الناس في المناطق التي وزّع فيها الفحم، ونرى في وثائق الأرشيف رسالة الشكر الخاصة التي قدموها للسلطان. ولن تكونوا قد فهمتم بعد مشروع عبد الحميد إن كنتم تظنون أن معوناته كانت تنحصر في أهالي إستنبول، فنرى على سبيل المثال وثائق الأرشيف التي تذكر فيها معونة الفحم للفقراء في فيليبي، والعريضة التي قدمها الأهالي لشكر السلطان.

و عطية أخرى أجراها عبد الحميد عادةً في يوم جلوسه على العرش؛ ألا وهي عمليات فك الغارمين من سجونهم بأداء ديونهم. غير أن عبد الحميد لم يكن كحكام اليوم يبدي شهامته من خزينة الدولة، بل كان يخصص كل عام منذ طفولته مبلغاً من المال يسد به ديون الغارمين الذين اقتيدوا إلى السجن لعجزهم عن سدها.

ساق أونّك الصناعية هدية من السلطان

يتلقى عبد الحميد في 29 أيّار 1899 طلباً من شابٍّ يبلغ من العمر 26 عاماً فقد ساقه اليسرى قبل ستة أعوام؛ يرجوه فيها مساعدته على إيجاد حلٍّ لوضعه البائس. حوّل عبد الحميد هذه الرسالة إلى ناظر البحرية حسن حسني باشا للاهتمام بها. يكتب الباشا في تقريره ضرورة ربط الساق الصناعية بالمشد إلى الخصر؛ لأن الساق مبتورة من الورك. وحسبت التكاليف فيتبين أنها تبلغ 18 ليرة. ويتحول الموضوع إلى الصدر الأعظم خليل رفعت باشا، ويطلب الباشا لصرف المبلغ مصادقة السلطان عليه. فنجد على هامش الوثيقة ملاحظة عبد الحميد الظريفة؛ يأمر فيها تسديد نفقات الساق الصناعية من العطية السنية [73] .

فهل عرفتم من هو هذا الشاب الذي تلقى جواب طلبه وبلغ مراده في زمن قصير؛ في فترة شهرين فقط؟!... إن هذا الشاب سعيد الحظ هو أونّك

بن غريفور وليس أحمد أو محمد ، أي إنه أرمني .
والحاصل أن حكم عبد الحميد كان آخر المحاولات النبيلة في إدارة الأمة العثمانية باعتبارها عائلة واحدة .

وفي عام 1892 شكل لجنةً خاصةً لتمحيص شؤون السجناء متذرعاً بيوم جلوسه على العرش، ولما وجد المقدار المخصص يفيض عن حاجة الغارمين، وسع دائرة العفو فاستفاد منه خمسون سجيناً آخر.

إن اختيار هؤلاء الناس الذين كبّلتهم أقدارهم مجالاً لمعوناته يشكل فقط جانباً من الجوانب التي ينعكس منها "وجهه الإنساني". حتى العائلات التي نفاها تدعو له حتى الآن، كما سنرى. لماذا؟ لأنه أبعدهم؛ ولأنه السلطان الذي لم ينسَ مكافأتهم أيضاً، وهو يعاقبهم بالنفي.

كيف كان يعمل عبد الحميد؟

إن الحيرة الأولى بدأت مع الخطوة الأولى... فهل كانت هذه هي الدائرة الخصوصية؟ !

خالد ضياء أوشاق أوغلو

من المعروف أن السلطان عبد الحميد كان يعمل من خمس عشرة إلى ستّ عشرة ساعة، وهذا يعني دواماً مضاعفاً عند مقابلته بالساعات الثمانية من العمل البيروقراطي عندنا. وهذا يعني أنه حين يمضي سائر يومه في العمل لم يترك لنفسه إلا ساعات النوم.

ينقل لنا خلوق شخصور أوغلو نومه المبكّر، وأنه كان يلبس في الليل قميصاً طويلاً يبلغ ركبتيه، ويسمح بإيقاظه مهما كان الوقت متأخراً إذا جدّ أيّ عملٍ أو خبرٍ طارئٍ. ففي الطوارئ ترسل المذكرة من الباب الخارجي إلى الداخل، فيتسلمها آغا بيت الحريم الذي ينام عند باب الحاكم، فيطرق بدوره باب السلطان ويوقظه، ثم يعرض عليه المذكرة، وينتظر أمر السلطان.

يعبّر الباش كاتب- السكرتير الأول- تحسين باشا عن حيرته في همة السلطان الذي ربما يقطع نومه مخصصاً الساعة والساعة والنصف في مذكرةٍ تلقاها، ثم يكون على رأس عمله في اليوم التالي بلا كللٍ ولا تأخيرٍ، حتى إنه عندما وصله التقرير عن التحقيق الذي أمر به حول البطريرك خانة- المكان الذي يقيم فيه البطريرك، بابا الروم- أرخى أوتار الزمن وهو يقول: " **لقد أصبح عدم النوم، والتيقظ الدائم؛ فرض عينٍ علينا**" [74] .

التزام السلطان عبد الحميد وتدينه في نظر ابنته

تتحدث عائشة سلطان عن ديانة والدها، والتزامه بلا إحجام، فتقول :

" لم يكن والدي سوى رجلٍ مسلم على اعتقادٍ دينيٍّ تام صحيحٍ، يصلي الخمس، ويلازم تلاوة القرآن، وقد انتسب في شبابه إلى الطريقة الشاذلية. كان يروي لنا حكايات عن شبابه، وملازمته المساجد، وأداء صلواته في رمضان في جامع السليمانية، وتسوّقه في الأسواق التي تقام في ساحته. وقد صادف ذات يوم أن التقى هناك شيخاً فاضلاً يدعى حمزة ظافر أفندي صار صديقاً له، وانتسب إلى هذه الطريقة عن طريقه. وانتسب كذلك إلى الطريقة القادرية عن طريق الشيخ عبد الله أفندي أكبر شيوخ تكية يحيى أفندي .

كان والدي يحث الجميع ويطلب منهم أداء الصلوات وارتياد المساجد. وكان الأذان المحمدي يرفع في حديقة القصر خمس مرات يومياً. وكان والدي

يردد دوماً: الدين والعلم ، ثم يضيف: إن الاعتقاد فيهما معاً جائز " [75] .

وفي المصادر الأخرى نجد حياةً في غاية الرتابة والانتظام أمضاها السلطان عبد الحميد: يستيقظ مبكراً في الصباح، يدخل الحمام ويستحم، ثم يؤدي صلاته، ويجلس على أريكةٍ خارج الحمام، ويستغرق في تسبيحاته حتى شروق الشمس. يعتني جيداً بتسريحة شعره ويفرقه من اليمين. يعتمد على نفسه في الاستحمام والتنشيف من دون الحاجة إلى أحد، وبعد تجولٍ قصيرٍ في الحديقة يدخل إلى مكتب عمله. فطوره الصباحي في غاية البساطة. يمضي وقته خارج العمل متجولاً في الحديقة، أو في البحيرة في زورق التجذيف، أو الزورق البخاري، أو يتسلى بمناظر الحيوانات والطيور النادرة في الجزيرة، أو يستريح في قصره [76] .

وعند ابنته عائشة عثمان أوغلو نجد أنه ينام مبكراً ويستيقظ مبكراً، وبعد صلاة الصبح يتناول إفطاراً خفيفاً، ويشرب قهوته، ثم يجلس إلى مكتبه، ويطلب سكرتيره الأول؛ الباش كاتب، وينشغل بالأعمال الرسمية حتى الحادية عشرة. وعند



إلى هذه الطاولة أمضى عبد الحميد أعوامه الثلاثة والثلاثين في صراعه مع الذئاب.

الحادية عشرة والنصف يتناول غداءه، ثم يسترخي على أريكة طويلة نحو خمس عشرة إلى عشرين دقيقة، ويكون الدوام المسائي قد بدأ، فيدخل مكتبه، ويستقبل كتّابه ووزراءه. وكان في أغلب الأمسيات يتنزه بعد العشاء في الحديقة. وبينما كان يبقى على عمله في المابين * حتى منتصف الليل عند تزاحم الأعمال؛ ينسحب في العادة إلى غرفة نومه بعد صلاة العشاء.

وقد حفظت لنا عائشة عثمان أوغلو بعناية خبيرٍ علاقة والدها بالوقت؛ إذ تقول: "لقد كان والدي شديد الارتباط بالوقت والزمن. وأستطيع القول إنه ربط كل عملٍ بساعةٍ محددةٍ، وأمضى عمره في حياةٍ رتيبةٍ منظمةٍ على وتيرةٍ واحدةٍ".

وسنرى أن هذا الاهتمام بالوقت سيجعله سيد أبراج الساعة.



عبد الحميد في سريره وهو يطالع رواية. نشرتها إحدى الصحف الأوروبية.
لم يخاطب أحداً بقوله: "أنت"

أما أدبه العالي في الخطاب؛ فإنه لم يخاطب أحداً، حتى أولاده، بقوله: "أنت"، فقد شدّ انتباه الكثيرين، ومن بينهم ابنته، وفتحي أوقيار. وينبغي أن يكون هذا "الأدب الذي تجاوز الحد"، بتعبير نديم، أحد الدروس التي يجب أن نتلقاها في أيامنا هذه التي تشيع فيها اللامبالاة في أساليب الخطاب.

شارلوك هولمز والتصوير الفوتوغرافي، وكتب، وخزفيات

حتى وقوفنا الآن عند عتبة حل خيوط هذه الكبكوبة المعقدة ...
شريف ماردين

اشتهر السلطان عبد الحميد بشغفه بالنجارة، وولعه بالروايات البوليسية، ومذكرات الرحالة، حتى إنه كان يطلب ترجمتها إن لم تكن مترجمة، ويطلب قراءتها عليه مقطعاً مقطعاً كل ليلة قبل أن يخلد إلى النوم، وعندما يشعر بدبيب النعاس يقول: "كفى"، فيغلق من يقرأ عليه الكتاب بهدوء ويخرج. ربما كان هذا الشخص مدير الخروج محمود بيك، أو مسؤول الهندام أثوابجي باشا عصمت بيك، أو موظف المابين أمين بيك. وتجلس الأسرة أحياناً مستمعة إلى أخيه وهو يقرأ كتاباً، وقد قرأ طبيبه الخاص عاطف أفندي بصوتٍ عالٍ مذكرات الرحالة نانسن عن رحلته في اكتشاف القطب الشمالي، والعائلة كلها تستمع إليه.

ونعرف أيضاً ولع السلطان البالغ بالمطبعة وأعمال النشر، حيث استقدم إلى تركيا أحدث المطابع، فطبعت فيها الدواوين النفيسة، وطبعت، على سبيل المثال، طبعة رائعة لديوان جم سلطان [77] وأُرسِلت نسخ منها إلى إنكلترا وألمانيا وأميركا.

كما يتحدث العلماء عن أننا مدينون لعبد الحميد في أصح طبعةٍ لصحيح البخاري، وهذه النسخة ما زالت تعرف في مدونات كتب الحديث باسم نشر عبد الحميد [78] . وقد قرأ بنفسه صحيح البخاري لا لفهمه فحسب، بل للتوسل به والدعاء أيضاً؛ ولذلك نرى في ملاحظات عاطف بيك أنهم كانوا يداومون على قراءة البخاري الشريف خلال حرب البوسفور- چناق قلعة- توسلاً به إلى النصر. وكانت نسخ صحيح البخاري مجانية؛ إذ أمر السلطان بتوزيعها مجاناً للأمة المحمدية. وطبيعي أن تكون الافتراءات المغرضة التي حاولت النيل من السلطان عبد الحميد في منعه طباعة القرآن والحديث الشريف؛ داعيةً للسخرية والضحك فحسب، فقد كان السلطان يعترض على طباعة هذه المتون المقدسة التي لا يمكن منعها وإخفاؤها على أوراق الصحف الممتهنة التي تستعمل في كل مكان، ويعترض على طباعة المصاحف من غير ترخيص لصيانتها من الأخطاء [79] . وإلا فليس هناك سبب معقول آخر يمنع طباعتها [80] . ولذلك نرى أن هذه

المنشورات كانت تجمع وتحرق بين الحين والآخر. ألسنا نلمس استمرار هذه الحساسية حتى يومنا هذا في هيئات النشر والطباعة؟ وفي Caǧaloǧlu حالياً بعض المطابع التي ترفض طباعة القرآن الكريم خوفاً من عدم تقديم ما يستلزمه من الاحترام.

شارلوك هولمز والسلطان عبد الحميد

سأل باهتمام بالغ إن كانت سلسلة حكايات شارلوك هولمز تستمر في الصدور أم لا؛ لأن مؤلفها هو صاحب القلم الفريد الذي يعجب به عبد الحميد؛ كونان دويل، وقد قال عنه يوماً: "كان يمكن أن يكون مديراً خارق العادة للشرطة". الناقل: ستيفن لوزان ونقل عبد الحميد من سلانيك، مجموعة التاريخ المصورة، العدد: 1 ، كانون الثاني 1950 ، ص 3 .

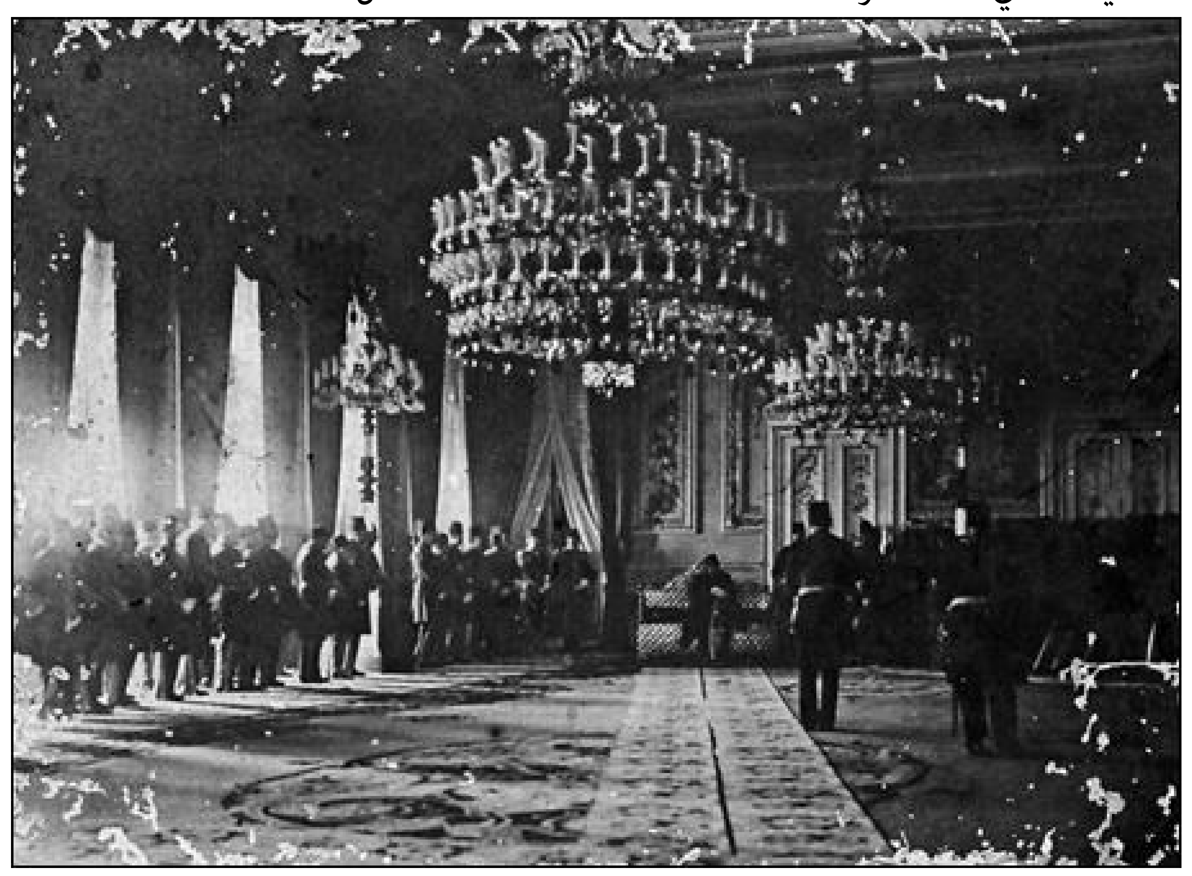
ويكتب فرنسوا جورجيون عن تكريم السير كونان دويل كاتب شارلوك هولمز من قبل عبد الحميد بأعلى نيشان إمبراطوري، ينبغي أن يكون هو النيشان المجيدي من الدرجة الأولى. انظر: المصدر الصحوة الأخيرة *1878 - 1908* ، ص 153 . والمعلومة نفسها في كتابه الأخير من غير أن يذكر المصدر؛ انظر: السلطان عبد الحميد ، ص 163 . نجدها أيضاً عند السير هنري وودز الذي كان في تلك السنوات موظفاً في إستنبول، ويضيف زيارة دويل إلى القصر وتلقيه النيشان فيه. انظر: ذكريات تركيا ، ترجمة فخري چوكر، إستنبول 1976 ، منشورات مليّت، ص 123 .

وفي الحقيقة، يتزامن تطور الروايات البوليسية عندنا مع عهد عبد الحميد. لا :انظروا .الموضوع حول مختلفة منشورات Üyepazarcı أرول نشر وقد والمترجمة المؤلفة البوليسية الروايات في بحث :هولمز شارلوك مستر تخافوا المنشورة في تركيا) 1881 - 1928 ،(إستنبول 1997 ، الكتب الشعبية .

المختارات في كان ؛ Üyepazarcı لنا يقدمها التي المعلومات وحسب خمسة إلى ألفي بين ما تتراوح بوليسية روايات الحميد لعبد الشخصية آلاف ،رواية ضاع معظمها في نهب قصر يلدز .

وكانت كوارث باريس لمؤلفها بونسو دو تيراي الرواية الأولى التي ترجمت إلى العثمانية عام 1881 ونشرت بتوقيع أحمد منيف. ومن هذا التاريخ وحتى إعلان المشروطية الثانية تُرجِمت أربع وخمسون رواية بوليسية. بينما صدر عدد محدود من الروايات البوليسية التي ألّفها أحمد مدحت أفندي، ونجيب فضلي صاحب جريدة العصر الجديد كان يصدرها في سلانيك. وروايات أحمد مدحت: أسرار الجناية (1884)، و حيرة (1885)، و قاطع الطريق مونتاري (1888).

لا نملك الآن معلومات موثوقة عن مختارات عبد الحميد بسبب النهب الذي تعرضت له مكتبته في حادثة 31 آذار / مارت حسب التقويم العثماني. غير أن إميل غابوريو وبونسو دو تيراي وكزافيه دو مونتوبان وجولي ماري من الكتّاب المفضلين لدى عبد الحميد وفق إي ڤ ان أوديان ، المعاصر لتلك الفترة، ومؤلف عبد الحميد وشارلوك ومؤلف رواية بوليسية، وأصبح مغرماً بشارلوك هولمز بعد أن قرأ لكانون دويل، حتى إنه دعاه إلى القصر، ولأمر ما لم يتحقق اللقاء... الناقل: أ. عمر توركش، عوني منافس شارلوك هولمز ، كتاب راديكالي، 3 شباط 2006 . وفي المقالة الأخيرة لأوية بازارباشي، يبلغ عدد الكتب التي ترجمت خصيصاً له 505 كتبٍ وليس ستة آلاف كتاب، ذكر عناوينها بالتفصيل. ووجود الترجمة الكاملة لمغامرات شارلوك هولمز بينها يشد الانتباه. انظروا: الروايات التي أمر بترجمتها عبد الحميد الثاني - متفرقة- عدد: 82 ، شتاء 2005 ، ص 25 - 34 .



إحدى مباركات العيد في قصر دولمة بهجة. السلطان عبد الحميد وبيده السيف جالساً على عرشه الذهبي المشهور: يتقبل معايدات رجال الدولة.

التصوير الفوتوغرافي

يذكر عبد الحميد أيضاً بحبه للتصوير، وقد عيّن منشآتٍ ومباني في الإمبراطورية- كمدرسةٍ في بورصة، وجامعٍ في حلب، وقصرٍ في مكة-

لتصويرها في طلبٍ خاصٍ من خبراء التصوير: Joailler & Sebah ، عبد الله برادرلر، فبوس، وغيرهم، مما يدل بوضوح على انفتاحه على الاكتشافات العلمية والفنية. ذكر ذلك المحترف الخبير فبوس الذي عمل 23 عاماً عند عبد الحميد رئيساً للمصورين؛ في ذكرياته المثيرة التي نشرها بعد أعوامٍ في جريدته الشهيرة أيدبير الشهرية [81] .

ومن خلال تلك الصور نرى تصوير الإمبراطورية كلها تقريباً، وعلى الرغم من أنني لم أتمكن من البحث إلا في قسم منها، فإنني أستطيع أن أقول: إنه عند النظر إليها، تسيطر على الإنسان مشاعر وكأن الألوان تشع في عظمتها على الدنيا من ذيول شمسٍ مالت نحو الغروب.

أضف إلى ذلك، ألبومات الصور الفوتوغرافية (عدد 36) في أغلفةٍ حمراء ذات أطر مذهبةٍ أهداها إلى مكتبة الكونغرس في الولايات المتحدة الأميركية، تحوي أكثر من 1200 صورة [82] . وهذه الصور تعرض الآن في موقع جامعة أميركية على الإنترنت، ومن يرغب في هذه المجموعة التي تحوي مئات الصور الفوتوغرافية، فبإمكانه أن يجدها بسهولة على العنوان التالي:

(http://lcweb2.loc.gov/pp/ahiihtml/ahiiabt.html)

حبه للكتب:

قد يبدو بعيداً عن التصديق إن قلتم: إنه حب الكتب [83] ، وربما لم يكن السلطان عبد الحميد يملك الوقت الكافي للقراءة أيام سلطنته، غير أنه كان يبدي احترامه الدائم للكتب. في مكتبة جامعة ميتشيغان في الولايات المتحدة الأميركية مجموعة من الكتب التي فقدت من مكتبة السلطان عبد الحميد في قصر يلدز تشكل 288 قطعة من مختاراته فيها مخطوطات القرآن الكريم، والكتب الدينية القيمة التي تبهر الأبصار [84] .

السلطان الذي يختم البخاري متوسلاً به

إلى النصر في حرب البوسفور؛ چناق قلعة

ما الذي يمكن أن أفعله غير الدعاء؟ أقرأ دائماً في البخاري الشريف، أكاد أختمه كاملاً، وأرجو من الله أن تكون أدعيتنا مستجابةً عنده. (ص 266). أدعو الله من أجل سلامة البلاد، وخلاص الملّة الإسلامية من هذا البلاء، وإذا ما تماثلت إلى الشفاء فسأبدأ بالبخاري من جديد... لقد قرأته طيلة حرب البوسفور- چناق قلعة- فحفظنا الله وحمانا، وسيفعل. (ص 388).

السلطان عبد الحميد الثاني

(ن مذكرات عاطف أفندي بيك)

أما المعلومات القيمة عن الأقسام التي تتألف منها مكتبة السلطان هذه، فيقدمها لنا الباحث التاريخي ضياء أركينز:

تتألف مكتبة السلطان عبد الحميد في قصر يلدز من أربعة أقسام:

1. الكتب الأجنبية ذات الصلة بتركيا، تحوي كتباً مخطوطةً كثيرةً، هي ترجمات خاصة لأصولها الأجنبية بعد أداء حقوق التأليف. ولذلك تمنع طباعتها ونشرها، ولا يتوفر منها سوى نسخةٍ واحدةٍ.
2. مجموعة مختاراتٍ غنيةٍ ومتسلسلةٍ من الصحف، فقد كانت المكتبة مشتركةً في جميع الصحف الهامة التي تصدر في أوروبا.
3. قسم الروايات والقصص: فيه ترجمات خاصة بالمكتبة يبلغ مجموعها نحو ستة آلاف كتاب، فكانت هذه الروايات تقرأ في بيت الحريم منتقلةً من يدٍ إلى يدٍ حتى يعاد تسليمها إلى المكتبة من جديد. فكانت تحوي على سبيل المثال كل روايات كارمن سلفر.
4. مختارات من الكتب الجغرافية ومذكرات الرحالة.

وكان للكتب العربية والفارسية قسم خاص في المكتبة، غير أنه كان فقيراً مقابل الأقسام الأخرى. "لقد كان عبد الحميد يمضي حياته في غابةٍ تحدها جدران يلدز وكأنه يراقب الدنيا كلها من هنا"، وهو يقرأ الكتب.

كان يعمل في مكتبة قصر يلدز- حسب أركينز- ثلاثون موظفاً تقريباً. والسلطان يحب المكتبة كثيراً، فيمضي فيها نحو ساعتين يومياً، وربما يستقبل رجال دولته فيها. ولئن تفرق قسم من الكتب خلال النهب المشهور لقصر يلدز؛ فإن القسم الأساسي والأهم من المكتبة موضوع اليوم تحت الخدمة باسم مكتبة (الشرقيات) [85] .

رحلة في مكتبة عبد الحميد

تتحدث السيدة ماكس موللر زوجة المستشرق المشهور في مذكراتها التي طبعت عام 1897 عن مشاهداتها وأبحاثها في هذه المكتبة، فتقول :

" كانت الحماسة التي يبديها من الأعماق موظف المكتبة العجوز مؤثّرةً جداً، وكان مساعدوه يسارعون في تقديم المعونة الخبيرة المطلوبة. في البداية أحضروا لنا المخطوطات الإيرانية النفيسة، مجلّدةً بأغلفةٍ رسمت عليها المنمنمات الرائعة. وما إن شرحت لهم ما يريد زوجي رؤيته من الكتب التي جلبت من الهند حتى كانت جاهزة بين أيدينا، غير أنها كانت في غالبيتها كتباً حول الموسيقى. وبعد أن شاهدنا بعض المخطوطات النفيسة للمصاحف المفسّرة؛ طلبوا منا التجول في المكتبة، وإلقاء النظرة على ما تحويها بشكل عام .

كانت المكتبة برفوفها القابلة للحركة مصممة بأفضل طراز. احتلت الكتب الكلاسيكية؛ الفرنسية والإنكليزية والألمانية جانباً منها، وحفظت المجلدات المصورة العظيمة التي أهديت إلى السلطان في واجهة بلّورية وسط الغرفة. وبينما كان زوجي يتحدث إلى موظف المكتبة العجوز بمساعدة صادق بيك؛ كان مساعدوه يعرضون عليّ وعلى ابني لوحات الصور عن بعض الأماكن الرائعة في الإمبراطورية العثمانية، وبعض المباني الرسمية في إستنبول ... [86] . وقد علمت من موظفي المكتبة أن السادة الأمراء- ذات شاهزادات- يهتمون بتنظيم المكتبة ويزورونها كل يوم على وجه التقريب. وقد أمر السلطان بوضع الكتب التي قدمها له زوجي ورجاه بقبولها في مكان متميز. ثم افترقنا وقلوبنا معلقة هناك ".

اهتمامه بالورود والأصص

لقد كان السلطان الأخير بشخصيته متعددة الجوانب يغمر الميدان بالوثائق والمعلومات. ولنعرّج هذه المرة على ولعه بالورود والخزفيات. ففي عام 1936 بينما كان يمضي في طريقه مراسل جريدة شهرية عند ضفة النهر الأزرق حيث ينتشر عمال الفخاريات والخزفيات، فجأةً وجد نفسه يسأل أحدهم: "من هم أكثر زبائنك من الأغنياء هذه الأيام؟"، تلقى بكلمةٍ واحدةٍ جواباً لم يدر بخلده قطّ: "السلطان عبد الحميد!"، تمالك المحرر نفسه من وقع الجواب، وقال بلهجة احتجاجية تملأها أعراض النظرة الجوفاء التي يحملها عصره لعبد الحميد: "ولكن... هل كان حضرة السلطان عبد الحميد الذي تتحدث عنه يعمل على تشكيل معرضٍ للفخاريات؟!". أشعل سيجارته وبدأ يتحدث عن السلطان الذي كان يأكل بسببه خبزه؛ وهو يحرك أوتار العقول والقلوب:

" كنت أقدم للسلطان حميد ثلاثين ألف أصيصٍ كل عامٍ، فهل فهمت؟!... ثلاثين ألف أصيصٍ من مثل قبضة اليد إلى الدّنان الكبيرة... لم أرَ أحداً مولعاً بالورود كالسلطان حميد، كان يحدد بنفسه أطوال الأصص وأحجامها... لم يكن عملاً سهلاً، لكنه كان يدرّ الأرباح ".

استبدت مشاعر الفضول بالمراسل فسأل معقباً: "ما الذي كان يفعله بهذا العدد الكبير من الأصص ؟!"، ويأتي الجواب الذي يتركنا تحت جبال الجليد من الدهشة مرةً أخرى:

" ما الذي يمكن أن يفعله؟ في هذه الأصص كان يستنبت كل النباتات التي يستخدمها، بدءاً من الورود التي يضعها السلاطين على ياقات معاطفهم، إلى بواكير الأزهار التي توضع على الموائد. وكان مولعاً على وجه

الخصوص بالفراولة. وكنا نصنع له أيضاً الزهريات الزجاجية الخاصة بالورود التي تستنبت في الماء !".

ثم تحدث عن آغاوات الحريم- وهم مرافقو السلطان الموظفون في القصر- الذين يأتون إلى وُرش العمل على ضفة النهر الأزرق حاملين معهم وسائل القياس يقيسون بها أطوال الأصص ، وعن المساومات التي تعقب ذلك. ينبغي أن تكون جميع الأصص موحدةً في طولها، هذه هي أوامر السلطان- إراداته السنية- ولن تلقى القبول في القصر إن كانت قصيرة قليلاً أو طويلةً أو عريضةً أو ضيقةً، ثم تبدأ المساومات وتمتلئ بضجتها مكان العمل، ولا ينجو منها صاحبه إلا بعد شرح التفاصيل الدقيقة وتمييز الأبيض من الأسود [87] .

سنرى في ما بعد؛ **أنه كان إنساناً يعيش وحيداً في عالمه، لم يستوعبه محيطه، ولم يفهم من قبل مثقفي عصره. يبحث بهوسٍ عن الصيغة التي يمكنه بها المحافظة على جغرافيته وأمته موحدتين في عصرٍ حرجٍ بلغت فيه مخاطر التمزق والتقسيم ذروتها. فالصور الفوتوغرافية ليست سوى وسيلة من الوسائل يحفظ بها صورة بلاده... إنه يباشر حملات التعليم، ويتجه نحو البنى التحتية: كشق الطرق، وتطوير قدرات الاتصال، ويبذل جهده للحصول مرة أخرى على صورة السلطنة العثمانية، ويعيد من جديدٍ نشرها في الآفاق، ويرسل السفراء وعلماء الدين إلى الهند وجاوة [88] وأفغانستان والصين وماليزيا وأندونيسيا وجنوب أفريقيا وزنجبار [89] وروسيا- آسيا الوسطى- واليابان... إضافة إلى إقامة العلاقات الدبلوماسية مع الكثير من دول جنوب أميركا في عهده [90] .**

وهذه ليست سوى أجزاء في صورته الكبرى، فلنستمر بتركيب أجزائها!

مؤسس إدارة مكتباتنا العصرية

من الطبيعي أن نعتاد على أن ننظر إلى عبد الحميد كمؤسس لإدارة المكتبات في مفهومها العصري عندنا. فلنستمع في هذا إلى خبيرٍ في صناعة الكتب :

لقد بدأت الإدارة العصرية للمكتبات بالانتشار عندنا في عصر السلطان عبد الحميد. ففي عصره ظهرت الكاتالوغات لأول مرة... فأعدت كاتالوغات كُمُّل عاطف... ونجد النماذج الأولى لها في هذا العصر، وقد كان عصره عصر الترغيب في أعمال النشر. والنتيجة التي توصلنا إليها بعد تحليل المادة التي فيها مراقبة المطبوعات في قانون المطبوعات؛ هي ترغيب الدولة في التأليف والطباعة وفتح المطابع، فالدولة في هذه المادة ليست من أجل مراقبة

المطبوعات وبيان الممنوع منها والمسموح، بل لتأمين المساعدة المادية الممكنة لما تراه مناسباً: إما أن تقوم الدولة بطباعتها أو تقدم المساعدة لطباعتها، أو يشتري السلطان النسخ المطبوعة... وما هذه المساعدات وأمثالها سوى أشكالٍ تندرج في تطبيق هذه المادة .

وهذه المراقبة تقوم أيضاً بنشاطها الجدي في تشكيل مختارات الكتب. وبينما كانت العاصمة تنتقل من إستنبول إلى أنقرة لتشكل مكتبة موسوعة المعارف التركية ، تفرقت وتعرضت للضياع. وما زلنا نحاول حتى الآن لمّ شتاتها ... [91] .

السلطان عبد الحميد وذائقته الموسيقية

كان السلطان عبد الحميد الثاني، وفق ما يذكره الباحث ضياء شاكر، "ذا ذوقٍ موسيقيّ رفيع. والطريف المثير للانتباه أن هذا الحاكم لم يكن متعصباً لموسيقى الشرق أو الغرب، فكان يحبهما معاً". ويضيف ضياء شاكر في موضع آخر متحدثاً عن المسرح الذي بناه السلطان عبد الحميد في قصر يلدز ودعوته "كبار ملحّني الغرب لتقديم مسرحياتهم الغنائية فيها" ومشاهدته المسرحيات الغنائية المحلية بتلحين كبار الفنانين بمتعةٍ كبيرةٍ.

وعلى الرغم من حبه لألحاننا الموسيقية الكلاسيكية فإن السلطان عبد الحميد يرجح الموسيقى على الطراز الإفرنجي لإشاعة مشاعر الغبطة والسرور في نفوس الناس في عصره في وقتٍ تكاثفت فيه الهموم. وهو مثال على تغيّر الذّوق الموسيقيّ في القصر بعد التنظيمات. نعم، نرى ذلك مستفيضاً عند كثير من الشهود وفي مقدمتهم عائشة بنت السلطان.

وعليه، فإن غيرة السلطان هي التي دفعته إلى ضمّ حجي عارف بيك من أواخر النجوم في موسيقانا الكلاسيكية إلى القصر؛ متحملاً كل أهوائه ونزواته للحيلولة بينه وبين الرحيل إلى مظفر الدين؛ شاه إيران. غير أن حجي عارف بيك بطبعه المشاكس الغضوب رفض ذات يوم مستنكراً وبفظاظةٍ رغبة السلطان في الاستماع إليه بقوله: "إن الإرادة الهمايونية- الأمر السلطاني- لا تسري في الفن" [92] .

لقد ضقت ذرعاً من تملّق الموسيقيين الغربيين

ينبغي أن تكون خبرة السلطان عبد الحميد وحبه للموسيقى، والموسيقى الغربية على وجه الخصوص، منتشرين في أوروبا إلى حدٍّ كبيرٍ؛ حتى يمطر قصر يلدز بوابلٍ من المقطوعات الموسيقية، الأمر الذي دفع السلطان إلى أن يبدي في مذكراته تذمّره وشكواه من هذا الاهتمام المبالغ فيه :

تلقيت اليوم ثلاثة أناشيد- مارشاتٍ- كتبت لشرفي، وهذا كثير. لقد بلغ عدد الملحنين الذين قدموا مقطوعاتهم التي ألفوها لشخصي ألفي ملحّنٍ حتى الآن، فكيف لي أن أكافئهم جميعاً؟ ينبغي أن يكون سفرائي أكثر يقظةً حتى يتركني هؤلاء السادة الملحّنون أرتاح قليلاً. وإن كنت أعاني اليوم ضغط المقطوعات الفنية المقدمة لي من الشعر والغناء وغيرها؛ فهذا لأنني أبالغ في شكرهم وتقديم النياشين لهم خلافاً لما يقوم به الناس في العالم، لكنهم يستشيطون غضباً إن اكتفيت بكتاب الشكر ولم أقدم الهدايا والنياشين. يندر أن ينال فنان الاهتمام والهدايا من الإمبراطور الألماني، أو أيّ

حاكمٍ غيره في عملٍ يقدمه إليه، فلماذا يتوجب عليّ تقديم الهدايا لكل من يأتي إلى إستنبول ويؤمّن لقائي عن طريق السفراء؟ علاوةً على ذلك، فإنني لا أحب أبداً فنونهم الموسيقية الثقيلة، وما من شك في صعوبة تلك المقطوعات المسروقة، فأنا أرجح دائماً الموسيقى التي تبعث على الراحة لا التي تتعب ذهني. ثم إنني لست موسيقاراً إلى درجة حبي للموسيقى الكلاسيكية .

ولدي برهان الدين لديه استعداد كبير في الموسيقى، والمقطوعات التي لحّنها جميلة جداً أحبّها الجميع، وأجد المتعة في سماعها. كما عبّر عن سعادته الكبيرة في الاستماع إليها أمير شعراء الجبل الأسود نيكيتا مونتينيغرو [93] .

إن التفكير في المعاني التي تظهر في هذا المقطع المثير من المذكرات التي كتبها السلطان عبد الحميد الثاني (أو كتبت له) في سنوات حكمه يجعلنا ندرك أنه كان من حماة الفنون الجميلة إضافةً إلى الموسيقى في عصره .

ليس هذا فقط، بل كانت ابنته زكية سلطان من حماتها أيضاً، والسيدة الأولى نازكة كانت عازفة بيانو ممتازة، وابنه برهان الدين وبناته الأخريات السلطانة رفيعة والسلطانة ناعمة كانوا كذلك [94] .

ولو لم تسقط الدولة العثمانية واستمرت بالحياة؛ لكان لهؤلاء الأمراء والسلطانات الذين تذوقوا هذا الفن الموسيقي العالي في القصر العثماني تأثيرهم وبصماتهم في المشهد الموسيقي التركي؛ ولغدوا بمثابة هيئةٍ تنتج الآثار الفنية العظيمة وتحمي الموسيقيين في القرن العشرين .

وأوضح مثال على ذلك، أن معظم فناني الأوركسترا السيمفونية لرئاسة الجمهورية قد تم ترحيلهم من الموسيقى الهمايونية في القصر العثماني. ألم يكن عثمان زكي أونغور (1880 - 1958) الذي دخل المدرسة الموسيقية في القصر عام 1892 ، وسطع نجمه بتلحين نشيد الاستقلال آخر قادة الموسيقى الهمايونية؟! فنحن والحال هذه مدينون في تلحين نشيد استقلالنا إلى السلطان عبد الحميد. فضلاً عن أن من اكتشف عنده هذه الملكة وأمّن تطويرها بهذه السرعة هو السلطان عبد الحميد الثاني الذي لقّبوه بالسلطان الأحمر وليس شخصاً آخر !

وإذا كان الأمر كذلك، فهل يمكن أن ينظر إلى من يقول: "إن الجمهورية التركية قطعة بترت من الدولة العثمانية" على أنه رجل عاقل؟! ثم ألم يحن الوقت لأن ندرك أن السلطان عبد الحميد يشكل التراكم الثقافي بمقدار كونه مؤسس البنية التحتية للجمهورية، وأن ذلك من أهم الحركات التي تشكل صورته؟ !

تتحدث عائشة عثمان أوغلو من بنات السلطان عبد الحميد (1887-1960) أن جدّها السلطان عبد المجيد أحضر لكل أميرٍ من أولاده آلة بيانو، وضمّ إلى قصره مدرّسي الموسيقى من الإيطاليين والفرنسيين، وأن والدها عبد الحميد الذي تلقى الموسيقى على يد المعلم الفرنسي ألكساندر أفندي والملحن الإيطالي دونيزتّي عمل على العزف مدةً طويلةً، وكان يتحدث بأسفٍ أن الحياة المليئة بالهموم لم تدع له وقتاً يخصصه للموسيقى.

وهو، أي السلطان عبد الحميد، بدوره أحضر لأولاده آلات الموسيقى، وحضّهم على الاشتغال بالموسيقى، وكان يطلب منهم أن يعزفوا له، ويستمع إليهم، ويصحح لهم الأخطاء إن وجدت؛ وهذا دليل على درجة فهمه في الموسيقى.

كما تشد عائشة سلطان انتباهنا إلى أن والدها كان يرجّح النمط الأوروبي في الموسيقى على النمط التركي. ويمكن تأويل هذا التطور وردّه إلى الحياة التي نشأ عليها في القصر في عهد والده السلطان عبد المجيد وكأنه أمير أوروبي، متأثر بوالده...

وبينما كانت علاقة القصر بالموسيقى في عهد السلطان عبد العزيز تميل إلى النمط التركي؛ بدأت في عهد السلطان عبد الحميد تتجه إلى النمط الأوروبي، وأخذت الموسيقى الأوروبية مكانتها، حسب أقوال رفيق أحمد سفنغل.

وقد دخل الموسيقيون في سباقٍ لتأليف الأناشيد وتقديمها للسلطان عبد الحميد الثاني عند اعتلائه العرش، وقد جرب نجيب باشا- وكان قائداً لأوركسترا القصر- حظه أيضاً وأعدّ نشيده للسلطان، وبعد أن استعرض السلطان الأناشيد المقدمة واستمع إليها؛ اختار نشيد نجيب باشا، فكان هو النشيد الحميدي الذي يعزف في مراسم تحية الجمعة والاحتفالات الرسمية الأخرى طيلة أعوام حكمه. ويعزو خبراء الموسيقى ألحان نشيد الاستقلال ونشيد العام العاشر من بين أكثر الأناشيد جودةً ورقياً؛ إلى ألحان النشيد الحميدي.

حسناً، هل كنتم تعلمون شيئاً عن باندو البنات- الفرقة الموسيقية المؤلفة من الفتيات- في القصر؟ تشكلت هذه الفرقة بداية في عهد سليم الثالث ثم في عهد المجيد، واستمرت بعد ذلك في القصر في بيت الحريم ، وقد أسس الأخ الأصغر لدونيزيتي فرقة باندو صغيرة من البنات المنتسبات إلى بيت الحريم .

ولما تولى عبد الحميد العرش أعطى أوامره لسليمان باشا- قائد

موسيقي المابين الهمايوني- لإحياء باندو البنات؛ أو الحريم. وعلى الرغم من أنها تعرقلت بعض الشيء نتيجة الحروب والأزمات؛ فقد تحققت في حدها الأدنى, فرقة أوركسترا صغيرة وفرقة عزف قوية [95] .

ومن المؤسف أن باندو البنات وقد كانت حصيلةً لجهودٍ طويلةٍ؛ تفرقت على يد الاتحاديين بعد خلع السلطان عبد الحميد عن العرش [96] .

وتتحدث شادية بنت السلطان عبد الحميد (1886-1977) في مذكراتها عن تسللها في طفولتها، واشتراكها في فرقة الباندو ، وكيف أدهشت والدها في المسرح، وأضحكته [97] .

وقد ظهرت بعض المعلومات في المجلات التاريخية الشائعة عن فرقة باندو مثيرةٍ مؤلفةٍ من بعض آلات العزف كالبيانو والكمان [98] .

لم تقتصر الحفلات في مسرح القصر على المسرحيات والتمثيليات فقط، إنما كانت تجري فيها الحفلات الموسيقية والمسرحيات الغنائية، وتتم دعوة الفرق المسرحية التي تزور إستنبول من حين إلى آخر إلى القصر، أمثال النّجمات المسرحية سارة برنهاردت وأديلاييد ريستوري وسوزانا ديسبيرس ومدام جودي [99] .

لقد كان قصر يلدز كفرقةٍ موسيقيةٍ- كونسيرفاتوار- ضخمة فيها 350 موظفاً.

مهنة عبد الحميد وهواياته

نحاول هنا أن نسلط الأضواء على الصفات الخاصة لعبد الحميد خان مما لا يعرفه كثير من الناس:

النجارة: كان السلطان عبد الحميد نجاراً ماهراً إضافةً إلى مهاراته في الزخرفة والتنفير، وكانت له في القصر أدواته الخاصة. وكان قد بدأ في تعلم هذه المهنة بترغيبٍ من نجارٍ نمساويٍّ كان موظفاً في القصر. كان يرتدي زيّ العمل في أوقات فراغه، ويدخل ورشة النجارة بصحبة اليوزباشي محمد أفندي من معلمي مصنع الأسلحة؛ طوب خانة، ويغيب عن نفسه هناك لساعاتٍ طويلةٍ يمضيها في تفصيل المكاتب والخزائن والمناضد والطبليات، وغير ذلك، وإحدى المناضد التي صنعها بيديه كانت عند جودت صونالي في قصر چنكايا طيلة فترة عمله هناك (1973)، وقد سلّم على رأس هذه الطاولة التي صنعها عبد الحميد بيديه؛ مقامه إلى تكين أريبوران كرئيس لمكتب رئيس الجمهورية حين غادر الرئيس فخري قوروتورك رئاسة الجمهورية عندما خسر الانتخاب لفترة ثانية؛ لست أدري إن كانت المنضدة في مكانها حتى الآن أم لا. وكان والد الروائي كمال طاهر من مدراء ورشة النجارة.

الرياضة: كان يهوى في شبابه ركوب الخيل والسباحة والرماية وغيرها من الرياضات.

مهارته في الرماية: كان يجيد استعمال السلاح، ويختار الميداليات أهدافاً ويكتب عليها اسمه ويرميها في الهواء ويثقبها بالرصاص الذي يطلقه محققاً أهدافه.

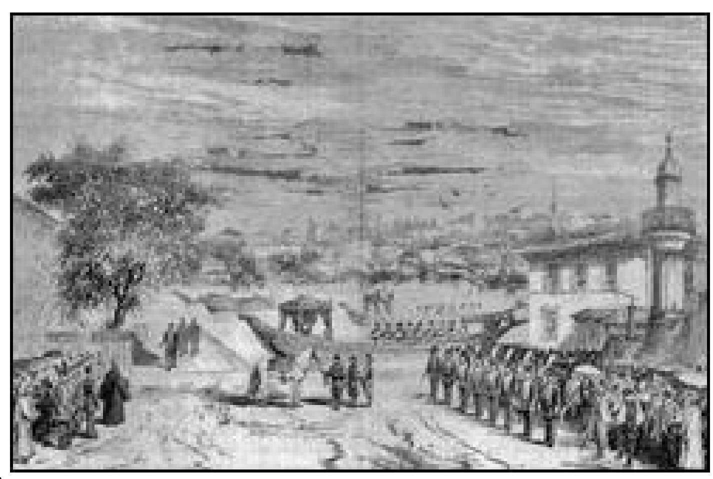
علاقته بالأوبرا والمسرح: كان يدعو إلى المسرح الذي أمر ببنائه في القصر المسرحيات والمسرحيات الغنائية- الأوبرا- ويشاهدها مع عائلته. وكانت مسرحية الشاعر الألماني المشهور فريدريك Schiller - وفاته عام 1805 - بعنوان قطاع الطرق من أحب المسرحيات إليه. ولاترافيتا، وعائدة، وكارمن، وفوست، وماسكوت، من أحب المسرحيات الغنائية لديه. غير أنه لم يكن ليغيب عن محيطه بالغرق في مشاهد المسرحيات، بل يسارع إلى دعوة باش كاتبه أو أركان دولته من الحاضرين في المسرح أو أحد رجالات قصره؛ كلما تذكر أمراً مهماً، ولا يتأخر عن إصدار الأوامر اللازمة [100] . وذات مرة كان السلطان يشاهد إحدى المسرحيات بصحبة ولي العهد الإيطالي؛ إذ تلقى برقيةً باغتيال الملك، فانتظر حتى نهاية المسرحية، وبينما كانا يهمان بالخروج؛ حاول أن يبين له الخبر وهو يخاطبه بجلالة الملك، لكن ولي

العهد لم ينتبه، فهنأه السلطان بالملك بعد اعتلائه متن السفينة بإطلاق المدافع 101 قذيفة مدفعية [101] .

شغفه بالخيول : إن بحثتم عن عبد الحميد في محرّك البحث غوغل، ثم ضغطتم على الصور؛ فلا تتفاجأوا إن ظهرت على الشاشة صور لخيولٍ سوداء، فهي الخيول التي أهداها السلطان عبد الحميد لأول رئيس للولايات المتحدة الأميركية يزور الدولة العثمانية. وهذه الخيول في الولايات المتحدة الأميركية من أعرق الخيول العربية الأصيلة، وأنقاها دماً. غير أن عبد الحميد كان مغرماً بخيل كحيلان الأبيض، هذا الخيل الذي اشتهر باسم فرحان ويملكه رئيس عشيرةٍ تعيش قرب بغداد، وقد بلغت شهرته بإنقاذ صاحبه بجرّه من ميدان المعركة؛ مسمع عبد الحميد متجاوزةً جدران قصر يلدز، فأرسل إلى بغداد يطلب من رئيس العشيرة أن يهديه هذا الخيل. وقد بقي فرحان على ألسنة الناس كواحدٍ من الخيول المشهورة في إستنبول لأعوام طويلة [102] .

الباب الثالث

الرقص مع الذئاب



السلطان عبد الحميد عند نزوله بالسفينة في ميناء أيوب
من أجل مراسم تقليد السيف. من مجلة L'illustration الفرنسية.

العواء مع الذئاب

من بين مئات الأقوال الهامة التي ترددت على ألسنة دبلوماسيي الدول العظمى في عصر عبد الحميد وهي تتحدث عن سياسته الخارجية الذكية، عبارة ذات مغزىً كبيرٍ عندي: **"إن عبد الحميد يتقن العواء مع الذئاب".**

وأصل هذا المثل الإنكليزي: Howling with the wolves ، وهو يعني عندما تكون في قمة جبلٍ وتحاصرك الذئاب؛ يمكنها أن تدعك وشأنك، وتتركك تنجو بنفسك؛ فقط عندما تستطيع أن تعوي مثلها، وتقنعها بأنك واحد منها، وإن حاولت الفرار أو القيام بعملٍ آخر غير العواء، تكن عرضةً للهجوم والتمزق بين أنياب الذئاب، ففرصتك الوحيدة للنجاة أن تتقن العواء كما تعوي.

لقد هبت هواجس المسألة الشرقية التي تثير المخاوف الكبرى في أعماق عبد الحميد الثاني ورجال تنظيمات الدولة الآخرين [103] ، فقد نشأت في ظل الدلائل القاطعة على وقوف الإمبراطورية العثمانية على حافة التمزق والانهيار، في مائدة الذئاب التي تحيط بها تنتظر اندلاع الصراع على تقاسمها. وفي منعطفٍ حرجٍ خطيرٍ كهذا؛ سيحاول عبد الحميد أن يتصرف على الأقل كدولةٍ كبرى، ويحاول إقناع ذئاب العصر على أن الدولة العثمانية ما زالت عظمى، ويعمل ليل نهار على حشد جميع الإمكانيات التي يملكها للحيلولة دون انقسام الدولة وتمزقها، ويستعد ليوم الحساب القادم الذي لا مفر منه... نعم، يستعد لذلك اليوم الذي ستتمّ فيه تصفية الحسابات القديمة المؤجلة...

والأعمال الدبلوماسية المدهشة والمناورات السياسية التي تحار لها الألباب، والتي قام بها عبد الحميد طيلة ثلاثين عاماً ونيّفٍ في هذه الفترة الحرجة من عمر الدولة العثمانية، واستطاع من خلالها أن يعوم بالجسد الأم لهذه الدولة فوق تيار الحوادث المخيفة الأكيدة، ويؤمّن وصوله إلى الربع الأول من القرن العشرين... كل ذلك يشكل نقطةً تتلاقى حولها آراء الأصدقاء والأعداء. وستدركون أهمية هذه الأعمال في تأخير سقوط الدولة العثمانية، وإنقاذها من الموت المحقق أربعين عاماً (من 1878 وحتى 1818) عندما تتابعون سير الأحداث.

السنوات المخيفة

كانت السنوات (1890-1905) سنوات ابتلاع الأسماك الصغيرة بلا شفقةٍ

من قبل الأسماك الكبيرة وزوالها عن الخريطة. فبعد احتلالها الهند ومصر؛ توجهت بريطانيا نحو أفريقيا، وضمّت إليها شرق السودان وكينيا وروديسيا. وفي هذه الأثناء دخلت هولندا في التنافس الإمبريالي، وحشدت قواتها من سكانها- غالبيتهم من المزارعين الرّحّل من قبائل البوير- محاولةً السيطرة على الأراضي الممتدة من مزارع بورنو حتى مصر، وقد تغلغلت إلى الداخل تحت ضغط القوات البريطانية لتشكّل جمهوريتا البرتقال- أورانج- وترانسڤال، ودخلتا في لعبة التنافس مع الإنكليز في الشرق الأفريقي.

ولم تتخلف فرنسا أيضاً عن الدخول في صراع التقاسم الإمبريالي، فتحركت قواتها لتضم إلى قبضتها تونس والجزائر اللتين كانتا تحت الحماية العثمانية لسنواتٍ طويلةٍ، واقتطعتهما من الدولة العثمانية. وكانت تأتي بعدها سلطنة فاس، إلا أن فاس كانت محطّ أنظار الألمان أيضاً، وهكذا دخلت أفريقيا الغربية في الصراع الفرنسي الألماني عليها. وفي هذه الأثناء استطاعت فرنسا احتلال الصحراء الكبرى، والسنغال، وتشاد، وأفريقيا الوسطى، والسودان الغربية.

ومن جهة أخرى رضيت إسبانيا باحتلالها قطعة أرضٍ من غربي فاس، والساحل الموريتاني على المحيط الأطلسي. وتقدمت البرتغال لتضم إلى جغرافيتها مساحات تتجاوز العشرين إلى الثلاثين ضعفاً من مساحتها، فاحتلت أنغولا والموزنبيق، حتى الصين لم تنجُ من صراع التقاسم، فاقتسمت الدول الأوروبية ميناءها الأكبر شنغهاي. وكذلك أدهش الجميع انتصار اليابان على روسيا عام 1905؛ من بين القوتين الشرقيتين اللتين نهضتا لهذا التقاسم أيضاً، بينما كان لتمكّن الدولة العثمانية من اجتياز هذه المرحلة والخروج بأقل الخسائر في الأراضي، دهشتها الخاصة [104] .

بينما كانت التنجانيق في جنوب غرب أفريقيا من نصيب ألمانيا التي خرجت في صيد الأراضي متأخرةً. وسيطرت الإمبراطورية المجرية- النمساوية على البوسنة والهرسك، وإذا أخذنا في الاعتبار ضم روسيا إلى إمارات حيوة وبخارى وسيبيريا الكبرى إلى أراضيها، فعندها سندرك حجم الجهود الجبارة التي بذلها السلطان عبد الحميد وأنقذنا بها من المهالك الكبرى المحدقة.

لقد كانت سنوات السلطان عبد الحميد المطلسمة المليئة بالألغاز تشبه الوقت المستقطع في مباراةٍ خاسرةٍ، تترقبون دقائقها، لعل هدفاً يسجله فريقكم، وتتمنون أن تطول تلك الدقائق ولا تنتهي، وآمال كثيرة تتوقد وأخرى تخبو، ففي كل لحظةٍ يمكن أن يتغير كل شيء... والأوقات المستقطعة في التاريخ تحمل الكثير [105] .

ربما كان يمكن لعمر الدولة العثمانية أن يمتد إلى أجزاء أخرى من التاريخ؛ لو أن المجموعة التي عزلت عبد الحميد الثاني، وصعدت إلى الحكم؛ لم تهجر سياسته الخارجية التي بناها وحده متلمّساً الموقف الدولي، وهي سهلة في صيغتها، صعبة في تنفيذها؛ حيث تعتمد على موازناتٍ وتوازنٍ دقيقٍ، ... نعم، لو أنها تريّثت وأعادت النظر فيها، واستمرت على سياسته الخارجية بعده عن وعيٍ وتدبّرٍ... ولكن... وماذا تنفع لو؟

سنتناول في البداية، سياسة عبد الحميد ورقصه مع الذئاب في الحبشة.

أصابع عبد الحميد في الحبشة

كانت إيطاليا من القوى الأوروبية التي قدمت متأخّرةً من أجل التقاسم الاستعماري، فاتجهت أنظارها إلى المناطق القريبة منها، آملةً أن تجد مناطق لم يطلها التقاسم بعد. فتطلعت إلى البحر الأحمر ووضعت أرتيريا نصب عينيها، وصوّبت نظرها نحو الجنوب فأثارت الصومال شهيّتها، وأخيراً، توقفت عند طرابلس الغرب وبنغازي - ليبيا اليوم - من شواطئ أفريقيا الشمالية، ورأت أنها سهلة المنال، واستغلت انشغال فرنسا بفاس، وتحركت مسرعةً لالتقام تلك اللقمة الدسمة عام 1901 وربما 1902.

لم تكن يد الرجل المقيم في قصر يلدز تجمع الإجاص، فجواسيسه المبثوثون في أوروبا يخبرونه بكل المستجدات. ولا بد لعبد الحميد من فعل شيءٍ ما من أجل المحافظة على أطراف الحدود العثمانية في أفريقيا، ويدرك حاجته الماسة إلى حليفٍ يعينه في هذا الأمر. إنكلترا بخبث طويّتها، وفرنسا بأطماعها في ليبيا بعد تمكنها واستقرارها في فاس؛ لا يمكن الوثوق بهما. والتحالف مع الروس يكون كمن يسلّم النعجة إلى الذئب، فما العمل؟!

يكمن الحل هذه المرة في الداخل، فلا بد من تحريك السنوسيين المقيمين في واحة الكفرة الخضراء وسط الصحراء الممتدة إلى جنوب بنغازي، ولا بد من تدريبهم وتنظيمهم، وعندها يمكن أن تكون طرابلس الغرب عصيةً على السقوط في أيدي الأعداء. ومن أجل ذلك يكلف السلطان عبد الحميد عظم زاده صادق مؤيد باشا، وكان يتقن العربية والفرنسية والألمانية، ويرسله إلى السنوسيين للاستكشاف، وإجراء ما يتطلبه الدفاع من تنظيمٍ وتدريبٍ واستعدادٍ.

سياسة السلطان عبد الحميد في القرن العشرين

بنى السلطان عبد الحميد سياسته الخارجية في وقتٍ كانت فيه بريطانيا كما هي أميركا اليوم؛ تحتل مكانة القوة العظمى إلى حدٍّ بعيدٍ، وفرنسا والنمسا وألمانيا والمجر وروسيا كانت دولاً أوروبية صاعدة في الموقف الدولي.

وفي بداية القرن العشرين اتجهت بريطانيا إلى نظام المعاهدات الدولية مخلّفةً وراءها تفرّدها الدولي، وتناغمت معها السياسة الخارجية لعبد الحميد. وهذا لا يعني التبعية التي تسلب استقلاليتها، بل كانت الدلائل قائمة على أن عبد الحميد يبحث في الشروط الدولية المتغيرة عن موطئ قدمٍ، ويستعد لبناء سياسةٍ خارجيةٍ جديدةٍ معقّدةٍ تؤمّن دخول قوتين عظميين بعيدتين هما الولايات المتحدة الأميركية واليابان، إلى مجال الصراع الدولي .

لم يعد صادق مؤيد باشا إلا بعد أن أعاد ربط السنوسيين بالدولة، مؤدّين قسم الولاء لها. وبهذه الخطوة الاستباقية المبكرة للسلطان عبد الحميد، بقيت هذه البقعة من أفريقيا صادقةً في عهدها وولائها، واقتلعت جذور الطليان المستعمرين منها حتى عام 1919. ولجوء الشيخ أحمد مهدي السنوسي إلى تركيا في سنوات الاستقلال لطلب الدعم، لم يكن إلا نتيجةً لتلك العلاقة التي قامت بين عبد الحميد وبين عمه الشيخ مهدي السنوسي.

وكانت الحبشة من الدول القليلة التي استطاعت أن تحافظ على استقلالها في أفريقيا في تلك السنوات، وكان ملكها منلك يعلن نفسه حفيداً لسيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام، وكان خُمسا أهلها من المسلمين ومَن تبقّى منهم من النصارى. وعلى الرغم من لون بشرتهم الداكنة، فإن أهل الحبشة يتحدّرون من أصولٍ سامية كالعرب واليهود، ولم يكونوا من الأصول الأفريقية، ولغتهم كذلك سامية كالعربية والعبرانية.

لماذا كان بيامي صفا يعادي عبد الحميد؟!

لم يتوقف بيامي صفا عن عداوته للسلطان عبد الحميد الذي اعتبره مسؤولاً عن وفاة والده المبكرة، ولم يصفح عنه حتى وفاته. ولذلك عندما بدأت عائشة عثمان أوغلو بنت السلطان عبد الحميد بنشر مذكراتها في جريدة الحياة بعد عودتها إلى الوطن عام 1950 - والتي تحولت في ما بعد إلى كتابٍ- ظهرت مقالتان في جريدة ملّيّت لبيامي صفا في الزاوية التي يكتب فيها بعنوان خطاب مفتوح للسيدة عائشة يطلب منها، وهو يصر على مخاطبتها بالسيدة عائشة؛ أن تصمت، وأن لا تنشر شيئاً من مذكراتها قبل أن يتم تدقيقها من قبل مؤسسة التاريخ التركي . وقد سجل م. رائف أوغان في كتابه السلطان عبد الحميد الثاني ومعارضوه الحاليون ، إستنبول 1956 ؛ اعتراضه، وردّه على كتابات بيامي صفا وتصرفه .

فما هي الحادثة التي أنبتت هذه العداوة لعبد الحميد في نفس بيامي صفا؛ على الرغم من وطنيته، وسلوكه المحافظ؟ !

يعرف والده إسماعيل صفا شاعراً فطرةً، وكان معارضاً لعبد الحميد إلى الدرجة التي تدفعه للتخطيط من أجل الانقلاب عليه، وإسقاطه عن الحكم- للتفاصيل يمكنكم الاطلاع على بحث بشير أيواز أوغلو باسم بيامي ، إستنبول 1998 ، منشورات أوتوكان، الجزء الأول- ويشارك إسماعيل صفا في الحادثة التي تجعلنا نسأل عجباً: إلى أي مدىً يمكن لمعارضةٍ أن تودي بصاحبها؟ !

ففي ذلك الوقت كان همُّ المعارضة الحصولَ على مساندة الدولة الإنكليزية التي اعتبروها أملهم الوحيد. ومن أجل الحصول على هذا الدعم؛ تقدموا بخطاب مشترك للسفير الإنكليزي يعلنون له فيه مساندتهم في حربهم ضد البوير- وهم في غالبيتهم مزارعون بيض رحّل، قدموا من شمال أوروبا، وأقاموا مزارعهم في أفريقيا بعد احتلالها، وليسوا من سكان أفريقيا السود الذين يقاتلون من أجل الاستقلال- واستعدادهم للاشتراك في الحرب متطوعين [106] . وكانت سياسة عبد الحميد مع الإنكليز معروفةً، ولم تكن نظرته إلى جلادستون على أنه رجل يجدد الحروب الصليبية؛ نابعةً من الفراغ. فإنكلترا التي سعت إلى وضع العالم تحت سيادتها تتوسل بكل الحيل لوضع العثمانيين الذين يسيطرون على الأراضي المقدسة تحت سلطتها أيضاً .

ألقي القبض على هذه المجموعة التي اتصلت بالسفارة الإنكليزية، ونُفِي كل واحدٍ منهم إلى مكان، ولم يكن هذا النفي بلا بدلٍ يتركون فيه للجوع، فإسماعيل صفا أرسل منفياً إلى سيواس براتب قدره 2500 قرش جزاءً لعمالته للإنكليز. إذاً، فلماذا يغضب بيامي صفا على عبد الحميد؟!... [107] . ألا يكون مثل هذا التصرف سبباً لتحطيم قدرتنا على الإقناع في أمورنا الفكرية الأخرى؟!... كان على بيامي صفا أن يقوم بعكس ما تصرف به، خدمةً لنفسه أولاً، ولميوله اليمينية الوطنية- كما يقال- ثانياً، وبدلاً من اتهام السلطان عبد الحميد في قرارٍ اتخذه ضد عائلته بعيداً عن البحث في عدالته؛ كان عليه أن يكون موضوعياً ويحاول فهم الموقف، ويتحرى الأسباب، ويمكن عندها أن يؤمّن لنفسه نوعاً من المصداقية... لكنه لم يفعل. ومن العجب أنه على الرغم من كل هذه الأعوام الطويلة التي هدرها في غضبه على عبد الحميد لغدره بوالده؛ لم يبنِ على والده قبراً ...

فكر عبد الحميد ملياً في الحبشة وخصائصها وكيفية الاستفادة منها في مواجهة الطليان، وقرر في النهاية إرسال هيئة عسكرية إلى الملك. وكانت الهيئة مكوّنةً من ثلاثة أشخاصٍ، يرأسهم، مرةً أخرى، صادق مؤيد باشا، وبدأت رحلتهم نحو العاصمة أديس أبابا حاملين معهم الهدايا القيمة.

كانت زيارةً دبلوماسيةً صرفةً تمّ كتمان غرضها الأساسي. وتوجهت الهيئة إلى جيبوتي، ثم انتقلت إلى العاصمة، واستقبلهم الملك استقبالاً رسمياً باهراً، وقدم صادق باشا إلى الملك خطاب السلطان عبد الحميد، يقول فيه: "أنتم أحفاد سيدنا سليمان، وحماة مسلمي الحبشة"، ثم يقدم له الهدايا القيمة، والسيوف بقبضاتها وأغمادها الذهبية والفضية والألماسية، وقد تأثر الملك كثيراً من توجه السلطان إليه في الخطاب برتبة المشير؛ أي المارشال، علاوة على الهدايا القيمة التي طالت رؤساء القبائل الحبشية، فاستطاع بها السلطان أن يغزو قلوبهم، ويتمكن منها.

انتهت مراسم الطعام والشراب؛ ليأتي دور الأمر الخاص، وبيان الخطاب السري. كانت الرسالة تحمل في طيّاتها أن إيطاليا تستعد في سرية تامة من أجل احتلال الحبشة، ويبين للملك أنها تستهدف أولاً أريتريا والصومال. وكان أهل الحبشة قبل بضع سنين - سبع إلى ثماني سنوات - قد لقنوا إيطاليا في أثناء محاولتهم احتلال بلادهم درساً لا زالت أحداثها نديةً في الذاكرة، فجاءت رسالة السلطان رشًّا للملح على الجروح الحديثة، وأحيت روح المقاومة عندهم ضد الطليان. ولم يتوقف الأمر عند الرسائل والهدايا، بل أرسلت النقود لشراء الأسلحة، ووصلت المساعدات إلى هدفها المنشود، فامتلكت الحبشة السلاح والقوة، وما من أحدٍ يستطيع السيطرة عليهم بعد الآن، أو يحول بينهم وبين المقاومة، وليبحث الطليان بعد ذلك كما يحلو لهم عمن أيقظهم...

كانت الفريسة تتجه ببطء إلى الشباك التي نسجها عبد الحميد، فقد سارعت إيطاليا إلى سحب جنودها من طرابلس الغرب وبنغازي؛ لتحشدهم على حدود الحبشة التي انتقلت إلى طور الحركة، وعلى الرغم من أنه لم تنشب حرب بينهما، فإن السلطان عبد الحميد نال ما يريده، وتنفس الصعداء إلى حين، فقد تخلص من الطليان في ليبيا وبنغازي، واستطاع أن يحمي الحبشة. حتى إذا تم عزله عن العرش، وخلافاً لسياسته في إقامة المخافر الحميدية على السواحل وتحويله طرابلس الغرب إلى مستودع للسلاح؛ جمع الاتحاديون السلاح ونقلوها إلى المركز، فضعفت بذلك قدرتهم على المقاومة، وصار الطريق ممهداً لنزول القوات الإيطالية إلى البر الليبي، وصمدت المناطق الداخلية بفضل مقاومة السنوسيين حتى عام 1919. واستمرت المقاومة الليبية بقيادة الشيخ زادة عثمان فؤاد أفندي على الرغم من هدنة موندروس، واستطاعت البذور التي غرسها عبد الحميد مقاومة الاحتلال فترةً أخرى...

نعم، لقد كان هذا الجانب الاستراتيجي والدهاء السياسي لعبد الحميد يظهران بوضوحٍ؛ كيف ينبغي أن يكون التخطيط المدروس للدفاع عن الإمبراطورية في المستقبل عندما تتهافت عليها القوى من كل صوبٍ؟ فالجيش المركزي لن يكون قادراً على الانتشار في كل مكان، وتنظيم القوات المحلية ومشاركتها في الدفاع يمكِّنانه من إطالة عمر المقاومة. ومن هنا نستطيع أن نتفهم سبب إصراره على بناء إمبراطورية جديدة أصغر، تتكون طلائعها من العناصر الإسلامية من أتراكٍ وعربٍ وأكرادٍ وأرناؤوط وجركس؛ وهو يرى الإمبراطورية الكبيرة تنفصل عنها العناصر غير المسلمة من حينٍ إلى آخر. ولدينا الأدلة على سعيه لتحويل ليبيا إلى قاعدة تتحكم بأفريقيا، والأرناؤوط إلى قاعدة وملاذٍ لمسلمي البلقان [108] .

وما من شكٍّ في عظمة هذه الخطط، ولكن لكل خطةٍ أجل، فلم تكد تمضي سنوات ثلاث حتى سقطت ليبيا، ولم تكد تمضي سنوات ست حتى كنا ننفض أيدينا من الأرناؤوط والبلاد العربية.

تنظيم العالم الإسلامي

أما عن أوضاع المسلمين تحت الاحتلال الروسي؛ فلم يكن للسلطان - وهو خليفة المسلمين - أن يتركهم وشأنهم، ويسلمهم لمصيرهم من دون أن يحرك ساكناً، فقد أرسل إليهم الشيخ البخاري سليم أفندي للدعوة بينهم، ونشر أفكار الوحدة الإسلامية بين الشيوخ والمريدين وسائر المسلمين، وأن الخليفة معهم.

وكان يختار خيرة العلماء ويرسلهم إلى مكة في مواسم الحج؛ لنشر الدعوة بين الحجاج القادمين من كل أنحاء الدنيا، وتحويل أفكار الوحدة الإسلامية وأهمية الخلافة وما يتعلق بها، لتكون حديث المجالس. وكان يقوم بتنظيم هذه الأعمال في قصره بالتعاون مع الشيخ أبي الهدى والشيخ ظافر أفندي. وقد استطاع الشيخ ظافر الشاذلي في تونس تنظيم المقاومة الداخلية ضد فرنسا.

وكذلك في بورنو جنوب الصحراء الكبرى من أفريقيا، لم يقف رجال عبد الحميد مكتوفي الأيدي، بل قدموا الهدايا والأوسمة والنياشين التي أرسلها السلطان عبد الحميد عام 1885، فساهمت هذه اللفتة في دفء العلاقات بين الطرفين، ومنحت شعوراً بقوة الخلافة العثمانية، وبدأت فكرة الوحدة الإسلامية بالتنامي هناك أيضاً.

وينبغي لي ألاّ أغفل الحديث عن زنجبار؛ يرى جزمي أرسلان أن عبد الحميد الثاني عندما فقد قدراً كبيراً من الأراضي وسكانها المسلمين في حرب

93، التفت إلى بناء العلاقات مع الدول الإسلامية كسلطنة زنجبار. فمنذ عام 1878 كلف السلطان السيد أمين أفندي بمهمةٍ رسمية إلى سلطان زنجبار، فقدم له خطاباً باللغة العربية، وقلده وساماً سلطانياً، ثم بين له أهداف السلطان عبد الحميد في خدمة الجامعة الإسلامية [109] . ثم تبعه شكري بيك وآخرون من مبعوثي عبد الحميد. فكانت لهذه الزيارات أثرها الكبير في توطيد العلاقات بين العثمانيين وسلطنة زنجبار من جهة، واتساع مناطق نفوذ الخليفة من جهة أخرى، وعلى الرغم من انتشار المذهب الأباضي هناك كان الدعاء يرفع بالدعاء للخليفة العثماني السني في خطب الجمعة، وتأتي في هذا السياق زيارة السلطان سيد علي بن حميد إلى إستنبول، ولقاؤه السلطان عبد الحميد عام 1907 [110] .

ومن نافلة القول إن السلطان عبد الحميد كان يستغل كل فرصة للتأثير في مسلمي الهند، وبينما كانت خميرة الوحدة الإسلامية التي أضافها عبد الحميد في الهند تفعل فعلتها ممثلة بحركة الخلافة، كانت تعزف لحنها في تقييد قوة إنكلترا باعتبارها الخصم الأخطر، وقد بين لنا بنفسه في وثيقة من أرشيف رئاسة الوزراء حقيقة رقصه مع الذئب الكبير إنكلترا:

إن إنكلترا هي القوة الأوروبية الأخطر، ولن يتردد الإنكليز أبداً في تمزيق الدولة العثمانية عندما تقتضيه مصالحهم، وهم يخططون لنقل الخلافة إلى جدة أو مصر لتسخيرها في خدمة مصالحهم في العالم الإسلامي **[111]** .

إنكلترا: العدو الأول

كانت لشكوك عبد الحميد وقلقه من الإنكليز؛ أسبابها الحقيقية، فإنكلترا التي يواجهها اليوم يقودها عدو الأتراك جلادستون. فقد رحلت إنكلترا الصديقة المتحالفة معه في سنوات حرب القرم، وحل محلها خصم متوحش وضع يده على قبرص أولاً، ثم احتل مصر. وكان من الطبيعي أن تتغير قراءة عبد الحميد لسياسة الإنكليز. ففي لعبةٍ كهذه، كان ينبغي له أن يواجه الحملة بالحملة، أو يلجأ إلى تقنيات التنويم عندما يعجز، أو يعمل على تقديم التنازلات الصغيرة بدلاً من التنازلات الكبيرة، وهذا ما قام به عبد الحميد فوافق على حكم الإنكليز في قبرص مؤقتاً، وقلبه ينزف دماً، في سبيل حماية إستنبول. كانت الاتفاقية مؤقتةً، ولكن قبرص لم تكن كافية لتملأ عيون الإنكليز، وها هم الآن منشغلون بالسيطرة على مصر...

دخل إسماعيل باشا خديوي مصر في دوامة الديون الجنونية بعدما حصل على امتياز من السلطان عبد العزيز يخوله الحصول على القروض الخارجية، وغرق الخديوي في بحر من الديون. وبلغ من عجزه عن السداد،

أن أعلن عن بيع حصصه من قناة السويس، فجاءت فرنسا متأخرةً جداً بعد سداد المبالغ كلها من قبل الإنكليز. غير أن المبالغ لم تكن كافية لإشباع نهم إسماعيل باشا، فالبذخ والإسراف في الملذات كانا يجريان على أشدهما في سراي القاهرة، ولم تعرف الأموال طريقها إلى الوفاء بالديون، ولما كانت صاحبة الامتياز مصر تابعةً للدولة العثمانية، كانت مسؤولة في النهاية عن ديونها.

كانت مصر تتخبط، وقد بدأت أصوات الاحتجاج والعصيان ترتفع، وأراد الضباط الدفاع عن حقوقهم، واختاروا السيد عرابي قائداً لهم، فتدخل عبد الحميد لوضع حدٍّ لهذه الفوضى، وعزل إسماعيل، وعين ابنه الأكبر توفيق باشا. لكن الأحداث لم تهدأ، ووصل الأمر بعبد الحميد إلى حدّ التفكير في إلغاء الخديوية. وعلى الرغم من مساندته السيد عرابي في بادئ الأمر؛ إلاّ أنه لم تكن تروق له ميوله إلى القوميّة العربية.

أقال عرابي جميع الموظفين الأوروبيين في وقتٍ كانت فيه فرنسا وإنكلترا تبحثان عن ذريعة للتدخل، ولكنهما قررتا في تكتيك جديد عدم التدخل المباشر، واللجوء إلى الدولة العثمانية لترسل قواتها إلى مصر لحماية مصالحهما.

كانت الدولة العثمانية على وشك الإقالة والتقاعد وإنهاء دورها من الحياة. ولو كان عبد الحميد حاكماً غرّاً من النوع الذي يفقد مزرعته في بيته وهو يركض خلف جزرةٍ في السوق؛ لسارع إلى إرسال جنوده إلى مصر مكتسباً عداوة أهلها، ومسرعاً نحو وداعها المبكر الأخير. لكنه كان يرى الذئاب التي تحيط به من كل جانبٍ، وكان على قدرٍ كبير من الخبرة التي تجعله يفكر مرتين قبل كل خطوةٍ نحو الجزرة الملقاة أمامه، واستطاع بها أن يتجنب هذا الفخ. ولو أنه تقدم للقضاء على الحركة الوطنية في مصر عن طريق الجنود الأتراك خدمةً لمصالح الدول الأوروبية الإمبريالية، لكان ذلك كفيلاً بزعزعة مكانة الخلافة في العالم الإسلامي [112] .

قام السلطان عبد الحميد بدعوة عرابي إلى السكينة والهدوء، غير أنه لم يستجب؛ فكان ذلك سبباً للجفاء بينهما. فعرابي كان عاجزاً عن إدراك الموقف الدقيق الذي تعيش فيه مصر، وأنه في وضعٍ لا ينفع معه استعراض القوة واللجوء إليها. وبلغت مصر مرحلة الغليان بوصول عرابي إلى رئاسة الوزارة، وانطلقت أعمال النهب في الإسكندرية، فقام أهلها بنهب أموال التجار الأوروبيين وقتلهم، وكان ذلك كمن وضع الزبدة في خبز الإنكليز، فانطلقت مدافع الأسطول الإنكليزي تقصف من مينائها لمدة ست

ساعات ونصف، ثم زحفت قواتهم تحتل مصر، ودخلت القاهرة في 12 أيلول عام 1882 بعد 365 عاماً من دخول السلطان ياوز سليم.

رفض السلطان عبد الحميد الاحتلال، وأبدى احتجاجه، ولكن لم يكن يملك القدرة على طرد الإنكليز الذين كانوا كعادتهم في كل احتلال يعلنون عن دخولهم المؤقت إلى مصر. وبعمله هذا قدم عرابي باشا الوطني أكبر إساءةٍ لوطنه وأكبر خدمةٍ للإنكليز...

لا تحسبوا أن الدولة العثمانية استسلمت على الفور، فهذا الاحتلال لم يكن يستند إلى أي أساسٍ قانونيٍّ، بل كان احتلالاً مباشراً، وكان من الدولة العثمانية رضوخاً للأمر الواقع. وعلى الرغم من بقاء مصر تابعة للدولة العثمانية: تؤدي إليها الضرائب، وتعيّن إستنبول حكامها؛ إلا أن السيطرة الحقيقية كانت في يد الإنكليز.

إنها قضية شرفٍ لا مسألة حدود

لم تكتفِ إنكلترا باحتلال مصر، واستمرت بافتعال المشاكل، وهي تسعى إلى توسيع رقعتها ونفوذها. وها هو عام 1906 تنفجر فيه مشكلة العقبة لتشكّل صفحةً جديدةً في النزاع الكبير بين الدولة العثمانية والإنكليز.

كان عبد الحميد يشعر بالألم الشديد وهو يرى استقرار مصر والسودان بيد الإنكليز الذين أعلنهم كأشد الأعداء خطراً، وكان قلقاً من توسع رقعة الاحتلال، فقام ببناء حاميةٍ- أو قاعدةٍ- عسكريةٍ في بئر السبع في جنوب فلسطين- المحتلة اليوم- فقامت فيها قلعة تنتشر حولها القصبة في موقعٍ استراتيجيٍّ يسيطر على طريق الحجاز ومصر وشبه الجزيرة العربية. كما أنه تمكّن بصعوبةٍ من قمع الثورة التي أشعلها الإنكليز في اليمن عام 1905، وحال دون وصول الإنكليز إلى أهدافهم فيها، فاتجهت أنظارهم إلى شبه الجزيرة العربية، وأرسلوا قواتهم إلى العقبة، وهي بوابة شبه الجزيرة العربية، وتمكن عبد الحميد مرةً أخرى من القيام بهجوم مضادٍّ في الوقت المناسب، والحيلولة دون احتلال العقبة.

فقد نجح الأميرالاي رشدي بيك- والد فاتن رشدي زورو، وزيرة الخارجية السابقة- وهو من المرافقين العسكر- ياور- الذين يثق بهم ويعتمد عليهم عبد الحميد؛ نجح في الوصول إلى العقبة قبل الإنكليز بمدفعٍ واحدٍ وطابورين من العسكر، وسارع بالاستقرار في القلعة لينتقل إلى الشق الثاني من الأمر، وهو السيطرة على قصبة طابا بما يقتضيه الهجوم المضاد. كان لهذه الحركة المفاجئة وقع الصاعقة على الإنكليز، وعلى الرغم من محاولات المرتزقة الذين استأجروهم من البدو للهجوم على العقبة؛ فإنهم

فشلوا في احتلالها.

رأى الإنكليز جدية الموقف، فبدأت جنودهم تتقاطر إلى مصر، ومنحوا الباب العالي مهلة عشرة أيام لإخلاء طابا والعقبة، وهددوا بالحرب ما لم تنفذ مطالبهم. استدعى السلطان عبد الحميد السفير الإنكليزي في إستنبول، وسأله: " **هل عليّ أن أستأذن الإنكليز لدخول قلعةٍ تقوم على أرضنا؟!"** ، غير أن الجواب الوحيد الذي تلقاه هو "الحرب!".

وبدأت سفن من الأسطول الأطلسي تنضم إلى أسطول البحر المتوسط، وطلب السلطان عبد الحميد اجتماع الضباط العثمانيين والمصريين لتخطيط الحدود، وأصرّ على رفض التفاوض مع الإنكليز في هذه المسألة، ونجح بذلك، وأعيدت طابا إلى المصريين، وبقيت العقبة مع العثمانيين [113] .

لقد كانت مشكلة العقبة مسألة حدود عند الإنكليز، ولكنها كانت قضية شرفٍ عند العثمانيين.

صدرت الإرادتان السنيتان المتعلقتان بنفط بغداد في 21 أيلول 1898، ونفط الموصل في 6 نيسان 1899، تتحول الملكية بموجبهما إلى الخزينة الخاصة لقطع الطريق على الشركات الخاصة. ولكنّ إنكلترا أيضاً هي التي تضع القوانين... فبعد هدنة موندروس تعرضت كركوك والموصل للاحتلال من قبل الشركات الإنكليزية على رأسها شركة بريتش بتروليم؛ على الرغم من كونهما من الأملاك الخاصة. وقد رفع أحفاد عبد الحميد دعاوى دولية ما زالت مستمرة ضد إنكلترا. ولكن، إن أعطوا، أخذوا كما يقول ألبير أورتايلي. أي: إذا تفضل الإنكليز بردّ ما أخذوه، وذلك غير ممكن، فسيأخذ الأحفاد حقوقهم [114] .

هل كان عبد الحميد مستبداً؟!

إن دولةً بنيت على أسسٍ مركزيةٍ بشكلٍ كاملٍ؛ ليس من السهل المحافظة عليها في عالمٍ كهذا، في أيامها الأخيرة، كما يبدو من الخارج [115] .
السلطان عبد الحميد

إذا استثنينا الفترة الأولى لتنظيمات عبد المجيد، والفترة الممتدة من المشروطية عام 1908 إلى السيطرة على الباب العالي عام 1913، فإن نظام الحكم حتى عام 1946 كان يقوم على قيادة الرجل الواحد كالسلطان عبد الحميد، وأنور باشا، ومصطفى كمال أتاتورك، وعصمت إنونو، والأمير بسمارك، والإمبراطور ويلهلم في ألمانيا.

لم تكن البنية السياسية ديمقراطيةً في أوروبا في تلك الفترة، بل كانت ملكيّاتٍ وحكوماتٍ ذات قياداتٍ فرديةً، ولم يكن حكم عبد الحميد متفرّداً بذلك في عصره، بل كانت هذه الفردية في القيادة تلازم زملاءه في المهنة الذين ينتشرون في رقعةٍ جغرافيةٍ واسعةٍ تمتد من البرازيل إلى روسيا، ومن البلجيك إلى اليابان...

فعلى الرغم من دعوى الديمقراطية في الغرب، لم تكن هناك ديمقراطيات [116] . وحين ننظر إلى إدارة عبد الحميد من يومنا هذا، فلربما نجد فيه حاكماً متسلطاً مستبداً؛ أوتوقراطياً كما يحلو لفرنسوا جورجيون أن يسميه؛ لأننا نعيش في عالم تسوده التعددية السياسية، وتكثر فيه الأحزاب، وتؤخذ السلطة بالانتخابات وصناديق الاختراع، وتمارس المجتمعات المدنية دورها، والرقابة القضائية...، في حين نجد الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر بين فكي كماشة دبلوماسية وسياسية، ومحاصرةً من روسيا إلى إنكلترا، ومن إيطاليا إلى ألمانيا، تحاول كل منها التهام قطعة جديدة من أراضيها، أو تضغط عليها من أجل انتزاع الامتيازات.

في فترةٍ عصيبة كهذه، لو حاولنا التفكير بطريقة ساذجة وقلنا: "ما فات مات، وما بقي فهو لنا"، ترى ما الذي كان سيبقى لنا من هذه الإمبراطورية؟ وهل كان من الممكن أن يبقى لنا هذا الوجود السياسي الذي يسمى تركيا؟!

وحين نعطي الأرمن شرق الأناضول، والروس البلقان والقفقاس، والإنكليز والفرنسيين البقاع البترولية، فهل يبقى لنا سوى بقاع صغيرة من الأرض حول أنقرة، كما حدث عام 1919؟! فمكة والمدينة وتونس والجزائر أجزاء من الإمبراطورية العثمانية مثل روم ألي...

أليس مفهوم الدار في الإسلام أن كل أرضٍ دخلت دار الإسلام تبقى أرضاً إسلاميةً ولو خرجت من سيادتنا؟

فمن الطبيعي أن من يقود سياسةً لحماية هذه الأراضي ويبحث عن كل فرصةٍ يستعيد فيها تلك الأراضي - في مثل هذه الظروف - سيُواجَه من هنا وهناك بأصواتٍ مخبّلةٍ معتوهةٍ في الداخل تعيق سياسته، ويكون وجهاً لوجهٍ لردعها وقمعها.

مشكلة الدول الكبرى: الحرية أم الأمن؟

إن للدول، كما للبشر، ردود أفعالها، ويمكن أن نرى ردود الأفعال المتماثلة في هذه الدولة أو تلك عندما تتعرض لظروف متشابهة. فدولة ليبرالية تدّعي أنها قلعة الحرية مثل أميركا، تقوم بممارساتها التي تدل على عدم استعدادها للانفتاح والحرية اللذين كانا قبل أحداث 11 أيلول، فتُخضِع الجميع، ومن بينهم نوّابنا، للتفتيش الدقيق في المطارات، مراتٍ ومراتٍ، تفتيشاً يصل إلى أعقاب أحذيتهم، وتضع المداخل والمخارج كلها تحت السيطرة الأمنية المطلقة. وفي كلّ مرحلةٍ تطفو فيها قضية الأمن إلى السطح، تتجه الدول نحو الحد من الحريات سواء أكان ذلك صحيحاً أم خاطئاً... ويندرج هذا التوجه بكل ما يحمله من حجز حريات الأفراد في إطار التدابير الوقائية الضرورية لبقاء الدولة.

ألم يصدر قانون تقرير - سكون عام 1925 في مثل هذا الجو المتأزم؟ وتم به إسكات الجرائد والمجلات والمعارضة بأقسى طريقة؟ ألا يوجد بيننا الآن من يعتقد أن تلك التدابير التي اتخذتها الدولة في ذلك الوقت الذي يموج فيه الداخل بالثورات؛ كانت طبيعية؟! علاوة على ذلك؛ فإن الدولة التي تحوم حولها الدول العظمى كالرخام تتربص بصيدها لن يتجلى ردّ فعلها في ممارسة المزيد من ترف الديمقراطية.

ربما كان لهذا السلوك جوانب كثيرة تستحق التفكير، إلا أننا لن نجد العقل الذي يميل إلى الخيار الثاني عندما يكون في دوامة الأمان أولاً أم الحرية. وإذا وجد هذا الخيار؛ فإنه لن يكون نتيجة آلياتٍ داخليةٍ، بل بفعل ضغوط وتحركات خارجية... كما حدث في ألمانيا واليابان - وهما من الأمثلة النادرة - بعد وقوعهما تحت الاحتلال، وإجبارهما على التطور نحو الديمقراطية [117] .

وعليه، فإنني على يقين بأن محاكمة عبد الحميد من خلال النظرة المحدودة، والحكم عليه بأنه كان حاكماً مستبداً ظالماً وطاغيةً؛ سيكون حكماً خاطئاً. ففي ظل تلك الشروط الصعبة يتولد في العقول السليمة أن الخيار

الوحيد لبقاء الدولة يكمن في القيادة الصارمة.

وقد أثبتت الأيام خلال التجربة المفجعة التي عشناها في السنوات التسع التي تلت خلعه عن العرش؛ كم كان عبد الحميد مصيباً، وكم هي المصائب التي حاول منعها وتأخيرها...

الخاقان المعظم أم السلطان الأحمر؟!

كان شريفاً، وقوراً، مهاباً، وكان بلا شكٍّ إنساناً رحيماً [118] .
فتحي أوقيار

كان السلطان عبد الحميد مقبولاً بين الناس، وكان ذلك أمراً شائعاً كما سبق بيانه، في الوقت الذي نجده حاكماً غير مفهوم؛ أو غير مفهوم بالشكل الكافي في عالم المثقفين... ترى ما السبب؟!

أيمكن أن يكون السبب في ذلك؛ أن رجال الدولة كانوا بحكم موقعهم، يرون مصالح الدولة القريبة والبعيدة، ويدركون الأخطار المحدقة بالدولة قبل المثقفين، ويقدرونها بشكل أفضل منهم، ثم يرون أن أيديهم مكبلة، فيحسون بالحاجة إلى اتخاذ التدابير الوقائية السريعة؟ [119] .

وما الذي وجده عامة الناس فيه حتى أحبوه هذا الحب؟! أهو شيء من أنفسهم؟ أم أحلامهم؟ أم استقرارهم؟ أم إنهم وجدوا فيه عودة الأب الغائب الذي افتقدوه منذ زمن بعيد؟! ولذلك وقف الشعب كله، المسلمون والأرمن واليهود؛ متوجهين إلى الله بالشكر على نجاته من محاولة الاغتيال.

كان يحترم المشاعر الدينية، وكانت محاولات التمدن والعصرنة عنده تجري في إطار الدين والعادات وتلاحم الناس، إنها مشروع معقّد للتمدن يحمل توقيع عبد الحميد، يمكن أن نقول عنه: نمط عبد الحميد في التمدن.

وكان حاكماً استطاع أن يستحوذ على صفة آخر البنائين الكبار بالمفهوم المعماري في الإمبراطورية؛ من خلال الأعمال العمرانية بكثافةٍ وتنوعٍ وانتشار لا تصدق. فالحركة العمرانية في فترة عبد الحميد تبدو لنا في تنوعٍ عظيم تمتد من المدارس إلى محطات القطار، ومن الموانئ المبنية على الطراز الأوروبي إلى التكيّات التي تعيد إلى الحياة ذكرى جده الغازي أرطغرل، وضريح الشيخ ظافر أفندي في قصر يلدز على طريقة الفن الحديث- بناه الإيطالي دارونوكو- وجامع يلدز- حميدية- الذي يحمل نسماتٍ من قصور الحمراء، أو معمل يلدز لصناعة الخزف؛ ليثبت أن هذه المهنة ما زالت على قيد الحياة، وبيوت القرميد العامة. والنمط الموحد الذي عليه اليوم مدارسنا؛ ما هو إلا استمرار للطراز العصري لعبد الحميد.

إن السنوات الثلاث والثلاثين كانت لها آثارها في بناء واجهتنا العصرية إلى حدٍّ يفوق الخيال. ومن غير الممكن أن ندرك الفترة التأسيسية للجمهورية، ولا الأحداث الجارية حتى اليوم؛ ما لم نسلط الأضواء ونخرج

إلى النور تلك المرحلة المتلوّنة والمعقّدة؛ من خلال السلطان الذي يحقن دماء الجنود بتعبير براءة دميرجي [120] ، ومقاومته التي ترقى إلى حدّ أن نطلق عليها حرب البوسفور- چناق قلعة- الصامتة. چناق قلعة بمقاومتها لا بالدماء الكثيرة التي سالت هناك.

كل ما سبق وما إلى هنالك من الأعمال الخيرة جعلت السلطان عبد الحميد في مخيلة الناس على صورة أبٍ صالحٍ يقود سفينة الدولة.

يبين نادر أوزبك في رسالة الدكتوراه التي حضرها عن عبد الحميد خان وحبه لفعل الخير، وصورة الأب الصالح التي تمثله؛ أن علاقته بالشعب كانت علاقة أبٍ بأبنائه، فيقول:

" أولى عبد الحميد اهتماماً خاصاً بتقوية الانطباع بأنه حامٍ للشعب الفقير والمحتاج؛ عن طريق الطباعة والنشر، ففي الزلزال الكبير الذي ضرب إستنبول عام 1894 على سبيل المثال، اهتم شخصياً بالمتضررين، وقدم الهبات الكثيرة للمحتاجين، وأولى عناية خاصة بالإعلان عنها في الصحف " **[121]** .

إلا أن الفرق بين السلطان عبد الحميد وبين ملوك الروس والألمان الذين يقومون بأعمال الخير للاستعراض، هو تسليط الأضواء على شخص السلطان بلا واسطة أخرى. ومن السذاجة تأويل ذلك بأنانية عبد الحميد. فالصورة التي تظهر في هذه الأعمال هي صورة السلطان إضافة إلى صورة المؤسسة التي يراد تحسينها، والدولة التي يمثلها السلطان. والصورة التي يراد إصلاحها هي الدولة التي تثق بأن شعبها يعيش في ظل الهبات منذ عهد التنظيمات.

لم يتميز عبد الحميد عن الملوك الأوروبيين فقط، بل تميز أيضاً في ما قام به عمن سبقه من السلاطين العثمانيين. فأعمال الخير لم تتوقف عند حدوده الشخصية، وعبد الحميد وحده هو الذي حوّلها من عاداتٍ شخصيةٍ تقليديةٍ للسلاطين إلى آلياتٍ تستقر في سيناريو الحكم [122] . رأى أن السلطة تحتاج إلى أعمال جديدة تعبر بها عن نفسها، فلم يتردد باستعمال كل نقطة مفيدة من التقاليد في هذا السبيل، ولم يتهرب قطّ من إحداث عاداتٍ جديدةٍ في كل أمرٍ تتخلف عنه التقاليد الموروثة، أو تعجز عنه. ولست الوحيد الذي يقول: إن إحداث العادات من أهم مظاهر التحضّر، بل يقول به أيضاً إيريك هوبسباون وتيرانس ويليامز في كتابهما تكوين العادات ؛ The Invention of Tradition ؛ في إطار الحديث عن الروابط الوطنية.

ليقل من شاء ما شاء، لقد كان عزل السلطان عبد الحميد وخلعه عن العرش؛ يعنيان نهاية مؤسسة السلطنة التقليدية بمكانتها واعتبارها وصلاحيتها. فلم يكن السلطان رشاد ولا السلطان وحيد الدين سلطانين حقيقيين كعبد الحميد. وما يذكرونه من خطب الجمعة في الصومال وزنجبار وغيرهما، وأنها كانت إلى وقت قريب تتلى باسم عبد الحميد، يعكس هذه الحقيقة: إن السلطان عبد الحميد كان آخر السلاطين العثمانيين في نفوس الناس. ولكنّ فئة المثقفين كانوا يرون فيه عقبةً تحول دون التقدم، وأنه يقاوم كل جديد، فهو رجعي حتى أخمص قدميه، يخنق الشباب ويرميهم في البحر... ويرددون هذه الشائعات وكأنها معلومات حقيقية.

من المعلوم أنه في عهد عبد الحميد الثاني وعلى الأخص بعد عام 1880 خضعت الصحف والمجلات والكتب والبرقيات وباختصار جميع المطبوعات والمنشورات ووسائل الاتصال للرقابة وهيئات الرقابة، وظهرت الصحف التي تحمل عبارة "شوهدت"، فكانت الكتب لا تطبع إلا بعد الحصول على الموافقة. إلا أن هذه الضغوط كانت تمارس على الكتابات السياسية وأخبار الاحتلال وأمثالها، وتبقى المساحة الواسعة المسموحة لأعمال النشر الأخرى: العلمية والتربوية، وعالم الإعلام والكتب الجديدة...

وهنا يمكن الحديث عن فائدةٍ للرقابة أنه بسبب التدقيق في هوية الكتّاب وشخصياتهم، بقيت الساحة مفتوحةً لظهور الكتب التي تحمل أسماء مؤلفيها الحقيقيين أمثال أحمد راسم، ومختار صادق، وحسين مجاهد، وأحمد حكمت، وجناب شهاب الدين، وشمس الدين سامي، بدلاً من الأسماء المستعارة.

نعم، كانت هيئة الرقابة قائمةً في عهد عبد الحميد، وازدادت رقابتها بعد حرب 93 بسبب تأزم الأوضاع، لكنها لم تكن سوى ردّ فعلٍ طبيعيّ للدولة التي تتعرض للضغوط الخارجية والأخطار المحدقة بها، وتضعها على حافة التمزق والزوال. وعلينا إذا أردنا الإنصاف أن نسأل: هل كانت هناك دولة كبيرة لم تلجأ إلى هذه الإجراءات في تلك الفترة؟!

في كتابه الذي ضم حصيلة جهوده؛ بيّن أورهان بتجرد ووضوح هذه الحقيقة المنسية: عبد الحميد بين فكي كماشة أوروبا ، وهو ينقل عن مستشار وزارة الخارجية الإنكليزية ساندیسون في 8 تشرين الأول 1881 تقريره الذي يبين فيه أنه لا معنى لاتهام السلطان عبد الحميد، ويعترف بقيام روسيا وفرنسا وحتى إنكلترا بالممارسات نفسها:

" لقد قمنا بمنع بريدنا من توزيع صحيفة الغيرة العثمانية خوفاً من

تأثيرها في مواطنينا الهنود التابعين للدولة العثمانية، وأنا على قناعة بحق الحكومة التركية في اتخاذ التدابير المماثلة " [123] .

كان يفتتح المدارس لأطفال الشوارع

إن الإنشاءات العمرانية التي قامت بها الدولة في عهد عبد الحميد تكاد أن تفوق الحصر، إذ كان يرسل الأموال من الخزينة الخاصة لإعادة إعمار المساجد المنهارة أو القديمة التي تحتاج إلى ترميم على امتداد جغرافيا الدولة، وينهض إلى أبواب الخير الكثيرة، ويأمر ببناء دار الجزاء؛ القصر العدلي، ويفتتح المؤسسات الخيرية، والمدارس الخاصة بأطفال الشوارع؛ المشردين واللقطاء، وكانت تستقبل أطفال الروم والأرمن أيضاً. فدار الخير العالي، من بين هذه المؤسسات، تقوم بحملةٍ واسعة لرعاية الأطفال المشردين، وتربيتهم، وإعدادهم ليكونوا أعضاءً صالحين في المجتمع، تماماً كدور رعاية الأيتام اليوم [124] .

بالطبع كانت ردود الفعل السلبية تسود أوساط المثقفين، فيطلقون أحكامهم الفورية السطحية: فهو السلطان الدموي الجاثم فوق رؤوسنا، يقيدنا ويحد من حرياتنا بأحكام استبدادية مزاجية. وينساقون إلى معارضة عاطفية. كلنا نرغب بالتأكيد في أن تكون حرياتنا واسعة بلا حدود، وكلنا نرغب في أن نكون أحراراً، إلا أنه عندما تبلغ أقدار الدولة حدود الوجود والعدم، فلا يمكن عندها الحديث عن تلك الحريات الواسعة التي نرجوها في الظروف الطبيعية، وعندها تتبادل الحرية والأمن موقعيهما في لائحة الأولويات، ويعاد تقييم الحرية في ظل المستجدات.

كان السلطان عبد الحميد ينوي منح الحريات من جديد عندما يتهيأ الجو المناسب- علماً أن تقرير ذلك بحد ذاته مسألة سياسية أخرى- إلا أنه ينبغي لنا ألاّ نعتقد أن الحدّ من الحريات قد حول تركيا إلى زنزانة كبيرة كروسيا التي تحولت إلى سجنٍ كبيرٍ يشمل الأمة كلها. ففي أشد مراحل الرقابة؛ كان من الممكن تسريب خبرٍ لا أصل له عن مقتل عشرين ألف بلغاريٍّ إلى صحف لندن عبر بريد إستنبول، فلم تكن دوائر البريد الأجنبية خاضعةً للرقابة، ولم يكن من الممكن قط منع دخول المطبوعات الأجنبية بسبب الامتيازات الأجنبية. فهل يبقى السؤال: كيف تمكنت مجلة ثروة الفنون بطباعتها الأنيقة أن تأخذ سبيلها إلى النشر في هذه الفترة من الرقابة بعد هذا البيان بلا معنى؟

إن عدد المجرمين الذين حكموا بالإعدام وصادق السلطان على قرار إعدامهم خلال فترة حكمه الطويلة أحد عشر شخصاً فقط. ولم يكن

إعدامهم لأسباب سياسية، بل بسبب جرائم إنسانية كبيرة كقتل الآباء والأمهات، أو إثر جريمة وقعت إثر مشاجرةٍ بين آغاوات الحريم في القصر.

لقد كتب الكثير ضده، وصبت عليه اللعنات والافتراءات، ووصفوه بالسلطان الأحمر ، وطلبت المعونات ضده من فرنسا وإنكلترا وبلجيكا، وروسيا، بل من إرهابيي الأرمن أيضاً. والسلطان يقابل كل ذلك بالصفح والعفو، حتى عن مدبري محاولة اغتياله، ويكتفي بتجريد السياسيين من مناصبهم، وإبعادهم عن المركز عقوبة لهم، مما يعتبر عقوبات خفيفة عند النظر إلى العقوبات التقليدية في العهود السابقة. ستمر معنا العقوبة التي نالها نامق كمال.

لقد تعرضت هذه الصورة- صورة السلطان المتسامح- لحملة كبيرة من الافتراءات بعد وصول الاتحاديين من حزب الاتحاد والترقي إلى الحكم. افتراءات ليس لها رصيد من الواقع، ويصعب تصديق قسم كبير منها حتى عند من يقف وراءها، والفائدة الوحيدة التي يجنونها هي: معارضة عبد الحميد... هذه المعارضة التي بدأت أولى أمارات تحطمها مع السنوات الأولى للحرب العالمية، وكلما تلاحقت الهزائم وانهارت الجبهات واحدة تلو أخرى؛ ارتفعت علامات الندم عند الشعب عامة وعند المثقفين خاصة، وارتفعت إشارات الاستفهام والتعجب... "لو كان على رأسنا؛ لفعل المستحيل ليحفظ السلام والحياد، ويجنبنا أهوال الحرب والمصائب المنهمرة على رؤوسنا...".

ولكن، وبطريقة مثيرة تستمر هذه النزعة المعارضة للسلطان، لتكون ميراثاً للمثقفين في مرحلة الجمهورية بحجة أنه كان ضد الاتحاديين. تستمر هذه الموجة من دون أن تتكسر في مرحلة الجمهورية في ظل موقفٍ سياسي أعرج يميل نحو رفض التاريخ العثماني وميراث الدولة العثمانية التي قبلوا بأنها الرجل المريض ... [125] . واستمر هذا الموقف الرافض حتى عام 1940؛ إذ بدأت من جديد علامات الانكسار الجدية في هذا السلوك المعارض.

يبدأ هذا الاتجاه الجديد الذي سميته انكسار عبد الحميد بالظهور مع نهال أتسيز. فبينما كان بيامي صفا- الذي ينتمي إلى الاتجاه القومي التركي- يكتب بلسان لاذع مقالات ينتقد فيها السلطان عبد الحميد، جاءه الرد القاسي من قلم نهال أتسيز ليشكل المواجهة الأولى لهذا الاتجاه.

يحمل نهال بحثه عبد الحميد: الخاقان السماوي وليس السلطان الأحمر على كتفيه ويطلقه بكل جرأةٍ بعد هذه الأعوام الطويلة، يطلقه ليكون طلقة الإشارة الأولى التي تسلط الأضواء على هذا العظيم الأخير

المنسي من عظماء الدولة العثمانية. دخل نهال أتسيز المواجهة بكتيب صغير الخاقان المعظم عبد الحميد ثم استمرت المناوشات بين الفريقين والجدل الدائر بين الخاقان المعظّم والسلطان الأحمر. وللأسف، لم يكن انقلاب نظام الدين نظيف Tepedenlioǧlu الجذري في موقفه من عبد الحميد في نهايات 1950 من نصيب بيامي صفا.

وينبغي هنا أن نقيم نجيب فاضل في كتابه الذي مر ذكره في مطلع الكتاب الخاقان المعظم عبد الحميد خان في سلسلة هذا الصراع. ومن الطبيعي أنه لا يمكن تصنيف هذه الكتب العامة في إطار الأبحاث التاريخية الموضوعية، بل في إطار التأسيس الإيديولوجي. فهي الأسلحة المستخدمة من التاريخ لاستخدامها في الصراع. وبتعبير آخر كان الجدل الدائر حول السلطان عبد الحميد يشكل نقطة الصراع التي يستلهم منها كل طرفٍ أدواته وأسسه الإيديولوجية.

ولم تبدأ الأبحاث الأكاديمية الجادة عن عبد الحميد بالظهور إلا بعد عام 1960. فالظلام المخيم على أهم حلقة من حلقات التاريخ التي تحولت فيها الدولة العثمانية إلى الجمهورية التركية، بدأ بالتبدد رويداً رويداً، ووجدت هذه الأبحاث فرصتها في تسليط الأضواء العلمية عليها؛ بالمذكرات التي تتابعت في ظهورها، ووثائق الأرشيف التي استطاعت أن تشق طريقها نحو النور عن عصر عبد الحميد، وترهّل سلطة الرقابة. وكان علينا أن ننتظر حتى مطلع السبعينيات لتنال الأبحاث الأكاديمية الجادة عن عبد الحميد حظها خارج تركيا.

والوثائق الخاصة بالسلطان عبد الحميد والتي وجدت بالكامل تقريباً في أرشيف قصر يلدز تشكل مصدراً هاماً لا يمكن التغاضي عنه في إدراك عهده، وفي فهم تاريخنا القريب. وبتعبير نيازي أحمد بان أوغلو: "الأوراق المجموعة في يلدز ستلقي الأضواء على الكثير من الحوادث التي بقيت في الخفاء ثلاثاً وثلاثين سنة، وستسقط الوجوه المستعارة التي اختفى وراءها المقنعون خلال ثلاثة وثلاثين عاماً" [126] .

من هو المكتشف الأول لعبد الحميد؟

على الرغم من حرص نجيب فاضل على أن يعلق على صدره امتياز القلم الأول في الدفاع عن عبد الحميد في عهد الجمهورية؛ فإن نهال أتسيز، عند حدود ما توصلت إليه في أبحاثي، كان المباشر الأول في الهجوم المضاد. وينبغي لنا أن نعتبر أن ميلاده في 17 تموز 1942 في مجلة Tanrıdaǧ التي يصدرها رضا نور، العدد 11 ، السلاطين العثمانيون ، بعنوان انكسار

عبد الحميد . وقد وسّع نهال بحثه هذا في كتابه مسائل في التاريخ التركي مؤكداً دفاعه عن عبد الحميد؛ ط 1 عام 1966 ، ط 4 عام 1997 ، دار عرفان .

فبينما نجده في بحثه عام 1942 على سبيل المثال يقول: "لم يكن عبد الحميد سلطاناً سيئاً إلى هذا الحد، أي لم يكن عبد الحميد الذي يراد إظهاره بهذا القدر من السوء، بدوره، غافلاً وعاجزاً" ص 9 ، وهو يحتاط لقوله؛ نجده يقول في كتابه في عباراتٍ جازمةٍ: "فما كان يناقض الغفلة والعجز فإن عبد الحميد كان خير ممثلٍ له" ص 104 . وبهذه المقايسة البسيطة نرى الانتصار لعبد الحميد يزداد قوةً والدفاع عنه حدةً بمرور الزمن .

وعنصر آخر في إطار نمو التيار المؤيد لعبد الحميد واشتداد قوته؛ يأتي في الكتيب الذي أصدره هـ. رائف أوغان عام 1956 في الاحتجاج على مقالتين كتبهما بيامي صفا. وأظن أن سلسلة المقالات الطويلة التي انتشرت متفرقة في 14 مقالة في صحيفة الحرية عام 1958 استطاعت أن تؤدي دور اختراق خصوصيات عبد الحميد. هذا القلم التائه في الثلاثينيات من القرن العشرين يقدم رسالةً ذات مغزى للوسط الذي قدم منه من خلال وصفه عبد الحميد في سنوات حكمه "كإنسانٍ وحيدٍ يذكر بخيرٍ ".

لدينا اليوم جملة من المعلومات الجديرة بالتقدير، غير أن الأبحاث تركزت في جوانب معينة، فبينما كانت السياسة الخارجية، والوحدة الإسلامية، وسياسات البلقان والمناطق العربية والقوميات والمعارضة والتعليم والتاريخ الاقتصادي تخدش اهتمام الأكاديميين؛ كانت السياسة الداخلية، والتاريخ السياسي للمركز- العاصمة- والتاريخ الاجتماعي للأناضول، وقضايا الأرمن والأكراد وشرق الأناضول وجنوب شرقه والدين بقيت مختبئةً في زوايا وثائق عبد الحميد ومدوّناته [127] .

خلاصة القول: إننا نملك اليوم فرصاً أفضل بكثير مما كنا عليه عام 1930؛ للتقييم الصحيح والرؤية السليمة لعبد الحميد. والأبحاث تزداد مع الزمن سعةً وجودةً. وتتمكن في النهاية صورة السلطان عبد الحميد الثاني والتي بقيت حتى الآن مختبئة في الساحة المظللة من التاريخ؛ من الظهور إلى ضوء الشمس. أو أن عبد الحميد ولد سياسياً من جديدٍ بعد موته الفيزيولوجي عام 1918 حسب تعبير فرنسوا جورجيون الجميل الساخر [128] . وهو الآن يعيش شبابه الثاني.

وأستأذنكم هنا أن أستبدل كلمة سياسيّ بالميلاد الفكري والمعرفي

الجديد. وهل يمكن تفسير غياب الفريق الذي عزله عن الحكم من الحياة اليومية خارج معارك صاري قميش وچناق قلعة- حرب البوسفور- في الوقت الذي تظهر فيه الصحف الأكثر مبيعاً اليوم تتصدر صفحاتها العناوين الرئيسة التي تتحدث عن معارضة عبد الحميد لبناء Gökkafes قبل قرن من الزمان؟ هل يمكن تفسير ذلك بغير هذا؟! [129] . إن تردد ذكر عبد الحميد اليوم بين الحين والحين في مختلف جوانب الحياة؛ دليل على بقائه حياً، وغياب فريق الاتحاديين الذين أزاحوه عن العرش دليل على موتهم.

محاولة الاغتيال الأرمني لعبد الحميد

... دوي هائل مزّق الآفاق، تناثر الناس والحيوانات أشلاءً في الفضاء، وساد الجو ضباب ودخان، فرّ المرافقون العسكر؛ الياور، ولجأ إلى المسجد أركان الدولة، وبقي السلطان وحيداً في الميدان ...
نقلاً عن فريد باشا الأڤلوني

انفجارات القنابل التي حولت رمضان إلى أتون نار عام 2003 أمر مألوف في إستنبول منذ القدم. إحدى هذه القنابل كانت قد انفجرت قبل 104 أعوام في بشيك تاش ، في باحة جامع يلدز- أو حميدية، بتعبير ذلك الزمن- في شارع بربروس. وعلى الرغم من أن السلطان خرج سالماً كالشعرة من العجين؛ فإن هذا الانفجار الهائل الذي يشبه انفجار قنبلتين في تشرين الثاني عام 2003 نجم عن قنبلةٍ تزن 120 كغ متسبباً بمقتل 26 شخصاً ثلاثة منهم جنود، وجرح 58 شخصاً، وتم تدمير 17 عربةً، وهلك 20 جواداً.

اليوم هو 21 تموز عام 1905، ونحن في مراسم تحية السلطان عبد الحميد الثاني يوم الجمعة. فرغ الناس من صلاة الجمعة، وحان الوقت الذي ينتظره المتلهفون- والأجانب منهم على وجه الخصوص- للقائه. تحدث إلى بعض نوابه ووزرائه وهو يتقدم نحو الباب، ثم توقف لبحث مسألةٍ سريعةٍ مع صديقه المحب شيخ الإسلام جمال الدين أفندي. ولم يكن يعلم بالمفاجأة التي تنتظره في الخارج.

القنبلة التي ألقاها الاشتراكي الأرمني

كان مدبرو حادثة الاغتيال في حديقة جامع يلدز- أصبحت اليوم متنزهاً عاماً- ينتظرون خروج السلطان، وكانوا قلقين من تأخره؛ لأنهم كانوا قد حضروا مراسم التحية عدة مرات، وقاموا بحساب كل شيءٍ، وأن السلطان يحتاج للوصول إلى عربته إلى دقيقة واثنتين وأربعين ثانيةً، ولكن، كانت تلك المحادثة السريعة بين السلطان عبد الحميد وشيخ الإسلام جمال الدين أفندي عند الباب كفيلةً بتدمير جميع مخططاتهم.

تعرّف الاشتراكي البلجيكي تشارلز إدوارد جوريس- 29 عاماً- إلى الإرهابيين الأرمن خلال أعمال الشغب في فرنسا، وقدم إستنبول بناءً على دعوتهم، فاستقر في بناء موراڤيتج في بي أوغلو. أجرى بالاشتراك مع أصدقائه تجاربهم بتفجير عدة قنابل مختلفةٍ في محمية أحراش أبراهام باشا في

بايكوز ثم في قرية پولوناز كوي . ثم أعطوا مخططهم شكله النهائي باستئجارهم بيتاً على الطريق الذي يمر منه السلطان في يلدز. واستصنعوا عربةً خاصةً من معمل ناسال دروفر وجعلوا في العربة قسماً يختفي تحت مقعد السائق توضع فيه المتفجرات [130] .

تمكن مدبرو حادثة الاغتيال من إدخال العربة إلى حديقة جامع يلدز، وإدخال عربةٍ كبيرةٍ كهذه إلى المكان الذي يحتاج إلى إذنٍ خاصٍّ سيترك إشارات استفهام كبيرة في العقول، وقاموا بتشغيل القنبلة الموقوتة فور رؤيته عند الباب، ولكنهم لم يتوقعوا هذا التأخير البسيط...

اللطخة السوداء على جبين توفيق فكرت

يتردد ذكر الشاعر توفيق فكرت على ألسنة اليساريين عند الحديث عن الاستقامة وحب الوطن. حمل في نفسه استياءً شديداً لأن الاغتيال في يلدز لم يصل إلى هدفه... ففي قصيدته تأخّر لحظة يصف مدبر الاغتيال جوريس بالصياد المجيد، في حين يصف قائد أمته بالحقير الدنيء الظالم. وبضعة أبيات من قصيدته ربما تكفي لترينا كيف يدفعه الحقد على عبد الحميد ليأخذ مكانه إلى جانب منظمة تاشناق الأرمنية :

أيها الصياد المجيد! ما نصبت الفخ بلا جدوى ...

رميت... ولكن أسفاً، فإنك ما أصبت مقتلاً ...

هذا العمل الذي يشبه بالدماء الجريمة ...

كان خيراً لو مضى؛ لم يكن له مثيل في الدهور ...

ولكن، هل كنتم تعلمون أن هذا الشاعر هو نفسه الذي فاز بالمركز الأول في المسابقة التي أقامتها مجلة مرصاد في مسابقة السلطان عبد الحميد عام 1891 ؟! وهل كنتم تعلمون شيئاً عن قصيدته التي أسبغ فيها المديح على السلطان في مجلة معلومات عام 1894 ؟! أي أن فكرت هذا الذي ينوح الآن هو نفسه الذي كان يحار في مدح السلطان قبل 15 عاماً ...

الانفجار الذي هز إستنبول

بعد ذلك، سمع صوت انفجارٍ مروّعٍ اهتزت له الأرض في الطرف المقابل للمضيق حتى Göztepe وفي الساحل الأوروبي حتى مناطق فاتح وماچكا ونيشان تاشي، وتردد صداه في أرجائها. نحاول هنا أن نرى هذا المشهد الدموي وهو ينعكس من قلم نجيب فاضل وسط الضباب بدلاً من كاميرا ديجيتال:

دخان يحوّل النهار إلى ليلٍ، رائحة الموت تفوح من البارود، مشهد في مسرح الخراب...، أجسام تتبعثر في كل مكان: بشر وجياد وعربات، والمسجد

يخلو من نوافذه والبلّور، والأرض تغطيها عمائم أخطأت أصحابها، والأجساد ممزقة كأنما تناوشتها الفؤوس... فوضى مأساوية... كلّ يجري في كل مكان... وسط الزحام ... [131] .

فكيف تصرف السلطان عبد الحميد الجبان- كما لقبوه!- في هذا المشهد المخيف؟! تصرف بما يليق بحفيد العثمانيين: لم يفقد صوابه، وتابع الحادثة بهدوءٍ وسكينةٍ، وأخذ يهدّئ من روع المسؤولين الذين دبّ فيهم الذعر والفوضى، وهو يقول لهم: لا تخافوا . وأعطى أوامره اللازمة، ثم اتجه بخطواتٍ وقورةٍ قويةٍ إلى عربة السلطان، وقبض على لجام الجياد المرتعبة، وانطلق يعدو بها نحو قصر يلدز. كانت صلابته ورباطة جأشه موضع إعجاب مَن شاهده من المواطنين والأجانب، ومن بينهم جنرال البحرية الأميركية بغنام، وتعالت هتافات الضيوف: عاش السلطان .

إلى أيّ حدٍّ يمكن أن يبلغ حقد امرئٍ على عبد الحميد؟!

ينبغي لنا ألاّ ننظر إلى قصيدة توفيق فكرت التعيسة كأنها زلّة وخطأ عابر. فقصيدة تأخّر لحظة هي بالنتيجة مرآة تعكس؛ ولو بشكلٍ ضبابيٍّ؛ نظرة مثقّفي تلك المرحلة إلى القصر! فعلى الرغم من مرور 45 عاماً على هذه الحادثة، فإننا نرى في مطبوعةٍ دوريةٍ كيف حافظ فكرت وبعنادٍ على حقده الكبير، فاستطاع أن يكتب بلا حرجٍ ولا حياءٍ أن عبد الحميد لم يكن يصلي الجمعة، وبينما كان الناس يؤدون صلاة الجمعة كان السلطان يستمتع بتدخين سيجارته في المحفل السلطاني، وأنه يختار وقت صلاة الجمعة لقراءة الصحف اليومية المقدمة له .

وتبقى هذه الافتراءات بسيطةً أمام ما سأقصه عليكم: كتب حلمي كيرتيش عن القنبلة التي انفجرت في يلدز، فقال :

" ما الذي كان يجري؟ على الأغلب محاولة اغتيال، ولكن هل مات حقاً عبد الحميد؟ وهل تخلصت الأمة من هذا الظالم؟!... كانت قضبان الأسوار الخضراء ملوّنةً بالدّماء، وأشلاء الجثث متناثرةً، وقطع اللحم المتطايرة من الإنسان والحيوان تلتصق بالأسوار والجدران بفعل الانفجار. تسلل عبد الحميد خارجاً من المسجد نحو القصر عبر الأشلاء وغضبُ المستبد يتطاير من عينيه، ليصدر أوامر التحقيق والنفي والسجن والعقوبات " [132] .

ويتابع كاتب المقالة ليبيّن حجم المصاعب التي تعرض لها بعض المواطنين الأرمن في سبيل تحقيق هذا التفجير، وإنقاذ الأمة من ظلم عبد الحميد! وهو يصفهم بالجرأة والشجاعة. أي إنه فضل الحديث عن الصعوبات التي لقيها الإرهابيون الأرمن، عوضاً عن التعبير عن حزنه على المتضررين من

انفجار القنبلة .
ربما بإمكاننا أن نتفهم فكرت، ولكن كيف يمكن لشخصٍ يثني على قنبلة ألقيت على رئيس دولته- ولو كان رئيساً سابقاً- بعد 45 عاماً؛ أن يسرح ويمرح ويرفع قامته ككاتبٍ في دولة تعرضت لخيانة الأرمن وغدرهم بعد تعرض دولته لخيانة وغدر جديدين؟

كان الهدف من هذا المخطط الدقيق الذي قام به الإرهابيون الأرمن؛ هو أنه لو نجحت محاولة الاغتيال لكانت ستتبعه انفجارات متتالية في بي أوغلو، يختل بها الأمن ويثار الشغب، فتتدخل الدول الأجنبية، وتكون الخطوة الأولى لقيام دولةٍ أرمنيةٍ مستقلةٍ في الشرق قد تحققت. لكنّ الدقائق القليلة ألقت بكلّ مخططاتهم في البحر.

استقل بعض مدبري محاولة الاغتيال القطار من محطة سيركجي، وتمكنوا من الفرار إلى أوروبا، وألقي القبض على جوريس وأعوانه؛ وكانت زوجته آنّا من بين الفارين. وتشكلت لجنة للاستجواب؛ وكان والد نجيب فاضل رئيس محكمة الجنايات، وحلمي بيك من أعضائها، وانضم إلى المحاكمة قضاة من الروم والأرمن واليهود، بأمر من السلطان حتى لا تحوم حول عدالتها أيّ شبهةٍ. وأصدرت المحكمة في النهاية أحكاماً بإعدام أحد عشر شخصاً بينهم جوريس، وعقوباتٍ مختلفةً بحق 46 شخصاً آخرين.

ثم ماذا؟! والغرابة هنا!...

السبب الحقيقي في تأخّر لحظة

جميع المصادر تقريباً تحاول أن تبين أن السبب في تأخر السلطان يعود إلى رغبته في الحديث إلى جمال الدين أفندي، وإلى ثرثرته الفارغة معه. ولكنّ الواقع كما جرى على لسان جلال الدين ڤلورا باشا ابن الصدر الأعظم في تلك المرحلة فريد باشا الأڤلوني؛ نقلاً عن والده، أن شيخ الإسلام كان قد توجه للصلاة بصحبة أمير مكة الذي كان يزور إستنبول، فاستوقف الشيخ السلطان بعد الصلاة ليزفّ إليه البشرى عن هذا الضيف الفضيل، فتعرف إليه السلطان وأذن له بتقبيل يده، وأبدى اهتمامه وترحيبه به: "حللتم أهلاً أيها السيد الأمير، ونزلتم سهلاً في آستانتنا، أهل الحرمين بخير إن شاء الله؟". وقبل أن تنتهي الكلمات سمع ذلك الدويّ الهائل. ربما كان تأخيراً بسيطاً، ولكنه كان خطيراً ومهماً إلى الحدّ الذي يدفع فكرت إلى النحيب! وربما كان هذا التحليل أقرب في نظري إلى الواقع .

انظر: المتحدث: جلال الدين باشا ڤلورا بن فريد باشا الأڤلوني. الكاتب سميح نافذ تانسو، وجه الميدالية الآخر، إستنبول 1970 ، دار Gür ، ص

18 - 19 .

نرى في هذه الحادثة أيضاً أن السلطان رجل لا يحب الإسراف في حياة البشر... عفا عن الجميع، كما عفا عن الاشتراكي زعيم مدبّري الاغتيال... وليس ذلك فحسب، بل دسّ في جيبه 500 ليرة ذهبية بدل نفقات السفر، وغادر إستنبول هذه المرة كرجلٍ من رجال السلطان عبد الحميد الأوفياء للعمل في أوروبا، وهذه ربما المرة الأولى في التاريخ التي يُوظَّف فيها مدبّر الاغتيال من طرف من أراد أن يغتاله، ويُكَافأ.

هذا نموذج مصغر يبيّن لنا نظرة السلطان عبد الحميد الواعية في قضية الموارد البشرية، والحفاظ عليها...

تركيا الفتاة [133] والسلطة الماسونية

كنت مكلّفاً بقمع التمرد في بلاد الأرناؤوط عام 1910 . كان المراسلون الألمان يسألون بقلق: هل صحيح أن من لم يكن ماسونياً، لم يكن له حق الحياة في تركيا؟ وأن جميع الضباط أصبحوا ماسونيين؟ !
كاظم قرة بكر

أحاول هنا النظر من وجهة نظرٍ مختلفةٍ، معتمداً على محاضرةٍ ألقاها جوزيف برودا في معهد شيللر عن نشوء السلطة الماسونية في تركيا، وتأثيرها في إبعاد عبد الحميد عن السلطة.

كان عام 1865 العام الذي تشكلت فيه جمعية العثمانيين الجدد التي قامت بكتابة أول دستور لنا.

يلفت أبو الضياء توفيق- من أعضاء هذه الجمعية- انتباهنا إلى نقطة مثيرة، ففي ليلة سبتٍ من ليالي حزيران في منطقة يني كوي التي اشتهرت مجدداً بتانسو چيللر؛ اجتمع عدد من الشبان في فيلا صديقهم أحمد بيك على الشاطئ، وخرجوا في اليوم التالي بنزهة إلى غابات بلغراد. وهناك، في يوم الأحد من ذلك التاريخ، قدحوا الزناد في فتيل الحركة التي ستؤثر بعمقٍ في الصفحات اللاحقة من التاريخ العثماني...

كانت معهم بعض الكتب، من بينها كتاب عن جمعية الانقلاب الكاربوناري، وآخر عن الجمعية السرية البولونية لاهيستان . شباب ستّة، على الحصير الممدّد على الأرض في ظل الأشجار الضخمة، كانوا يقلبون النظر في أسس الجمعية الكاربونارية التي شكلت الأرضية البنيوية والاستراتيجية التي قامت عليها جمعية العثمانيين الجدد .

فما هو هذا الكاربوناري؟!

الكاربوناري لفظ إيطالي يعني الفحامين الذين يعملون على إنتاج الفحم، لقبت به المنظمات الثورية المتشكلة في إيطاليا في القرن التاسع عشر، وكانت تعمل على نقل بلدهم إلى نظام برلمانيٍّ مستقلٍّ؛ لأنهم كانوا يجتمعون سراً في الغابات كالفحامين. تمكّن أعضاء الجمعية الكاربونارية من الوصول إلى أهدافهم عام 1848، وتمكنوا من بناء جمهورية روما التي انهارت في الحصار الذي فرضه عليهم إمبراطور فرنسا نابليون الثالث، فنُفِيَ مؤسّسو الجمهورية وعلى رأسهم غوسيبا مازيني ليمارسوا نشاطهم من الخارج.

فمن هو مازيني؟!

هو من الآباء المؤسسين للكاربوناري، من الناحية الفكرية والعملية، حاد النظر، لا يتورع عن توسّل الإرهاب والأعمال الخارجة على القانون من أجل الوصول إلى هدفه، إضافةً إلى كونه ماسونياً عالي الرتبة، عمل على تأسيس منظمة الكاربوناري على النمط الماسوني، وله عملاؤه المنتشرون في دول كثيرة مثل إنكلترا وأميركا وروسيا. فتارة ترى آثار أعماله في أميركا وحروبها الداخلية، وتارة في روسيا يدبر عملية اغتيال القيصر الروسي ألكساندر الثاني.

توفي عام 1872، إلا أن عملاءه استمروا بالنشاط بعده، وبمساعدتهم تم إعلان أول دستور في الدولة العثمانية بعد خلع عبد العزيز عن العرش وقتله. وارتقى إلى العرش مراد الخامس بعد انتسابه إلى الماسونية، غير أنه لم يستمر بالحكم سوى ثلاثة أشهر بسبب نوباته العصبية الجنونية، فاعتلى العرش الشاهزادة عبد الحميد في انقلاب جديد اشترط عليه فيه: إعلان المشروطية، وإجراء الانتخابات.

هذا ما يجري الحديث عنه في كتب التاريخ عندنا، وكأنها عملية انقلاب سهلة ناجحة بلا مشاكل، وكأنها شعرة تسلّ من العجين، فلا يكاد يشك أحد في الروابط الخارجية لهذه الحركة.

ولكن، مما لا شك فيه أن قصةً ما تختفي وراء هذه الانقلابات الثلاثة في عرش السلطنة خلال عام واحدٍ تدفعنا إلى الوقوع في شبكة من العلاقات السرية تفوق الخيال.

فالسرعسكر حسين عوني الذي نفذ الانقلاب لم يكن يعلم عن الحركة شيئاً، وكان معروفاً بوقوفه ضد المشروطية، وذهب ضحيةً لجريمة حقدٍ. ومدحت باشا الذي يبدو وكأنه خبير بما يقوم به؛ كان محروماً أيضاً من إدراك الصراع المعقد الذي دفع إليه، ولذلك كان أول عملٍ قام به التخلص من صديقه نامق كمال بإرساله حاكماً لإحدى المتصرفيات. وهذا يعني أن الفريق الذي قام بإعلان المشروطية كان مشغولاً بنفسه، يلتهم أعضاؤه بعضهم بعضاً. وكان الحزب اليهودي (B'rith B'nai) بمساعدة الكاربوناري ورئيس الوزراء الإنكليزي بالمرستون قد استقر منذ زمن على منبع العمل هناك.

هنا تظهر عظمة السلطان عبد الحميد خان، حيث قام بتصفية مدحت أفندي في الوقت الذي كبّل فيه القوى الماسونية بأسلوبه الخاص في منع مثل هذه الحركات وملاحقة أعضائها، والقيام بحملات المداهمة لخلاياها من حين إلى آخر، ولم يسمح طيلة فترة حكمه لليهود والإنكليز بالسيطرة

على شريان الحياة الاقتصادية والثقافية للعثمانيين، ولهذا أصبح في ما بعد السلطان الأحمر وانتقموا منه بعد ثلاثين عاماً؛ 1908.

يعيد الباحث جوزيف برودا سياسة التتريك التي اتبعها الاتحاديون الذين صعدوا إلى السلطة بوعود الحريات الكبيرة؛ إلى وقوف الإنكليز وراءها. فالعودة بالتركية إلى الطورانية كانت تضع الدولة العثمانية في مواجهة روسيةٍ، كما توالت خدمات الإنكليز السرية عبر جواسيسهم لورانس العرب، وسيتون واتسون في الصرب، والليدي دونهام في الأرناؤوط، ونويل باكستون في البلغار الذين كانوا يعملون على تهويش القوميات، وإعداد الشروط الضرورية لتمزيق الدولة العثمانية.

ثم ألقيت موزة تتقاتل عليها تركيا وروسيا وإيران تدعى أرمنستان الكبرى في أراضٍ تقتطع من هذه الدول، وهي تعلم أنها وهم وخيال لا يمكن تنفيذها.

ثم ألقيت موزة أخرى لبلبلة الأوضاع في المنطقة تسمى كردستان الكبرى ، والغريب في الأمر أنها رسمت حدود هاتين الدولتين الكبريين متقابلتين إلى درجة التطابق، وبهذه الطريقة يتم الإيقاع بين الأكراد المسلمين، والأرمن المسيحيين، وتندلع الحروب، وتعم الفوضى، وتلجأ الدولة العثمانية إلى سياسة التهجير، وعندها تعلن الدولة العثمانية مذنبةً، وتصل إلى هدفها الأساسي: وتسقط الأراضي المقدسة، ومنابع البترول في أيديها.

كان هناك من يعمل بحنكةٍ ودهاء في هذه المعمعة، ويتدبر أمره، كإيمانويل قرة صو اليهودي من قادة بنائي بريث في سلانيك، حيث تمكن بعد مناورات احترافية مع حركة جون تورك- تركيا الفتاة- أن يصبح حلقة الوصل بينها وبين الماسونية، ليكون في ما بعد ضمن الفريق المتوجّه إلى السلطان عبد الحميد لعزله عن العرش، إضافةً إلى آرام أفندي الأرمني، وأسعد توپتاني الأرناؤوطي، وعارف حكمت من اللاز، وهو ما لم يستطع أن يتقبله السلطان الأخير. وتذكر السلطان شروط عام 1876، وكان واضحاً له أن الاتحاديين لم يستفيدوا من الدرس اللازم من السرعسكر حسين عوني. وتمكن إيمانويل قرة صو من الاستيلاء على منصب مفتش الإعاشة للجيش العثماني الذي دفع إلى الحرب العالمية الأولى، وجمع ثروة كبيرة من هذا العمل.

هذه المعلومات التي أوردها باحث إيطالي تذكرنا بمثل العنزة التي تسلّم إلى الثعلب، فقد استولى قرة صو على المواد التموينية التي كان ينبغي توزيعها على الناس، وجنى من ورائها مليوني ليرة ذهبية إلى جيبه

الخاص، في حين كان الجوع الذي انتشر بين الناس يفتح الطريق للأمراض الناتجة عن سوء التغذية، وبقايا الطعام الفاسد، والوفيات [134] . وعندما بدأت تلوح في الأفق محاكمة مجرمي الحرب التقط أنفاسه خارج الوطن مثل أسودنا الآخرين؛ أبطال الحرية والاستقلال، هرب إلى إيطاليا عام 1919، واستقر هناك ينفق من ثروته التي نهبها حتى وفاته. وتبين في ما بعد أنه كان إيطالياً! وأن مخطط مازيني الكبير لم يلقَ نجاحاً إلا في الدولة العثمانية...

في الصورة الفوتوغرافية التي التقطها يلماز أوزتونا يظهر الفريق المختلط الذي ذهب إلى سراي عبد الحميد كالتالي:

قرة صو؛ جاسوس يتلقى أموالاً من إيطاليا، لعب دوراً مشؤوماً في ابتلاع ليبيا من قبل الطليان، وهو خائن فار من العدالة إلى إيطاليا. وقائد الجندرمة أسعد توپتاني؛ حمل السلاح بعد أعوامٍ قليلة من أجل استقلال الأرناؤوط، وتسبب بمقتل عدد كبير من الجنود الأتراك. وآرام أفندي على علاقةٍ قريبةٍ من لجنة الثورة الأرمنية، اندسّ في تلك الهيئة للانتقام من السلطان عبد الحميد. أما الرابع فهو عارف حكمت باشا، والسنوات اللاحقة ستبين أنه بحار ذو حياةٍ سياسيةٍ مظلمةٍ **[135]** .

عبد الحميد والإنزال العسكري في الصين

أبلغني ممثلنا في الصين م. بابوت عن محاولات السلطان عبد الحميد من أجل المحافظة على المذهب السني بين مسلمي الصين. كما أبلغني أن الهيئة المكونة من عالمين تركيين قد حققت النتائج المرجوة بعد وصولها إلى المركز، وأن سفارتنا قامت بتقديم خدماتها للهيئة .

من رسالة دبلوماسي فرنسي

لقد غدا واجباً علينا كسر القيود التي تكبل تاريخنا كله- وليس فقط عهد عبد الحميد خان- وتشوه صورته، وتحطيم القفص الذي يحبس فيه... مجبرين على ذلك في عصر العولمة هذه لنكون بماهيتنا وتميزنا وحضارتنا، وأن نبقى كذلك، وأن يكون لنا وجهنا الواحد المعروف... مجبرين لتبقى لنا دولة ومجتمع له مستقبل...

نعم، لقد رسخت في أذهاننا صورة مشوّهة لتاريخٍ عاجزٍ مسكينٍ بترت منه الأيدي والأقدام... ولكنني حيثما مددت يدي في أطلس هذا التاريخ تهطل في حجري كنوزه الضخمة، وأغيب في أفكاري العميقة، شئت أم أبيت، وأتعجّب: كيف استطاعت تلك الملاحم البطولية أن تنبثق من اللوحة الصفراء لهذا العجوز؟! وأنتم أيضاً تدركون مدى الصعوبات التي أعانيها في محاولة فهم هذه اللوحة العظيمة التي تنأى بنفسها عن مداركنا، ومدى عجز الكلمات وتعثرها في شرحها وبيانها...

فلنحوّل أبصارنا الآن، إلى الجهة التي يأتي منها النور، إلى الشرق، ولنشهد كيف بلغت إرساليات التبشير [136] العثمانية سواحل الباسيفيك في المحيط الهادئ في ذلك الوقت الذي كانت فيه الدولة آيلةً إلى السقوط... فهل كانت الدولة العثمانية هي الآيلة إلى السقوط، أم قدراتنا على التفكير؟!

العلم العثماني يرفرف عالياً في كاشغار

العام 1873، والشهر حزيران، يصل سراي السلطان الشيخ تورة؛ سفيراً موفداً من أحد أقاربه سيد يعقوب خان الذي يخوض معارك ملحمية لإنقاذ تركستان الشرقية من الاحتلال الصيني، وقد سبقته أنباء مظالم هذا الاحتلال، وبيده خطاب بالفرنسية. كان يعقوب خان يطلب الانضواء تحت جناح السلطان باعتباره مسؤولاً عن حماية المسلمين في كل مكان، والدخول بشعبه تحت حمايته، ولم تتأخر صدى كلمات الخطاب في عالم النفس، فكانت آثارها بادية على وجه السلطان، وما كاد المبعوث يتمّم حديثه عن

الأوضاع السيئة التي تعيشها دولته، وطلبه المساعدة العسكرية، حتى بدأ السلطان عبد العزيز بالعمل الفوري، والاستعدادات لتقديم المعونة المطلوبة.

حيث يكون في الدنيا شعب مظلوم، يكون هناك للدولة العثمانية يد أو عقل... فما بالك إن كان هذا الشعب مسلماً؟! فهل يعقل أن تعود هيئة مظلومة قدمت من أقصى آسيا من كاشغار طالبة الدعم منها صفر اليدين؟!

بدأت التحركات على الفور، وأسندت مهمة ترتيب المعونات إلى مشير المصنع الحربي علي سعيد باشا، وناظر عموم المصانع سيّد باشا، ولا مكان هنا للحديث عن الإمكانيات، والتعلل بها؛ طالما أن كل شيء في خدمة المسلمين، أو إنها في سبيل إبقاء مسلمٍ لحظةً أخرى على قيد الحياة...

كانت المعونات تتكون من ستّة مدافع كروب بمهماتها ومعداتها، وألفي بندقية؛ منها ألف بندقيةٍ مستعملةٍ، والمعدات اللازمة لصناعة البارود...

ولكن، من سيعمل على تشغيل هذه المعدات؟ بالطبع هذا ما تم التفكير فيه أيضاً، فأهالي تركستان الشرقية سيستعملون هذه المدافع للمرة الأولى، ولا يتقنون صناعة قذائفها، ولذلك كان مع المعونات ثمانية ضباطٍ: أربعة منهم في الخدمة، والآخرون متقاعدون، والجميع بإمرة مراد أفندي الأندروني. نعرف الآن أربعة من هؤلاء الضباط الذين ينبغي أن تسطّر أسماؤهم في تاريخنا بحروفٍ من ذهبٍ: المهندس العسكري علي كاظم، وضابط المشاة محمد يوسف، وضابط الخيالة يوسف الشركسي، وضابط المدفعية إسماعيل حقي.

أبحرت السفينة التي تحمل هذا الفريق الحربي العثماني برفقة سفير كاشغار الشيخ تورة لتعبر قناة السويس وتنفتح على المحيط الهندي، حتى مدينة بومباي في الهند. ثم انطلقت عبر البر الهندي، لتصل إلى كاشغار بعد جهدٍ جهيدٍ، وبعد اجتياز العقبات والعراقيل التي وضعها الإنكليز في طريقهم. استقبلهم أهلها بدموع الفرح المنسكبة ومشاعر الحب، واستقبلهم سيد يعقوب خان بإطلاق مئة قذيفة مدفعٍ تحيةً لهم. وبقدومهم كانت الحياة في العالم الإسلامي في آسيا الوسطى قد بثّت من جديدٍ، وخفق علم النجمة والهلال التركي في سماء كاشغار، وتليت الخطب باسم السلطان العثماني، وأظهرت النقود المسكوبة حاكمية الدولة العثمانية.

جيش النظام الجديد في الصين:

تمكن الضباط العثمانيون من تشكيل وحدات عسكرية من المتطوعين الكاشغاريين، ونرى في التقرير الذي قدمه اليوزباشي علي كاظم أفندي إلى

السلطان بعد عودتهم من إنجاز المهمة؛ أنه شكل طابوراً للمدفعية يرتقي في تدريبه ومهارته مستوى الجيش في إستنبول، وذلك خلال فترة قصيرة إضافة إلى ألاي من ثلاثة آلاف جندي سماهم جيش النظام الجديد .

هذه نقطة تحول هامة في جهاد تركستان الشرقية ضد الصين، ودفاعها عن استقلالها. قام هؤلاء الضباط بتكوين الجيش النظامي، وتدريب جنود مسلمي الصين؛ على المعارك النظامية، وتكتيكاتها، وكيفية استخدام المدافع والبنادق، والصناعة الحربية اللازمة.

ومن المؤلم أن الصينيين أسروا هؤلاء الضباط ذات يومٍ، وأودعوهم السجن بعد تقييدهم بالسلاسل، واستمروا بتعذيبهم بالضرب والجلد وغرز إبر الحديد تحت الأظفار طيلة ثلاثةٍ وثلاثين يوماً بأيامها ولياليها، حتى إذا حان موعد ضرب الأعناق؛ تدخل والٍ لاجئ إلى الصين من تركستان الشرقية، واستطاع أن يطلق سراحهم ويعيدهم إلى خدماتهم في إستنبول . [137]

إنزال عبد الحميد في الصين

استطاع السلطان عبد الحميد أن يستخدم سياسة الوحدة الإسلامية - الاتحاد الإسلامي - كورقةٍ رابحةٍ في صراعه مع الدول الإمبريالية، ونجح في ذلك إلى حدٍّ كبيرٍ. فنراه منهمكاً في الجهود الكبيرة التي يبذلها؛ ليضم الأمة المحمدية كلها، والتي تعيش تحت بيارق مختلفةٍ تحت مظلّته. فتمتد فعالياته وأنشطته من شمال أفريقيا إلى تركستان، ومن فاس إلى الشرق الأقصى، كما يحاول تقديم الدعم للدعاة المسلمين في الولايات المتحدة الأميركية. ولم يتأخر عن تسخير الطرائق الصوفية في هذا الهدف؛ كاستنهاض السنوسيين في الدفاع عن أفريقيا [138] .

لا تظنوا أن مسلمي الصين كانوا بعد ذلك محرومين من المعونات العثمانية، فهناك عهد عبد الحميد الكبير - الذي يتسع لعمل الكثير - وافتتاح الجامعة الحميدية التي يرفرف فوقها العلم التركي عالياً في سماء بكين وسط دموع مسلمي الصين، والذي يمكن اعتباره تجسيداً لحلمٍ كبير.

وفي الوثائق التي عثر عليها إحسان ثريا صرمة في ملف الصين من أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية نرى أن مسلمي الصين قدموا إلى السلطان عبد الحميد يعرضون له أحوال التعليم والمستوى المتدني للإنفاق في مؤسساته، ويطلبون المعونة منه: لو خصصتم لنا مدرسةً في مستوى جامعيٍّ، وعلّمنا أولادنا، وتسلّحوا بالعلوم العصرية العالية... تلقى عبد الحميد طلبهم هذا بإيجابيةٍ، وبدأت الاستعدادات، وفي مطلع عام 1908 كانت الجامعة

الحميدية تستقبل طلابها في بكين.

في هذا النص المترجم من الأصل الفرنسي بقلم عثمانيٍّ معاصرٍ لتلك الأعوام؛ وصف للمشاعر التي رافقت حفل الافتتاح في عباراتٍ وجيزةٍ:

ألسنة المسلمين في الصين تلهج بذكر سلطاننا والثناء عليه. تلمح معالم نورٍ وسعادةٍ روحانيةٍ تغمر وجوههم كلما ذكر اسمه في المساجد. ومسلمو الصين أكثر نشاطاً من غيرهم من الصينيين، وأشد تحمساً للتطور والفضائل ...

في بكين وحدها 38 جامعاً، يرتادها آلاف المسلمين كل يومٍ خمس مراتٍ، يؤدون فيها صلواتهم، ويرفعون أيديهم بالدعاء للسلطان. وفي أيام الجمعة يؤدي المفتي خطبة الجمعة بالعربية، يترجمها إلى الصينية رجال الدين الآخرون ...

لكل مسجد مدرسته، تقف إلى جواره شاهدةً على تطور التعليم الإسلامي، وتسبقها مؤسسة كبرى تحمل اسم سلطاننا؛ إنها جامعة بكين الحميدية. وقد ارتفعت أيدي آلاف المؤمنين الصينيين بالتضرع والدعاء إلى الله من أجل السلطان؛ في اليوم الذي أرسيت فيه أساسات هذه المؤسسة. ثم جاءت رغبة الصينيين لإطلاق اسم سلطاننا الجليل على هذه المؤسسة الجديدة؛ تناسب كل أشكال الثناء عليه. وقد عشنا مراسم حفل الافتتاح بعد تمام البنيان في الأيام القليلة الماضية .

في ذلك اليوم احتفل مفتي بكين، وعدد جم من العلماء، وآلاف المؤمنين؛ بهذه المناسبة. وفي ختام الحفل ألقيت كلمة بالعربية، واختتمت بالدعاء للسلطان. ترجم المفتي الكلمة والدعاء إلى اللغة الصينية، وبلّغها للمسلمين. كانت عيون المسلمين تغمرها دموع الفرح. لم تكن حال المسلمين الصينيين تشبه حال بقية الصينيين؛ فقد كان أولئك المسلمون يرتبطون ببعضهم بوثاق ديني كبير، ويعيشون أتقياء شرفاء. وبلاغة اللغة العربية التي هي لسان ديننا وحلاوتها، ومجد العلم العثماني الذي بلغ أبواب المؤسسة؛ كانت كافية لتفيض العيون وتحرك مشاعر القلوب الرقيقة **[139]** .

إن قيام هذه الجامعة في الصين تعكس سياسة السلطان عبد الحميد وإرادته الوحدة الإسلامية.

وفي وثيقة أخرى؛ يكتب السلطان عبد الحميد إلى المشيخة الإسلامية يطلب منها أحمد رامز أفندي والحافظ طيب أفندي من مدرسي الفاتح، وإلى مفتشية المدارس الابتدائية يطلب منها الحافظ علي رضا أفندي والحافظ حسن أفندي البورصة لي؛ لإرسالهم إلى مسلمي الصين للتعليم. غير أن الطلب يتم إهماله من قبل الحكومة. ونجد في أرشيف رئاسة الوزراء

في وثيقة الإرادة الخاصة رقم 86 (24 ص 1325) استجواب في سبب الإهمال، و"القرار الإيجابي المتخذ" (من دون أدنى تفكير بصلاحية هذا القرار) هو: طلب عرضها على القصر. رأت الحكومة إعادة الإرادة الخاصة إلى القصر لإعادة النظر فيها.

وإذا كان السلطان عبد الحميد يحمل هذا الهم الكبير للدفاع عن الوجود الإسلامي في الصين؛ فماذا عملنا نحن إزاء المجازر التي وقعت هناك تحت سمعنا وبصرنا؟! فلتنحن رؤوسنا إجلالاً لمن أبقى رؤوسنا مرفوعةً...

بعض النقاط الهامة في العلاقة بين مسلمي الصين وعبد الحميد

l للتوسع في موضوع علاقات الدولة العثمانية بمسلمي الصين في عهد عبد الحميد، انظر: إحسان ثريا صرمة، عهد عبد الحميد الثاني في وثائق. (إستنبول 1998 ، منشورات بيان، ص 15 و99)، وعبد الحميد وسياسة الوحدة الإسلامية (إستنبول 1985 ، منشورات بيان ص 59).

l وانظر طه طوروس، تاريخنا القريب بعنوان هيئة النصيحة في طريق الصين ، صحيفة ملِّيَّت ملحق تاريخي ووثائقي: ص 291 - 295 وص 307 - 311 .

l حول يعقوب خان وعائلته انظر: حافي قادر ألپمان، سيد يعقوب خان وشجرته ، عدد: 17 - 21 أيّار 1954 ، ص 675 - 676 ، و686 .

l وثيقة هامة حول المساعدات العثمانية لمسلمي الصين. انظر: رضا بكين، تقرير مقدم للسلطان عبد الحميد عن تركستان الشرقية ، اللغات الشرقية المجلد الثالث، عدد: 4 ، 1983 ، جامعة أنقرة، كلية الجغرافيا والتاريخ واللغة، معهد الأبحاث الشرقية للغة والآداب، ص 39 - 66 .

l يعقوب خان ومكانة تمرده المسلح في التاريخ الصيني. انظر: كارولين بلوندن، ومارك ألڤين، الصين: موسوعة التواصل بين الحضارات الكبرى، ترجمة: سلجوق أسنبل ولونت كوكر، إستنبول 1989، ص 40-41 .

l وثائق تتعلق باهتمام عبد الحميد الثاني بمسلمي الصين. انظر: وحيد الدين أنگين، عبد الحميد الثاني وسياسته الخارجية، إستنبول 2005، دار يدي تبة، موجز الوثيقة ص 264، وصورة عن الوثيقة ص 321 .

الشريف حسين وعبد الحميد

بلغت نفقات الثورة العربية على دافعي الضرائب الإنكليز أحد عشر مليوناً إسترلينياً، حسب ما ذكره رونالد ستور .
رشيد الدين خان [*140*]

شريف مكة حسين؛ اسم لعب دوراً مصيرياً في سلسلة الأحداث التي أدت إلى استقلال البلاد العربية [141] . والشريف [142] يدل على أنه من سلالة النبي صلى الله عليه وسلم، وكان أيضاً من أحفاد السلالة الفاطمية، فكانت له مكانة مؤثرة في العالم العربي.

لكن الشريف حسين لم يكن يتصف بالذكاء والدراية اللذين يتطلبهما الحكم، وكان بذلك سهل الاستغلال. أدرك السلطان عبد الحميد فيه كل هذا، ولما بلغ سمعه اتصال الجواسيس الإنكليز به، دعاه وعائلته إلى إستنبول عام 1891، ولم يتركه طيلة ثمانية عشر عاماً، وتمكن بذلك من عزله وقطع اتصال الإنكليز به.

غير أن الاتحاديين الذين أسقطوا السلطان عبد الحميد عن العرش لم يكتفوا بإطلاق سراح الشريف حسين واثنين من أولاده؛ بل ضموه كمبعوث إلى المجلس العثماني الجديد. وانطلت على الشريف خدعة الجاسوس الإنكليزي لورنس، فقام بتنظيم العصابات التي تشن هجماتها على الجيش العثماني والقطارات التي تنقل الجنود، والسطو على الملايين التي يحملونها معهم.

أود هنا أن أنقل هذه الحادثة المثيرة التي تعود إلى أيام تقاعد الشريف حسين بطل مسلسل الأحداث في منفاه في جزيرة قبرص حيث نفاه إليها الإنكليز بعد استخدامه أعواماً طويلةً، وقد سمعها البروفيسور نوزت يالچين تاش من الرئيس الأسبق للجمهورية القبرصية التركية رؤوف دنك تاش، وأيدها هارون عثمان أوغلو حفيد السلطان عبد الحميد في لقاء لي معه:

كان الشريف حسين قد تلقى وعوداً مغريةً كثيرةً، فوعده الفرنسيون بأن يكون أحد أبنائه حاكماً على سوريا، وآخر حاكماً على دولة جديدة سيصنعونها هي لبنان، وتبقى السعودية له. أي أن البلاد العربية كانت ستكون في حكم عائلة مالكة تحمل لقبه. وعلى الرغم من محاولته الانقلاب على الإنكليز والفرنسيين عندما علم أنهم يستخدمونه وأنهم لن يلتزموا بوعودهم؛ فإن العاهل السعودي تمكن من الانقلاب عليه وإسقاطه

عن العرش، ونجا من القتل بأعجوبةٍ، وفرّ إلى مالطا، ثم استقر في قبرص.

أمضى الشريف حسين بقية حياته في قبرص في سعةٍ من العيش ينفق من الثروة التي حصل عليها من الذهب الإنكليزي. وهناك تعرف إلى رائف دنك تاش والد الرئيس القبرصي الأسبق رؤوف، ونشأت بينهما الصحبة، وكان رؤوف يومها صغيراً يصطحبه والده بين الحين والآخر لزيارة صديقه. وتحدث رؤوف في ما بعد لنوزت يالچين تاش عن ذكرياته تلك، فقال:

" كانت القصة نفسها تتكرر في كل زيارة، يقبل والدي يده، ثم يبدأ هو بالحديث: آه! ماذا فعلت؟ آه! ماذا فعلت؟ أنا الآن أحمل جزاء ما اقترفته يداي، لماذا قمنا بخيانة الدولة العثمانية؟ فالإنكليز كانوا قد وعدوه بأن يصبح ملكاً لبعض العرب، ويكون خليفةً للمسلمين. في وقت كانوا قد استقروا فيه في فلسطين. وكانت الهجرة اليهودية متواصلة إلى أرضها. والفرنسيون ينشرون لغتهم وثقافتهم في سوريا. والإنكليز ينقلون لغتهم وثقافتهم إلى العراق. وهكذا كان الشريف حسين ينفث حسراته عند والدي الذي كان يحاول تسليته ببعض العبارات، وأنا صامت إلى جواره. وذات مرةٍ قال الشريف حسين لوالدي: رائف! حدثني عن أجواء إستنبول . فقد أمضى 18 عاماً في عهد عبد الحميد في إستنبول تحت المراقبة؛ مقيماً في Çamlıca أو Beykoz. م. أ. كانت أسطوانة حجرية تبدأ بالعزف في أثناء حديثه، ثم يجهش بالبكاء وهو يقول: آه أيتها العاصمة إستنبول ! ويحاول والدي تسليته وهو يقول: سيدي الشريف حسين! إنه التقدير الإلهي، فلا تحزن... لقد أخطأت، غير أن هذه الدموع التي تسكب من عينيك تدل على ندمك، وسيغفر الله لك، كفّ عن البكاء . ولا يتمالك والدي نفسه فيجهش هو الآخر بالبكاء. وفي ختام الأسطوانة يتحدثان قليلاً، ثم يهم والدي بالاستئذان مقبلاً يديه، فيناديني الشريف حسين: رؤوف! تعال . ويعطيني يده فأقبلها، ويضع في يدي ليرةً ذهبية. كان الشريف حسين وقتها يتقاضى راتباً تقاعدياً من الإنكليز. م. أ. ولذلك كنت أحب زيارته... ثم مرض الشريف حسين، وكان مرض الموت، وكنا في وداعه في أثناء مغادرته قبرص قاصداً ابنه الأمير عبد الله في عمّان. ثم تلقينا خبر وفاته..." **[143]** .

إن المتورطين في الخيانات، ويقظتهم بعد فوات الأوان، وإدراكهم الفراغ الذي خلفته الدولة العثمانية بعد زوالها... كل ذلك يذكرني ببيت شعري للفيلسوف رضا توفيق، في وقتٍ بلغ فيه استبداد الاتحاديين أضعاف ما زعموه من استبداد عبد الحميد، حتى غدوا عصاباتٍ على شكل قطاع

الطرق، يقول فيه:

"نظمنا الأحلام بخيط مهترئٍ".

نعم! لقد كان السلطان عبد الحميد من أولئك الذين لم تظهر عظمتهم إلا بعد سقوطهم عن العرش، وهنا تكمن المأساة، أليس كذلك؟

لورنس كان ضد الجمهورية أيضاً

لم تتوقف فعاليات الجاسوس الإنكليزي لورنس في حدود إزالة الدولة العثمانية عن الخارطة من خلال خداع العالم العربي ما بين عامي 1916 و 1918 ببريق الليرات الذهبية حيناً، ووعود الاستقلال والذهب حيناً آخر، حيث يظهر أمامنا مرةً أخرى عام 1930 .

فنجده هذه المرة على رأس القوى الخفية التي تحاول تحريض التمرد الكردي الذي انفجر في آغري داغ، ويحاول إشعال الصراع على الحدود بيننا وبين إيران. فبعد القضاء على الدولة العثمانية؛ كان لورنس منهمكاً في الأعمال التي تكبل الجمهورية **[144]** .

عبد الحميد والرقص مع الصهيونية

إن المشكلة هي الصهيونية، وزوالها شرط أساسي للسلام في الشرق الأوسط، والسلام العربي اليهودي في فلسطين مرتبط به [145] .

جون روز

ليست الصهونية كما يعتقدها الكثيرون؛ إيديولوجية سياسية يقبل بها ويتبناها ويدعمها جميع يهود إسرائيل والعالم، بل هي تيار قومي سياسي تولد من رحم الجهود التي كان يبذلها اليهود الأوروبيون للبحث عن وطن لهم، ثم تبلورت في قيام إسرائيل. وفي إسرائيل اليوم جماعات يهودية تعارض الصهيونية، وبعض الجماعات اليهودية الدينية الصرفة ترى فيها انحرافاً عن العقيدة اليهودية الحقة برأيهم، وترى فيها نوعاً من الكفر.

لم يتعرض اليهود في المجتمع الإسلامي إلى النبذ والاحتقار والتمييز في المعاملة كالتي تعرضوا لها في أوروبا؛ لأن الإسلام لا يحمل في بنيانه مقياساً عرقياً، وإذا استثنينا العقوبات التي نزلت باليهود الذين أصبحوا يشكلون خطراً على الحكم كما حدث في طليطلة عام 1066 التي انفجرت فيها الأوضاع ضد اليهود لأسبابٍ معقّدةٍ تختفي خلف الأسباب الظاهرة كما يقول هارولد بلوم [146] ، وما حدث في قصر طوپ قابي في نهايات القرن السادس عشر؛ فإن هذه المقاربة- المعاملة الحسنة الخالية من الاحتقار والتمييز والدونية- كانت سائدة في العصور الإسلامية كلها: في العصر الأموي والعباسيّ والسلجوقي والعثماني. ولو أن أيّ جماعة أخرى مهما كان انتماؤها وجدت في ظروفٍ مماثلةٍ كانت ستنال العقوبة نفسها، فلم يكن هناك تمييز خاص باعتبارهم يهوداً، ومن الواضح أنهم في الظروف الطبيعية لم يكونوا- كما هو ظاهر في أوروبا- بمنزلة قومٍ مضطهدين ومهانين ينبغي تطهير الوجود منهم، واعتبار ذلك من الأعمال الخيّرة؛ لأنهم يهود فحسب... [147] .

واليهود الذين كانوا يطردون من أوروبا كانوا يلتقطون أنفاسهم في الدولة العثمانية التي تفتح أبوابها لجميع الناس، وجميع المعتقدات. ففي عام 1376 تم تهجير اليهود من المجر؛ فتوجهوا إلى العثمانيين، واستوطنوا في عاصمتهم أدرنة. ثم كانت هذه العاصمة من جديد هي العنوان الوحيد لليهود الذين تم طردهم من فرنسا عام 1394، حتى إن الحاخام إسحق سارفاتي يكتب إلى إخوته في الدين رسالةً يدعوهم فيها إلى اللجوء إلى الأراضي العثمانية، يقول لليهود الفرنسيين في رسالته (المحروق طرفها):

إن تركيا، إن شئتم، بلد مبارك، يمكنكم أن تنالوا الطمأنينة والسعادة فيها، والطريق إلى الأراضي المقدسة مفتوحة من هنا. والعيش تحت سلطة المسلمين أفضل من العيش تحت سلطة النصارى، أليس كذلك؟! كل امرئٍ هنا يمكنه أن يعيش بسعادة تحت ظل الشجرة التي يغرسها. وتستطيعون أن تلبسوا الزينة التي تشاؤون، بينما تضطرون إلى إلباس أولادكم الألوان القاتمة كالبؤساء، وتخشون من الألوان الزاهية الحمراء والزرقاء التي تحبونها؛ خوفاً من تعرضهم للإهانات والضرب في نير النصارى... فلِمَ النوم يا إسرائيل؟! لِمَ النوم؟! ولماذا هذا الصمت؟! قوموا واهجروا هذا البلد المشين فرنسا **[148]** .

نعم، لقد كان الإسلام يقدم لليهود بعد خروجهم من مصر أرقى مجتمعٍ مدنيٍّ يمكنهم أن يجدوا فيه العيش الكريم. وما وجدوا سوى الذل والهوان في أوروبا؛ إذا استثنينا منها فترة الحكم الإسلامي في الأندلس [149] . فالصهيونية لم تعرف نشأتها في العالم الإسلامي، بل انبثقت من رحم المجتمعات الأوروبية؛ كحلٍّ للمشكلة اليهودية فيها، فكانت حلاً لمشكلةٍ أوروبيةٍ صرفةٍ.

اللاسامية واليهود عندنا

لقد وجدت معاداة السامية - اللاسامية - طريقها للظهور في أوروبا عندما بدأت تسود فيها الأفكار القومية. ففي ألمانيا ظهرت قومية الفولك التي تعتبر العرق الجرمني عرقاً نبيلاً، وسادت في مجتمعاتها التصرفات التي تنم عن تبجيلها، وقام النازيون بتصنيف الأعراق البشرية الأخرى التي تعيش على وجه الأرض إلى طبقات، احتل فيها اليهود والغجر وأمثالهم الطبقة الدنيا فيها. وكان من الخير في نظرهم تطهير الأرض منهم خدمةً للإنسانية، وقامت على إثرها، على الأرجح، غيتوات اليهود - الأحياء المغلقة التي يعيش فيها اليهود - وتم حصارهم فيها، فلا يخرجون إلا بإذن خاص.

في حين كان اليهود في خاص كوي وسط إستنبول، وسلانيك، وإزمير، وبهجة سراي، ومنيسا، وبورصة... يتمتعون بعيشٍ رغيدٍ، مارسوا فيها حياتهم التجارية، ونالوا في الحياة الاقتصادية كثيراً من الامتيازات لم يتمكن من نيلها المسلمون. ولذلك نرى الثروة الكبرى في النظام العثماني تتركّز في أيدي الصاغة اليهود. ولا بد هنا من أن نبين أن انتقال اليهود من الزراعة إلى التجارة كان بفضل الانقلاب الاقتصادي الذي أحدثه الإسلام في الحياة الاجتماعية. فبتأثير الإسلام وترغيبه في التجارة نشأت الحركات السياسية والاجتماعية التي قامت على أساسها المدن الحديثة والتي فتحت أبوابها

لليهود.

وانتشرت اللاسامية في ألمانيا وفرنسا بشكل خاص. ويأتي بيان الروائي الفرنسي إيميلا زولا باسم: J'accuse : أتّهم، في 13 كانون الثاني 1898، والذي تناول فيه الدعوى المشهورة باسم دريفوس مثالاً لمعاداة السامية التي تختلج في أعماق المجتمع الفرنسي. وقبل أن ننسى، نذكر هنا أن العقيد دريفوس لم يعلن عن براءته، ولم ينجُ من الأسر إلا بعد خمسة أعوام أمضاها منفرداً في سجنه في جزيرة الشيطان القريبة من غوايانا القريبة من جزيرة غوانتنامو التي يسجن فيها المتهمون بالقتال ضد الولايات المتحدة الأميركية؛ وكانت مستعمرة فرنسية. م [150] .

اشتدت العداوات ضد اليهود متزامنة مع انتشار اللاسامية في أوروبا، فتمت الاعتداءات على أماكن إقامتهم، وأحرقت قراهم في روسيا وأوكرانيا من دون توجيه اتهام إلى أحد أو محاكمة أحد، وبقيت ضد مجهول، واستمرت هذه الأوضاع حتى نهايات القرن التاسع عشر لتغدو المشكلة اليهودية في أوروبا، وتتولّد في الأشكيناز الجدد من اليهود الأوروبيين جهود لتوحيد القوى والبحث عن هوية جديدة.

تحركات ثيودور هرتزل من أجل فلسطين

عقد المؤتمر الصهيوني الأول عام 1897 في مدينة بازل السويسرية برئاسة ثيودور هرتزل مؤلف كتاب Judenstaat Der ؛ الدولة اليهودية قبل عام من ذلك التاريخ. وكانت فلسطين في تلك الأعوام من الأراضي العثمانية التابعة لولاية سوريا، يعيش فيها ما يقارب عشرين ألف يهودي من السفاراد، أي اليهود المهجّرين من إسبانيا. فتزايد الضغوط على اليهود الأوروبيين دفعهم للبحث العاجل عن بلدٍ جديدٍ لهم. ولأنهم يعلمون أن أحداً لا يمكنه أن يمنحهم وطناً؛ اجتمع أغنياء اليهود، وعائلة بانكر المشهور، وروتشيلد؛ لشراء أراضٍ وتوطين اليهود فيها، وتوجهت أنظارهم إلى أرض الميعاد فلسطين [151] . وقد بقي ثيودور هرتزل فترة من الزمن يفكر في قبرص وطناً لليهود مستلهماً ذلك ربما من يساف ناسي [152] . ويذكر في المصادر أيضاً أنه كان بين أعضاء المؤتمر الصهيوني من يرى في المستعمرة الفرنسية في أوغندا ما يمكن أن يكون موطناً لليهود. وعلى الرغم من أن طلب شرائها لقي القبول؛ إلا أن أنظار الصهاينة في المؤتمر عادت فتركزت على فلسطين. وكان لا بد من التوجه إلى الدولة العثمانية؛ ولو كانت في موقع الرجل المريض ، وإلى السلطان عبد الحميد.

ينبغي لنا ألاّ ننسى أبداً أن يهود أوروبا، أي الأشكيناز، هم الذين أقاموا إسرائيل، وهم الذين يقودونها، وليسوا يهود بلادنا. واليهود الشرقيون يعاملون في إسرائيل كأبناء بالتبني. وهذا السلوك معهم يجري أيضاً في مجال البحث التاريخي، فالخبراء ينظرون إلى دراسات الشرقيين على أنها ما زالت تحبو كالأطفال مقارنةً بأبحاث اليهود الأوروبيين **[153]** .

حساسية عبد الحميد الثاني في فلسطين

من خلال قراءتنا ما كتبه ميم كمال أوكة في كتابه الصهيونية وقضية فلسطين في الصراع بين الحضارات [154] ، نستطيع أن نرى بشكل موسع مقاومة السلطان الأخير ضغوط الدول العظمى في سبيل إقامة دولة إسرائيل.

لم يتمكن ثيودور هرتزل مؤسس الحركة الصهيونية، والمؤسس الحقيقي لدولة إسرائيل؛ أن يقابل السلطان إلا مرةً واحدةً من زياراته الخمس التي قام بها إلى إستنبول ما بين عامي 1896 و1902 لإقناعه بتوطين اليهود في فلسطين، وكانت النتيجة في كل مرةٍ عقيمةً، وأدرك أنه لن تقوم لإسرائيل قائمة في فلسطين ما بقي السلطان عبد الحميد على العرش.

في المرة الأولى حاول ثيودور هرتزل أن يتقرب من السلطان عبد الحميد بعرضٍ قدّمه عن طريق الكونت ليونسكي:

نقل الكونت ليونسكي إلى السلطان عرضاً مالياً من هرتزل، يساوي خمسة ملايين ليرة ذهبية؛ تكفل القسم الأكبر منه إدموند روتشيلد. وكانت أعباء الخزينة يومها تقدر بعشرين مليون جنيه إسترليني، مما يدل على أن هذا العرض كان كبيراً في الواقع، وكانت الحاجة ماسةً إليه، إذ كانت الدولة التي ورثها السلطان عبد الحميد قد أرهقتها الديون، وأعلنت عام 1881 قرار شهر محرم؛ أن خزينتها عاجزة عن سداد الديون الخارجية، أي أعلنت إفلاسها، وفي الأعوام التالية تسببت المبالغ التي صرفت في تصفيات الديون بأزمةٍ ماليةٍ خانقةٍ.

رد فعل عبد الحميد

على الرغم من أن العرض كان في زمن عصيب؛ فإن رد فعل عبد الحميد كان قاسياً جداً، ولهجته شديدةً حقاً:

" إن كان هرتزل صديقك كصداقتك لي؛ فقل له ألاّ يخطو خطوةً أخرى في هذه القضية، فإنني لن أبيع شيئاً من التراب ولو كان شبراً؛ لأن هذا الوطن ليس ملكاً لي، بل هو أمانة لأمتي؛ نالته بالدماء، وسوف نرويها بدمائنا قبل أن تنفصل وتبتعد عنا، لن يتمكن أحد من اقتطاع مثل هذه الأرض قبل أن نرويها بدمائنا، وتبقى لنا. إن جنود ألويتي في سوريا

وفلسطين سقطوا شهداء، وثبت الجميع هناك في الميدان بلا عودة. إن الإمبراطورية التركية ليست ملكاً لي، إنها ملك للأمة التركية. لن أتنازل عن أيّ قطعة منها، فلندع اليهود وليحتفظوا بملايينهم، وعندما تتمزق إمبراطوريتي فقد يحصلون على فلسطين بلا مقابل. يمكنهم أن يمزقوا أجسادنا، ولا يمكنني أن أسمح بتشريح جسدٍ وهو على قيد الحياة " **[155]** .

نيولينسكي من رجالات عبد الحميد

كان للسلطان عبد الحميد بعض من يثق بهم من الخبراء الأجانب، والنبيل الهولندي الكونت نيولينسكي من هؤلاء الخبراء. وهو في الأصل عضو في جهاز عبد الحميد لتسقّط الأخبار. وبعبارة أخرى: عضو في جهاز الاستخبارات، أو جاسوس يتجول في قاعات استقبال الطبقات الراقية، ويرفع تقاريره بما يدور هناك إلى السلطان. حتى إنه أصدر صحيفة تدافع عن مصالح الدولة العثمانية في أوروبا بأمرٍ من السلطان عبد الحميد .

وهذه بضع عباراتٍ من الطلب الذي قدّمه نيولينسكي إلى عبد الحميد في 23 آذار / مارت حسب التقويم العثماني 1897 :

" لا يمكن إصلاح الأوضاع المالية للحكومة السّنية من دون دعمٍ من رأسمال اليهود. وأصحاب رؤوس الأموال هؤلاء، لا يطلبون سوى إذنٍ بالسماح بإقامة مستوطناتٍ في قسمٍ من فلسطين تحت الإدارة العثمانية... ولن يمارس اليهود أيّ عملٍ سياسيٍّ... وبمجرد قبول الذات الشاهانية - السلطانية - استعداد اليهود فإنه يكون قد اكتسب المعونة النقدية من الرأسماليين الكبار في العالم - ربما يقصد بذلك البارون روتشيلد - والمعونة المعنوية للصحف الكبرى التي يملكها اليهود في أوروبا. وهذا أمر لا يمكن تجاهله خصوصاً في مثل هذه الظروف **[156]** .

لا يمكننا إلا أن نستخرج من هذه الأقوال التي تهزّ الأعماق؛ صورة حاكمٍ مدركٍ لمسؤوليته، حائزٍ لأهلية إدارة قلعة الإنسانية الأخيرة، وقورٍ محبٍّ لوطنه.

وأخيراً، نحن في عام 1901، يتمكن هرتزل من مقابلة السلطان، ويجري على لسانه هذه الأقوال باختصارٍ:

نحن في أوروبا مضطهدون، ونتعرض دوماً للأذى، ولا نملك فيها حياةً إنسانيةً كريمةً. وأنتم دولة كبيرة، فتحتم لنا أحضانكم في الماضي - يشير إلى السفاراد عام 1492 - وقد أمضى اليهود تحت أجنحتكم حتى الآن حياةً كريمةً سعيدةً. نرجو منكم ألاّ تحرمونا منّتكم علينا. واسمحوا لنا بالقدوم

إلى فلسطين، ونعمل يداً بيدٍ على إنهاض الدولة العثمانية؛ بثرواتنا، وقدراتنا التقنية، وطاقاتنا البشرية الناضجة. أنتم تريدون إنشاء السكك الحديدية، وتطوير التعليم، والنهوض الاقتصادي وغير ذلك، ونحن نستطيع تمويلها، فلنطور علاقاتكم بالدول الأوروبية؛ وعلى رأسها ألمانيا، ولنكن عوناً لكم في أي عملٍ ترغبون في القيام به. يكفي أن تخصصوا لنا قطعة أرضٍ في فلسطين. نعيش فيها أحراراً كما نريد؛ بعيداً عن الضغوط الأوروبية، وعلاقاتنا الخارجية تكون مرتبطةً بكم...

وتتعاقب إشارات الاستفهام في رأس السلطان عبد الحميد:

إن المشكلة اليهودية مشكلة أوروبية صرفة، وليست مشكلة العالم الإسلامي، فلماذا يبحث عن حلها بإصرارٍ على ترحيلهم إلى الأراضي العثمانية، ولا يجري حلها في البنية الأوروبية؟! لماذا يتشبثون بالحل في البنية العثمانية؟! الإبادة تجري في أوروبا، والتمييز ضدهم هناك، ويتحمل العالم الإسلامي الفاتورة، ألا يدفع ذلك للتفكير؟! [157] .

ولنقرأ عن اللقاء نفسه مرة أخرى في كتاب ميم كمال أوكة:

قام الدكتور هرتزل، الذي تحدث إلى السلطان عبد الحميد الثاني عما يلاقيه أبناء عرقه من الظلم في البلدان الأوروبية، في البداية؛ بتقديم شكر اليهود في العالم على حسن المعاملة والعدالة التي يلقاها الأتباع الموسويون للسلطان... وذكّره بأن الدولة العثمانية تملك طاقة اقتصادية متقدمة مشيراً إلى البترول في ما بين النهرين، وخامات الذهب والفضة، والتربة المعطاءة. غير أن هذا الغنى كله يجري استغلاله من قبل الدول الأوروبية .

فنرى أن الأب الكبير للصهيونية في حضرة السلطان يقدم شكواه على الغرب، وأن سلامة الموسويين وأمنهم لا يمكن تأمينهما إلا في الأراضي العثمانية، وأنه يمكن تأمين خلاص الدولة العثمانية من خطر التمزيق باستغلال معارف هؤلاء الموسويين وطاقاتهم وإمكاناتهم.

ويتحدث هرتزل في مذكراته عن عرضه، فيقول:

" كان لا بد لنا من تخصيص عشرين مليون جنيه إسترليني لتأمين سلامة المالية التركية. واعتماداً على عائدات فلسطين السنوية التي تقدر بثمانين ألف ليرة ذهبية؛ يمكن إنقاذ تركيا من الديون العمومية، أي من تسلط الأوروبيين، بمليوني جنيه إسترليني .

وكان يمكننا تأمين فسخ الديون العمومية من خلال رفع الفوائد، أو إطالة أمد سنداتها من الفئات: أ، ب، ج، د. وهذا يعني إنقاذ الدولة العثمانية من بلاء كبير " **[158]** .

وهذا هو النص الكامل للبرقية التي أرسلها هرتزل في 13 آب 1899 من بازل إلى عبد الحميد:

جلالة السلطان عبد الحميد خان :

إن الكرم العالي الذي يبديه لتابعيه من اليهود؛ يوجب علينا تقديم الشكر والامتنان النابعين من الأعماق إلى حضرة السلطان عبد الحميد خان. والصهيونيون يأملون منكم أن تخفّوا لإغاثة إخوانهم التعساء في البلدان الأوروبية المختلفة، وإيداعهم أمانةً لعظمة الإمبراطورية العثمانية وكرمها. وهم على ثقة تامة بأن مقصدهم المخلص هذا سينال تشجيعاً من الخليفة بما له من شخصية الحاكم [159] .

لن أبيع أي شبرٍ من تراب الوطن

لن أبيع أي شبرٍ من تراب الوطن! لن أبيع شيئاً من الأرض، ولو كان شبراً؛ لأن هذا الوطن ليس ملكاً لي بل لأمتي، وقد نالته بالدماء ...

السلطان عبد الحميد

لقد كان في الواقع خطاباً سليماً في منطقه، وكان ينتظر من السلطان الاستسلام لهذه الخطوة التي خطط لها بذكاء؛ غير أن ما كان منتظراً لم يقع، فقد أصغى السلطان عبد الحميد باهتمام إلى هرتزل وعرضه المغري الذي يتضمن إقامة حكمٍ ذاتيٍّ لليهود في فلسطين مقابل تحويلات مالية للبنوك اليهودية لسداد الديون العثمانية في أوروبا مما يمنح الدولة العثمانية فرصة التقاط الأنفاس، وردّه باعتباره خطراً يهدد مستقبل الدولة. ربما يتملكنا الفضول لمعرفة حجم الدقائق القليلة التي سيشعر ليبيراليونا بأنهم يحتاجون إليها للتفكير في قبول عرض مغرٍ كهذا العرض حول القضية القبرصية.

كيف ردّ السلطان عبد الحميد طلب ملك الصرب المتعلق بالأراضي؟

كان ميلان أوبرافيتش أمير الصرب قد تقدم بطلبٍ لشراء قلعة إز ڤ ورنيك عام 1879 إلى السلطان عبد الحميد، فرده بهذه الكلمات :

أحبكم، وأود أن ألبّي طلبكم، غير أن كل شبرٍ من الأرض التي تطلبونها قد أخذت بدماء أفراد الأمة. ولا أملك الحق ولا الصلاحية اللذين يخوّلانني أن أحسن بها إليكم [160] .

وفي وثائق يلدز رسالة لملك الصرب نفسه باللغة الفرنسية إلى السلطان عبد الحميد، يلتمس منه العون في قضية عائلية. وقد عادت موضوعاً لخبر في جريدة كبيرة قبل خمسة أعوام، عقب قول المطرب الصربي والفائز الثاني في نهائيات التلفزيون الأوروبي زليكو يوكسيمو ڤ يتش: إنه "سيعطي جواباً

لعبودية الصرب 500 عامٍ تحت الاحتلال التركي " [161] .

عبد الحميد يدق ناقوس الخطر

ولا يتوقف الأمر عند هذا الحدّ، حيث يتقدم عبد الحميد هذه المرة بعرضه للصهاينة بدهاء يسمح فيه لليهود بأن يقيموا في أيّ بقعةٍ من أراضي الدولة العثمانية خارج فلسطين؛ مقابل توحيد الديون العثمانية. كان يقول لهم: "أبوابنا مفتوحة"، لكن الصهاينة لا يريدون أيّ أرضٍ، بل أرض فلسطين، ورفضوا بدورهم عرض السلطان. وهكذا بدأت اللعبة.

فهم- أي الأوروبيون- يطردون اليهود من أراضيهم، ويعملون على توطينهم في فلسطين، ويبحثون عن تأمين مصالحهم من خلال ذلك. وعبد الحميد يدرك هذا النفاق في السياسات الروسية والألمانية، فلا يتأخر أبداً عن العمل السياسي، وتطوير السياسات المقابلة.

ولم يتأخر عبد الحميد في إدراك النفاق الذي تمارسه الدول الأوروبية الأخرى مقابل الضغوط التي تقوم بها روسيا وألمانيا على الدولة العثمانية في سبيل توطين اليهود في فلسطين. فهذه الدول التي تسببت بتفاقم المشكلة اليهودية تقوم بضغوطها على الدولة العثمانية في سبيل إعادة تجميعهم وتوطينهم في أراضيها بعد تهجيرهم من أوروبا، ثم استخدامهم كأداة للضغط عليها من الداخل؛ كل ذلك دفع السلطان اليقظ إلى الحذر، وإلى رفع البطاقة الحمراء، واتخاذ التدابير الوقائية المتلاحقة، ومنعهم من شراء الأراضي. وبذل ما في وسعه من أجل تصفية الديون المتراكمة من زمن والده السلطان عبد المجيد، واتخذ التدابير المالية الصارمة، غير أنه لم يتمكن من ذلك.

قدّر السلطان عبد الحميد هذا النشاط والحماسة اللذين يبديهما هرتزل- هذا الشاب ذو العقد الثالث من عمره- في سبيل ملّته ووطنه، وقدم له أرفع النياشين- وكان ذلك كافياً لإشباع غرور هرتزل- يعلقه على صدره في قاعات الاستقبال في أوروبا. وكان لا بد لهذه الرشوة ما يقابلها: 1- العمل على تخفيف الضغوط عن تركيا في المسألة الأرمنية. 2- دعوة هرتزل إلى مباحثات رو ڤ يير حول العرض المالي في مشروع جديد للقروض؛ حتى لا يبقى الفرنسيون بلا منافس. سيدرك هرتزل في ما بعد أن عبد الحميد استخدمه لتسخين المفاوضات الجارية حول الديون، ويغضب . 3- إرسال البرقيات إلى السلطان من المؤتمرات الصهيونية. 4- إرسال مراقب للمؤتمرات الصهيونية، وتلقي المعلومات عن المشروعات التي يخطط لها ضد الدولة العثمانية من المقام الأول في الحركة [162] .

لقد كان عبد الحميد ينظر بفكره إلى البعيد، فيضع حداً قاطعاً لإمكانية الارتماء في أحضان التبعية الأوروبية، أو الاستسلام للثروة اليهودية في حال قبوله العرض؛ فيرفض الدخول في مثل هذه العلاقات المنحرفة على الرغم من الحاجة الراهنة إليها.

ولكن، هل انتهت محاولات الصهاينة والمحاولات الأوروبية في سبيل إقامة دولة يهودية على أرض فلسطين؟! للأسف، لم تنقطع تلك المحاولات، وكان لا بد من انتظار الوقت الذي يحشر فيه عبد الحميد في الزاوية القاتلة، وكان لا بد من العمل على تأمين تلك الفرصة...

الحملة المضادة

لقد كانت الخطوة الحميدية المضادة التي مرّ ذكرها قد خطّط لها بدهاء. فقد كان يدرك أن الصهاينة يطلبون فلسطين بإصرار، وأنهم إن دخلوها مرة، فلن يخرجوا منها أبداً. وكان لليهود ما يكفيهم من الدهاء أيضاً حتى يرفضوا عرض السلطان. فهم يطلبون معاملتهم وفق ما حصل في عهد بيازيد الثاني عندما استقبل اليهود الإسبان في أراضيه، وسمح لهم بالإقامة حيث يريدون. غير أن الظروف مختلفة تماماً، والحياة ليست سوى مسرحٍ كوميديٍّ عندما يكرر التاريخ نفسه؛ كما يقول ماركس. ولن يسمح السلطان عبد الحميد بإقامة تجمّعٍ يهوديٍّ على أرض فلسطين أياً كانت العروض؛ ما دام فيه عرق ينبض.

توصل الصهاينة عقب وصول اللقاءات إلى طريقٍ مسدودٍ إلى أن: "هذا الأمر لن يتم عن طريق عبد الحميد، ولا بد من العمل على عزله عن الحكم، واستبداله بمن يناسبهم". ولذلك لم يُخفِ الصهاينة الأوروبيون فرحهم عندما نجحت جمعية جون تورك- تركيا الفتاة- في الانقلاب على السلطان عبد الحميد عام 1908، فقد كان العقبة الكأداء في طريق مشروع إسرائيل الكبرى.

لقد دعم الصهاينة انقلاب جون تورك؛ تركيا الفتاة 1908، وتمنوا من أعماق قلوبهم أن يستولي الاتحاديون على الحكم، فقد كانت علاقة الصهاينة وثيقة بهم في سنوات المعارضة؛ أملاً أن تفتح لهم أبواب الحرية على مصاريعها في الدولة العثمانية بعد عبد الحميد.

وليس لنا أن نمضي قبل أن نلقي نظرة على مذكرات السلطان عبد الحميد السياسية:

لا يمكن لزعيم الصهاينة هرتزل أن يقنعني... أنه يطلب مني أرضاً لإخوانه في دينه. غير أن الذكاء وحده لا يكفي لحل كل شيء. فالصهاينة لا

يريدون الاكتفاء بالعمل الزراعي في فلسطين، بل يريدون أموراً أخرى؛ كتشكيل حكومة، واختيار ممثليهم السياسيين. وهم وإن قالوا: إنهم جياع، يريدون إشباع بطونهم، والعمل بما يسد حاجتهم كمزارعين؛ فإن لعبد الحميد مصادره القوية للمعلومات، وله رجالاته في المؤتمرات الصهيونية، والمعلومات التي تلقاها من رجالاته الذين دخلوا المؤتمر كأنهم نواب تبين النيات القاطعة المبيتة على إقامة دولة يهودية في فلسطين. م. أ . وأعلم جيداً ما ترمي إليه هذه التصورات الحريصة. لكن الصهاينة يكونون سذّجاً إن كانوا يظنون أنني سأتقبل محاولاتهم. فأنا عدو لتصوراتهم التي يبنونها عن فلسطين؛ بمقدار ما أوليه من العناية والتقدير لليهود في إمبراطوريتنا باعتبارهم أفراداً مواطنين، ولخبراتهم في خدمة الباب العالي. فهناك يهود يعملون كمترجمين، ويقومون بأعمال أخرى في الجهاز البيروقراطي. وعبد الحميد يحدثنا منذ ذلك الوقت المبكر ما يمكن أن يكون عليه الأمر إذا قامت دولة إسرائيل. م. أ. في إمبراطوريتنا أراضٍ فارغة يمكن استيطانها، تحتاج إلى ترتيب مناسب للهجرة. ولكننا لا نرى أن الهجرة اليهودية مناسبة لنا. فقد ولّت العصور التي نغرز فيها الأجانب من غير ديننا كالشظايا في أجسادنا. فلا يمكننا أن نقبل في حدود دولتنا إلا من كان من ملّتنا ويشاركنا في معتقداتنا الدينية **[163]** .

إن هذه الأقوال لا تظهر السلطان كما يبدو- في نظرة سطحية- أنه معادٍ لليهودية، أو معادٍ للسامية، **بل تدلّ على أنه يستند إلى فلسفة دولة عميقة متماسكة** . والأمر الغريب؛ أن الأقوال السابقة الآمرة **أثارت مشاعر هرتزل بقدر ما أغضبته** ، وكان هرتزل على الرغم من عداوته للسلطان يمنحه الحق في حبه للوطن، ويعبر عن حيرته وإعجابه، ولا يستطيع أن يمتنع عن تسطير هذه الكلمات في دفتر مذكّراته:

إن أقوال السلطان هذه، والتي تعكس عظمة رجل الدولة الحقيقي، أثارت مشاعري على الرغم من أنها أطفأت كل آمالي في لحظة واحدة. ففي هذه التسليمية للأقدار، وما فيها من الرضى بالموت؛ جمال مأساوي. في حين يبدي الوجه الآخر من الميدالية إرادة النضال حتى النفس الأخير، ولو كان على شكل مقاومة ضعيفة .

لقد كان هرتزل يكتب عن رقصه فوق البيوض، في الوقت الذي كان فيه عبد الحميد يراقص الذئاب. وكان لا بد من أن يكون جزاؤه أيضاً ثقيلاً...

الصهاينة اتخذوا قراراً بشراء صحف في إستنبول

هلك هرتزل، ولما يتجاوز الرابعة والأربعين من عمره، وسار على دربه في النضال الصهيوني من جاء بعده.

أدرك اليهود صعوبة الصراع مع رجل تجمعت في عهدته صلاحيات الحكم كلها، واعتقدوا أنه في ظل مشروطية؛ أي في مجلس يوجد فيه نواب يهود يمكن أن يسهل فيه قبول توجههم ومطالبهم في فلسطين؛ ولذلك كانوا من دعاتها المتفائلين بها. فأقام الصهاينة الأوروبيون علاقات مع اليهود المستثمرين في صحف إستنبول، وعملوا على التأثير في الرأي العام العثماني، حتى إنهم فكروا في شراء الصحافة في إستنبول بالأموال التي تركها البارون هيرش على ما يذكره هرتزل في مذكراته.

كان إيمانويل قرة صو في الوفد الذي بلّغ السلطان عبد الحميد بقرار عزله عن العرش كما مرّ سابقاً، وكان ماسونياً ويهودياً من يهود أرناؤوط، وكان نائباً في مجلس المبعوثان ، وكان بذلك يعتبر مكسباً هاماً للصهيونية.

كانت الفوضى تسيطر على الباب العالي ما بين عامي 1908-1913، وكانت تهب أجواء الحرية في البلاد في الظاهر، غير أن فريق الاتحاد والترقي وضع يده على الباب العالي بقوة السلاح عام 1913، وقامت في البلاد حكم عصابات وقطاع طرق، واستبداد جعل الناس يترحمون على استبداد عبد الحميد؛ وقد عزلوه عن عرشه بدعوى "حكمه المطلق"، و"المستبد"، و"الظالم"، و"السفاح". وأعلنت مجموعة الاتحاديين الذين سيطروا على الباب العالي نظام الحكم العرفي الذي تحدث عنه بديع الزمان سعيد النورسي في كتابه ديوان الحرب العرفي ، وعلّقت مشانق الكثيرين في ميدان بيازيد؛ على أنهم جواسيس وأعوان الاستبداد وما شابهها من التهم؛ ليكونوا عبرةً للعالمين، وبقيت أجسادهم معلقة حتى انتفخت وفاحت منها روائح النتن. وعاشت الإمبراطورية أيام التصفيات الجسدية للناس؛ والصحفيين في بعض الأحيان؛ من قبل اللجان في الشوارع في إطار مزاعم التطهير.

في هذه الظروف التي تعمها الفوضى والخوف والاضطراب؛ تنطلق هجرة اليهود السرية إلى فلسطين. وكانت محاولات الهجرة الجماعية قد جرت في عهد عبد الحميد، إلا أن التدابير التي اتخذها قد حالت دون تمامها، أو حدّت على الأقل من فرص نجاحها. وبدلاً من الهجرة مباشرة إلى الأراضي العثمانية كانوا ينتقلون إلى تابعية أوروبية أخرى، ثم يقومون بالخطوة التالية إلى فلسطين كمواطنين أوروبيين مستفيدين من امتيازاتها هناك. يتوجهون إليها للتجارة، وما إن تدوس أقدامهم بر فلسطين حتى يستقروا فيها بلا عودة. فارتفع عدد السكان اليهود في فلسطين من حوالى

عشرين أو خمس وعشرين ألف يهوديٍّ من السفاراد السكان الأصليين إلى 125 ألفاً بسبب هجرة الأشكيناز الأوروبيين خلال خمسة عشر إلى عشرين عاماً. وبارتفاع منسوب الهجرة اليهودية (الأشكيناز) وسرعتها، ازدادت أعمال احتلال الأراضي وسرقتها من أصحابها، والغارات على القرى الفلسطينية، واشتعل فتيل أكبر مأساة في التاريخ المعاصر [164] . وإن أردنا الاختصار، فإن المصائب التي حلت برأس الدولة العثمانية تمثلت في المسرح الفلسطيني بشكل خاص [165] .

انتهت الحرب العالمية الأولى عام 1918 بسقوط الدولة العثمانية كغيرها من الإمبراطوريات، وكانت القيصرية الروسية قد ودعت الحياة قبل عام من ذلك، والأراضي المقدسة في فلسطين تم احتلالها من قبل الإنكليز، وأعلن الصليبيون انتقامهم من صلاح الدين الأيوبي في كانون الأول عام 1917. ودخل الجيش الإنكليزي بقيادة الجنرال اللنبي القدس، وأصبحت فلسطين تحت وصايتهم، وشكّلت فيها حكومة انتداب، وبدأت الهجرة اليهودية المنظمة، وتم تقديم التسهيلات كلها للمهاجرين، وخصّصت الأراضي، وفتحت الأبواب أمام شراء الأراضي، وألقيت بذرة دولة إسرائيل. وبعد تأمين البنية التحتية، انسحبت القوات الإنكليزية بحجة الأعمال التخريبية والإرهاب اليهودي.

وكان السلطان عبد الحميد قد أبدى ردّ فعله هذا؛ في مواجهة الضغوط الأوروبية من أجل توطين اليهود في فلسطين:

"إنكم تستخدمون اليهود لممارسة الضغوط علي، وتسعون لطردهم إلى بلادي، وكأنه لا يكفيكم أنكم لم تعملوا على توفير الأمن لهم في أراضيكم؛ في تصرف يبدو كمن يفرض عليك ضيفاً ويدخله بيتك بالقوة، ثم يحاسبك بين الحين والحين: لماذا لا تعتني بضيفك؟".

هذا الرأي العام الأوروبي ذو الوجهين ما زال يعاني نكبة العمل السياسي ذي المكيالين، فبينما هو في أعماقه يعيش عقدة الذنب في قيام دولة إسرائيل؛ يستطيع أن يراقب بدمٍ باردٍ كل المظالم التي تمارسها إسرائيل على الشعب الفلسطيني.

وأياً كان الأمر، فقد نجح الأوروبيون في ترحيل المشكلة اليهودية إلى العالم الإسلامي. ولم يكن لهذا الحل أن يتم إلا برحيل عبد الحميد، وقد تم...

السلطان عبد الحميد والساموراي

على متن سفينة أرطغرل؛ كانت الباندو بأعضائها الخمسين تعزف الميكادو ومارشات السلطان عبد الحميد... في حفل يلتقي فيه أبناء الشمس والهلال بما يحملونه من روح الشرق تحت السماء الصافية، كأصدقاء التقوا فجأة بعد غياب طويل .

ضياء شاكر

عندما دخلت، كان السلطان جالساً إلى الطاولة الكبيرة التي تحتل منتصف القاعة مسمّراً عينيه على خارطة كبيرت النافرة. وعلى الخارطة نصبت الأعلام الروسية واليابانية مشيرة إلى توزع قواتهما. ويجري باستمرار تبديل مواقع الأعلام بناءً على أحدث المعلومات الواردة من ساحة المعركة الدائرة بينهما. وبعد أن أمرنا بالجلوس على الأرائك المذهبة إلى يمين الطاولة ويسارها؛ سأل بغنام باشا عما إذا كانت الأعلام مثبّتة في أماكنها الصحيحة . [166]

هذه الجمل التي نقلناها باختصارٍ تعود إلى رؤوف أورباي أول رئيس للوزراء في عهد الجمهورية. كان وقتها في مطلع العقد الثاني من عمره، ضابطاً في البحرية، يعمل مرافقاً ومترجماً للأدميرال الأميركي بغنام باشا. وكان الأدميرال لا يقل في حيرته وإعجابه باهتمام السلطان العميق بالحرب الروسية اليابانية؛ عن حيرة هذا الشاب ذي العقد الثاني وإعجابه. كان الأدميرال يقف بإعجاب أمام السلطان الذي يبدو كطاغيةٍ أغلق على نفسه أبواب يلدز؛ متابعاً أحوال العالم عن قربٍ، ومطّلعاً على تطورات الحرب اليابانية في منشوريا، إنه كان يريد أن يقول للشاب البحري: إن عبد الحميد لغز يستعصي حلّه [167] .

يتصل هذا المشهد الذي يمر عليه الكثيرون مرور الكرام، ولا يلقون له بالاً؛ في جذوره بالتربة الغنية للسلطان عندما كان أميراً. فقبل أربعة أعوام من اعتلائه العرش، أي في عام 1872 حين كان في الثلاثين من عمره، دسّ أخوه الشاهزادة مراد- اعتلى العرش قبله باسم مراد الخامس- في يده جريدة الحديقة، فتسمرت عيناه على خبر اشتراك دولة تدعى اليابان في معرض يقام في باريس. فكان اليابانيون سيقومون بأول ظهور لهم في أوروبا من خلال هذا المعرض، فعاد إلى قصره في زينجيرلي كويو متأثراً بهذه الخطوة الكبيرة لليابانيين في طريقهم إلى التطور، ولم يكد يبلغ القصر حتى استدعى طبيبه ومستشاره ما ڤ روياني بيك وطلب منه تقريراً مفصلاً

عن اليابان. ثم أصبحت اليابان نموذجاً عنده لتطور الشرقيين وتمدنهم من دون التضحية بمعتقداتهم وتقاليدهم. وهكذا استطاع عبد الحميد بالمعلومات الغنية التي تسبب بها ذلك الخبر أن يستشف تفوق اليابانيين - بسلوكهم طريق التمدن من غير مساس بمعتقداتهم وتقاليدهم - على الروس وانتصارهم في أيّ حرب قادمة. وكان يعتقد أن اليابانيين سيكونون أصدقاء وحلفاء صادقين. وصادف أن مرّ خمس من الساموراي بإستنبول في طريق عودتهم من أوروبا بعد أن تزودوا من معارفها وما شاهدوه فيها، ثم كانت الفرصة الحقيقية عام 1880 عندما نزل الأمير هيبي من أقرباء الإمبراطور ميكادو ضيفاً في إستنبول، فهل يفوّت الفرصة عبد الحميد؟!

استقبلهم بحفاوةٍ وكرمٍ، وأنزلهم في فندقٍ راقٍ في بي أوغلو، واحتفل بهم في قصر يلدز. وتلقى عبر المترجم معلوماتٍ عن ميكادو واليابان. عبّر أعضاء الوفد عن سرورهم بحفاوة الاستقبال، وعرضوا على السلطان إقامة علاقات تجارية وسياسية بين البلدين، وقامت بذلك أولى العلاقات التي قامت بين الدولتين.

حدث ما تمناه عبد الحميد، فمبادرة اليابانيين توفر له فرصة فرض الشروط التي يراها، فعرض عليهم أن يكون التركيز في البداية على العلاقات التجارية تجنباً لإثارة مخاوف الروس، وعرض على الإمبراطور صداقته الشخصية، وأمّن بذلك فتح العلاقات مع اليابان من دون أن تنصبّ على رأسه صواعق الروس.

ثم سنحت الفرصة الذهبية عام 1887 بزيارة أكيهيتو قريب الإمبراطور. استقبل الوفد بحفاوة مبالغ فيها في قصر دوملة به چ ة. وتلقى عبد الحميد رسالة خاصة وأعلى وسام إمبراطوري من الإمبراطور ميكادو، وتقبله السلطان بكل سرور، ولم يكن يقبل حتى ذلك العهد الهدايا من أيّ دولة غربية، وعين الرسام شاكر أحمد باشا وآخرين ممن يعرف اللغة من مرافقيه في خدمة الأمير. وتجولت الهيئة اليابانية في القصر بما في ذلك الخزينة الهمايونية [168] في الوقت الذي لم يكن يسمح بذلك لأحد من خارج العائلة السلطانية.

بحث عبد الحميد عمّا يقابل هذه الزيارة، حتى وجدها أخيراً في توجّه سفينة عثمانية إلى اليابان.

وبدأت مغامرة سفينة أرطغرل الحزينة التي تحمل الرسالة العثمانية إلى شرق آسيا، إلى اليابان. غادرت هذه السفينة التي أصبحت مصدراً لمعنويات المسلمين في الشرق الأقصى عابرةً قناة السويس، ولما بلغت

سنغافورا رقّي قائدها عثمان بيك إلى رتبة أمير لواء، ثم ألقت مراسيها في ميناء يوكوهاما. وهناك قام عثمان بيك بزيارة الإمبراطور وقدم له الهدايا. خرجت المدينة كلها إلى الميناء لاستقبال السفينة، وعجّت الشوارع باليابانيين، واستقبلوا الضيوف في بيوتهم، وأثارت فضولهم صلاة الجماعة التي أداها طاقم السفينة في إحدى الساحات... ولكن الكارثة التي لحقت بالسفينة المعمرة فتحت في قلوب اليابانيين جرحاً كبيراً يفوق ما أصاب القلوب في إستنبول، وأعلن الحداد، وبدأت حملات المساعدة، حتى إن زوجة الإمبراطور بنفسها تحركت من أجل حياكة الثياب لجنودنا الناجين [169] .

كانت كارثة أرطغرل التي خسرنا فيها 581 بحاراً من نخبة بحارتنا، وسيلة لإرساء الصداقة اليابانية التركية، كما كانت سبباً لموجات الحنان في قلوب الناس تؤمّن الصداقة إلى يومنا هذا. ربما لا يذكر كثيراً شهداء كارثة أرطغرل، إلا أن مشاعر العطف لليابانيين في بلادنا ومشاعر الحنان لأناسنا في اليابان ما زالت في حيويتها كما رأينا في أثناء زيارة كويزومي. وقد استقبل رئيس الوزراء يونيشيرو كويزومي مدراء المدارس التركية في اليابان في قصر الإمبراطور، واهتم بهم [170] . وينبغي لنا هنا أن نذكر أن المعماريَّين اللذين يقفان خلف هذا التيار من العواطف الشعبية النادرة هما: السلطان عبد الحميد، والإمبراطور ميكادو [171] .

ويعيش السلطان عبد الحميد فرحة اكتشاف صديقٍ يعاونه في رقصه مع الذئاب.

نحن والعصرنة اليابانية

للتوسع في بدايات اهتمام عبد الحميد باليابانيين وتطوراته متضمنةً كارثة أرطغرل في بحث يتوجه إلى القارئ العام؛ انظر: ضياء شاكر، السلطان عبد الحميد وميكادو، إستنبول 1994 ، منشورات Boğaziçi ، ص 16 .

وتتناول مقالة سلجوق أسنبل؛ المقابلة بين تركيا واليابان في تاريخ العصرنة ؛ تاريخ البلدين في طريق الترقي والنهضة بشكل متوازٍ، ونظرة إلى المستقبل؛ أكثر من عرضه اليابان كرمز للنهضة العثمانية. إعداد: سلجوق أسنبل، وأ. مراد دمرجي أوغلو، نظرات تركيا في العصرنة اليابانية ، إستنبول 1999 ، منشورات سيمورغ ، ص 9 - 30 . وفي الكتاب نفسه أيضاً مقالة كيهارو يوميكو يركز فيها الباحث على المفارقات بين النهضتين التركية واليابانية أكثر من المتشابهات. (انظر: عقدة العلمانية في المعاصرة اليابانية والتركية: السياسات الدينية في الانقلابين التركي والميجي ، ص 149 - 179).

يحاول ألبير أورتاي في كتابه الاقتراب من الأبعاد المجهولة لأسطورة التمدن

الياباني؛ انظر: أطول مئة عام في تاريخ الإمبراطورية ، ط 3 ، إستنبول 1995 منشورات هيل، ص 18 .

إضافةً إلى مجلة المعرفة والمجتمع 25/26 ، ربيع - صيف، 1984 ، حيث وردت مقالتا حوري جهان إنان، وسلجوق توزاران، بمثابة نقطة تلاقٍ وافتراقٍ في التمدن الياباني والعثماني .

البحث المتميز لرنا وورينغ حول نظرة المثقفين والبيروقراطيين العثمانيين إلى اليابانيين باعتبار الياباني "غربيًا من غير الغرب ":

:?East near the of Japan“ or ”Eorope of Man Sick “
Young and Hamidian the in modernity Ottoman Constructing
. 230 - 202 .pp , 2004 , 36 :No ,IJMES ”eras Turk

من هو السلطان الذي بنى كنيسة في الفاتيكان؟

أواخر القرن التاسع عشر تصادف أعواماً كان للفاتيكان فيها بعض مكانتها السياسية، والدول تتنافس في إيفاد سفرائها، وهذا الوضع لم يكن يغيب عن أنظار تركيا .

طه طوروس

لم يكتفِ السلطان عبد الحميد بالسماح لإقامة كنيس حمدات إسرائيل في Yeldeğirmen في قاضي كوي، إستنبول، بل حال دون العوائق والصعوبات التي حاول الروم- الأعداء الأزليون لليهود- وضعها في طريق إقامة هذا المعبد اليهودي، ولهذا أضاف اليهود اسم عبد الحميد إلى اسم كنيسهم، (وكنت قد كتبت في موضع آخر أنه كان يطلق على الدولة اليهودية حمدي وحميدي [172] . وحميد وحمد في العبرانية لهما المدلول نفسه بالتركية والعربية).

لم تكونوا قد فهمتم الدولة العثمانية أو السلطان عبد الحميد إن كنتم تظنون أن افتتاح هذا الكنيس اليهودي للعبادة عام 1899 مفاجأة واستثناء، فالسلطان عبد الحميد كان يسعى إلى حماية الحقوق الدينية لمواطنيه، ويعمل على إنقاذ اليهود من الانجراف في تيار الصهيونية.



كنيسة سانتا ماريا في جادة الاستقلال، يظهر عند مدخلها اسم عبد الحميد في الأعلى (إلى جهة اليمين). تصوير: سونا Ç a ğaptay .

كما نرى اسمه معلّقاً على مدخل كنيسة سانتا ماريا، نهبط إليها ببضع درجاتٍ في بي أوغلو على يسار الطريق عندما نتوجه من جادة الاستقلال إلى التونيل؛ بسبب المعونات التي قدمها في أثناء بنائها [173] . ويذكر سعيد نعوم دخاني، وهو نصراني لبناني، أن هذا المعبد هو الكنيسة الوحيدة على وجه الأرض التابعة للفاتيكان وتحمل اسم الخليفة أو السلطان [174] .

كما تظهر الوثائق المساعدات النقدية والعينية للسلطان عبد الحميد في إصلاح وبناء دور العبادة للديانات المختلفة داخل الممالك العثمانية، لكن العجيب المدهش أن تمتد المساعدات إلى كنيسة في قلب البابوية.



الواجهة الأمامية لكنيسة سان Ghioacchino في الفاتيكان. تظهر إلى جهة اليمين ميدالية (ممالك عثمانية)، وهي موجودة أيضاً على الطرف اليساري لشريط الكتابة التي تظهر فوق الأعمدة. تصوير أحمد أرنقدم أوغلو.

وأذكر هنا ما كتبه جليل لائق تز في مجلة تسوية التركية يصدرها ماسونيون [175] عام 1995 حول زيارة قام بها إلى روما في عطلة العيد، يبحث خلالها عن كنيسة سان Gioacchino ، التي سمع عن مميزاتها من أستاذه المحترم ضياء أومور. وهناك التقى بكبير الرهبان الأب بينيتو بيساكو المنتسب إلى طريقة ردانتوريستا. أرسيت أساسات الكنيسة في 1 ت شرين الأول 1891، وافتتحت للعبادة عام 1898 واستمرت أعمال الإكساء من بلاط وملاط وغيرها وأعمال الزخرفة حتى عام 1917.

ثم تحدث كبير الرهبان عن معونات السلطان عبد الحميد الثاني للكنيسة، فقال:

لقد قدم السلطان عبد الحميد معونات نقدية وعينية، فمعوناته العينية تمثلت بالزخرفة الداخلية، والخشب المستخدم في الأبواب الخارجية من السَّدر اللبناني .

وكانت الرسائل قد وجّهت عند إنشائها إلى رؤساء الدول للمساعدة على تجاوز الصعوبات المالية، فكان السلطان عبد الحميد بين رؤساء الدول الأربعة والعشرين الذين ساهموا في صندوق المساعدات، ونقشت أسماؤهم بالموزاييك على المرمر في العتبة العليا القريبة من السقف، وكتبت عبارة: المماليك العثمانيون بالأحرف اللاتينية.

ولكن، ما الذي أراده الأستاذ الماسوني جليل لائق تز من نقل هذه المعلومة؟! فالماسونيون كما نعلم يكرهون السلطان عبد الحميد؛ إنه يريد أن يقول: إن السلطان عبد الحميد الذي يدعي بأنه إسلامي؛ له امتداده في الأديان الأخرى، وهو ما يفتح للماسونية باباً... يتضح ذلك من هذه العبارة التي تحاول بدهاءٍ إظهار الرجل الذي صارع الماسونية والماسونيين كنوع من الماسونيين:

حتى إن عبد الحميد كان يفكر بماسونية خاصة تخضع له، وتتمثل بها جميع الأقليات؛ للسيطرة على الشجارات والخصومات التي تنشأ باستمرار، غير أننا نعلم أنه عدل في ما بعد عن هذا المشروع .

وكان الخليفة السلطان عبد الحميد مسؤولاً عن حماية الكاثوليك الذين يعيشون تحت سلطانه [176] . وفي أوراق- الوثائق- الخزينة الخاصة؛ إرادة السلطان عبد الحميد يأمر فيها المتحف الهمايوني بإرسال بعض ألواح المرمر التي تعود إلى العصور النصرانية الأولى في ناحية صنديقلي إلى البابا، يهدف من خلالها المحافظة على حرارة العلاقة البابوية، ويضيف إلى سياسته في التوازن عنصراً جديداً. (انظر: الإرادة الخاصة رقم 1724 بتاريخ 1310 (1884). ولم يكتفِ بذلك، فبلّغ الفاتيكان برغبته في تعيين سفير فيها، وكلف بذلك عاصم بيك وكان وقتها سفيراً في أثينا. (انظر: أرشيف رئاسة الوزراء بتاريخ 1314/1315، 1888-1889، وثيقة رقم 1219 و1138) [177] .

لم يكن لاهتمام السلطان عبد الحميد ببناء الكنائس ودور العبادة على اختلاف تبعيتها أيّ علاقة بالماسونية، أو الميول الكاثوليكية، أو غير ذلك... فقد كان يقوم بما يقتضيه مقامه كخليفةٍ؛ من رعاية مصالح رعيته مسلمين وغير مسلمين كما يأخذ منهم الضرائب جميعاً، فعليه أن يرعى ويحقق مصالحهم الدينية داخل الدولة في الوقت الذي يعمل فيه على بعث رسائل: نحن هنا ، مؤكداً حضوره الدولي، ومعتزماً ترويج تسامح

الدولة مع النصارى في أوروبا، ويأتي في هذا الإطار أنه أراد أن تنتشر رسالة نحن هنا مع أجراس كنيسة المروج في الفاتيكان.

عبد الحميد لا يسمح لأيّ انتقاصٍ لمقام النّبيّ عليه الصلاة والسلام

إن الذي رفعنا في الوجود هو حبنا الكبير لديننا [178] .
السلطان عبد الحميد

من نحن؟!

أتحدث هنا عن حصار الإهانة الكاريكاتورية التي انتشرت من الدانمارك إلى النرويج وألمانيا وفرنسا... منذ أعوام، ونحن ننشغل بها، ويصل الأمر ببعض كتابنا قبل عام إلى دعوة المقاطعة التامة للبضائع الدانماركية [179] .

فهل يمكن أن ننسى ذكر السلطان عبد الحميد ونحن نحس بوطأة هذه الأخبار الخبيثة التي تهب علينا من أوروبا اليوم؟! فقد كان الخليفة هو العنوان الذي لا يخطئ للغيرة الحسّاسة التي تؤمّن احترام وعناية أصحاب الأقلام أو المسرحيات بقيمنا الدّينيّة، وتستطيع أن تمضي رأيها عند قيادات الدّول المعظّمة في أعقد عهود الدولة، وأحرج أوقاتها.

وعندما يذكر عبد الحميد خان الثاني ينبغي لنا ألاّ ننسى وقوفنا أمام سلطان، ورجل دولة يقظ خبير، ومسلم عظيم تهبّ في جوارحه روح الغيرة الإيمانية التي يحرّكها خبر مسرحية ستقام ضد نبينا عليه الصلاة والسلام في فرنسا وإنكلترا وإيطاليا والولايات المتحدة الأميركية؛ فيتدخل بدبلوماسية قوية مؤثرة للحيلولة دونها، وينال مراده. ومن المفيد هنا أن نذكر بشكل خاص جهود سفيرَينا في باريس أسعد باشا وصالح منير باشا [180] .

نقف أمام بعض الحوادث التي تحمل في طياتها عِبراً، ونرى كيف كان السلطان عبد الحميد الثاني يدافع عن نبينا عليه الصلاة والسلام، وعن أجداده من دون أن يخطو خطوةً واحدةً خارج قصر يلدز [181] . فلنقرأ ولنفكر ولنعتبر:

في عام 1890؛ ألّف ماركي دو بونييه من أعضاء الأكاديمية الفرنسية دراما بعنوان **محمد** وسلمها إلى الكوميديا الفرنسية، ووردت الأنباء من الصحافة الأوروبية بابتداء التدريبات المسرحية؛ برو ڤ ا ، وأن ممثلاً سيقوم بأداء دور نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، في مسرحية تحمل في فصولها إهانةً واحتقاراً للشخصية المعنوية للنبي عليه الصلاة والسلام. وما كاد الخبر يبلغ مسمع عبد الحميد حتى بادر بالتحرك بما يوجبه مقامه كخليفة

للمسلمين، وحال دون ظهورها على المسرح الفرنسي، بل في فرنسا كلها. فكيف كان ذلك؟!

أرسل خطاباً إلى رئيس الجمهورية الفرنسية سادي كارنوت عن طريق صالح منير باشا السفير في باريس. ومن الطبيعي ألاّ نغفل هنا نيشان الامتياز تعبيراً عن تقدير هذه الخدمة للإسلام. تبدأ المكاتبات بالخطاب الذي يقول في مطلعه: "حول التحضيرات المسرحية باسم حضرة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام". وهذا المطلع يحمل في طياته إشارة إلى أن المسرحية تتجاوز بعدها الفني إلى لعبة صراع حقيقية. وقام بتوجيه تحذير شديد اللهجة عن طريق كونت مونبيللا السفير الفرنسي في إستنبول، وهدد بقطع العلاقات الفرنسية العثمانية [182] .

فإذا كانت التهديدات الدبلوماسية قد حالفها النجاح في فرنسا؛ فكيف كانت النتيجة في الدول الأخرى؟

لم تتوقف محاولات الكاتب دو بونييه، فتوجه إلى إنكلترا التي كانت في مقام الولايات المتحدة الأميركية، والتمس عرضها هناك، حيث ظن أن ضغوط عبد الحميد لن تفلح هناك. ولكن خابت تلك الظنون، ونجحت مرةً أخرى ضغوط عبد الحميد في إلغاء المسرحية على الرغم من الاتفاق مع الممثل إر ڤ ينغ، والمسرح الملكي ليسيوم. وتمكن عبد الحميد عن طريق العلاقة الدافئة مع وزير الخارجية الإنكليزي اللورد ساليسبري من استصدار قرار يمنع عرض المسرحية في الأراضي الإنكليزية كلها.

ولم تكن تلك هي الخاتمة في ملاحقة ماركي دو بونييه، فهناك شوط ثالث في هذه القضية.

كانت قد مضت ثلاثة أعوام، وغادر الخارجية اللورد ساليسبري، وحل مكانه روزربري، وكان يبدو على مسافةٍ أبعد من سلفه في جفائه عن الإسلام. وجد ماركي دو بونييه في نفسه الجرأة من جديد، وخطا خطوته بالاتفاق مع مسرح آخر في لندن. ولكنه فشل من جديد في عرضها على خشبة المسرح، وتمكّن عبد الحميد بدبلوماسيته الماهرة من الحيلولة دون عرض هذه الملعنة . ثم كان عرض هذه المسرحية في باريس بعد تغيير اسمها من **محمد** إلى **بارادايز** ، وتغيير محتواها؛ أثراً من آثار عبد الحميد ودبلوماسيته. ويظهر في الوثائق أيضاً؛ أن عبد الحميد حال دون عرض أوبرا موزارت: عملية خطف فتاة من القصر في أمستردام عاصمة هولندا، عام 1894 [183] .

ومرة أخرى يستعين السلطان عبد الحميد بصديقه الإمبراطور الألماني

ويلهلم الثاني في منع مسرحية عن السلطان محمد الفاتح في روما تتعرض بالإهانة لبني عثمان، ونقرأ خبر المنع في الصحيفة الإيطالية كابيتان فاراكاسّا في 15 نيسان 1890:

عندما بلغ السلطان عبد الحميد نبأ عرض المسرحية؛ كانت ردود أفعاله كأنما تلقى خبراً بتحرك الأسطول الروسي داخل المضيق. واهتم بالأمر الإمبراطور ويلهلم .

وأخرى، كانت تعرض مسرحية **محمد** على خشبة المسرح تعكس صورة مغايرة لصورته عليه الصلاة والسلام، وعلى الرغم من عدم وجود معلومة تدل على كاتبها؛ فإنها تشير إلى دو بونييه نفسه، فكان على إثرها لقاء خاص بين السلطان عبد الحميد وسفير الولايات المتحدة الأميركية ألكساندر و. تيريل. وكان من نتيجتها أن تدخل الرئيس كرو ڤ ر كلي ڤ لاند شخصياً على الرغم من أن ذلك ليس من صلاحيات الحكومة الفدرالية، ورفعت عن خشبة المسرح [184] . وكان السفير العثماني في واشنطن وقتها ما ڤ روياني بيك.

إنه السلطان عبد الحميد، الذي يأبى أي ازدراءٍ أو انتقاصٍ من مقام نبيه عليه الصلاة والسلام، أو الإسلام، أو المسلمين، أو أجداده من بني عثمان، ولو كان الثمن وقوفه في مواجهة الدول الغربية القوية. أثمرت جهوده في وقت قصير، وسادت الحساسية والدقة في انتقاء المسرحيات ذات العلاقة بالإسلام، وصار إقصاء المسرحيات التي تحوي عبارات انتقاص بالإسلام، أو النبي عليه الصلاة والسلام، أو العثمانيين؛ تقليداً في فرنسا وإيطاليا وبريطانيا والهند الواقعة تحت احتلالها [185] . ونقلت الصحافة الأوروبية بين الحين والحين تحذيرات البيروقراطيين الأوروبيين وتنبيهاتهم المتعلقة بهذه الحساسية العثمانية. واستمر ذلك طيلة حكمه ورداحاً من الدهر بعده.

ومما يذكر هنا في سعي السلطان لوضع حدٍّ للدعايات المضادة؛ تفكيره في شراء جريدة التايمز الشهيرة [186] . ولا نعرف لماذا عدل عنه، فكيف يكون الأمر لو كانت جريدة التايمز لنا؟

إن كان كذباً؛ فاعتبروني أنقل أكاذيب كاتب المابين تحسين باشا: كان السلطان يطلب ترجمة المقالات السياسية التي تحملها التايمز، و Temps ، و Zeitung Kölnische ، وتريبيون، وستاندارد، و Viyedemusti من الصحف الإنكليزية والفرنسية والألمانية، يوماً بيوم، ويقوم بتدقيقها، والإشارة إلى الأخبار التي تحتاج إلى ردٍّ أو احتجاج أو تصحيح، ويستكتب الكتّاب الأجانب وينشرها في الصحف نفسها. ولم يكتفِ بذلك أستاذ الدعاية الكبير

عبد الحميد، بل دعا ممثلي الصحف الأوروبية إلى قصر يلدز: يحتفي بهم، ويقدم لهم الهدايا والنياشين، ويطلب منهم الدقة في الأخبار والعمل على تصحيحها، وقبل أن يمضي وقت طويل؛ تحمل الصحف أقلام المراسلين المنحازة للدولة العثمانية [187] .

ولكن، لم يعد بعد عبد الحميد الثاني مكان لهذه الحساسية الدينية، ولا المكانة التي كانت للدولة العثمانية في العلاقات الدولية، حتى إن الصدر الأعظم طلعت باشا عبر عن أسفه لأحد أقربائه بعد وفاة السلطان عبد الحميد في شباط 1918 وهو يقول: "لقد مات في الوقت الذي كنا نريد فيه الاستفادة من نفوذه في العائلة العثمانية، ومن علاقاته بحكام أوروبا".

فكم هو حزين هذا الاعتراف! وكم هي مؤسفة هذه التعاسة التي انحطّ إليها الاتحاديون! وهؤلاء الاتحاديون الذين أعلنوا الحرب من الداخل بدعوى إنقاذ الدولة؛ ألا يدل طلبهم المعونة ممن انقلبوا عليه وعزلوه واتخذوه عدواً لهم بعد أن أدخلوا الدولة بما كسبت أيديهم في مصيرٍ كارثيٍّ مجهول ووضعوا عاصمتها في الأسر؛ كمن يعانق الثعبان؟! ألا يكون تصرفهم هذا أشبه بتصرف الأطفال؟!

ولو كان السلطان حياً، واستثنينا الخونة؛ فإن السلطان كان سيغضّ النظر عن أبنائه الغافلين، ويضمهم إلى صدره من جديدٍ.

ونحن ما زلنا نقذف السلطة المركزية التي كان يقودها ويتفانى من أجل الحفاظ على شرف أمتنا هذه... ما زلنا نقذفها بالدكتاتورية؛ افتراءً وتجنياً عليه. فيا أيها الناس: أخبروني وأجيبوني إن كان بينكم مجيب؛ ما هي العلاقة بين الدفاع عن النبي صلى الله عليه وسلم والسلطة المركزية؟!

عبد الحميد
اللغز الذي لم تستطع
الولايات المتحدة الأميركية حلّه

بدا هنري مورغنتو السفير الأخير للولايات المتحدة الأميركية في الدولة العثمانية (1913-1916) متأثراً جداً بقضية الإبادة الأرمنية، فكانت مذكراته أسرار البوسفور ، مشحونةً، وتشحن الرأي العام الأميركي ضد تركيا، وحديثه الدائم عن عبد الحميد الثاني بالسلطان الأحمر و السلطان الغارق في الدماء [188] يظهر لنا حقيقة الموضوعية في ما كتبه في مذكراته. ولا يكتفي مورغنتو المتحدّر من عائلة ألمانية يهودية بالإبادة الأرمنية أو عبد الحميد، فيضيف أنه لا يرى أي جانبٍ صالحٍ في الدولة العثمانية:

إن المدنيّة التي بلغتها تركيا خلال خمسة قرون؛ إنما أخذتها ممن يعيش في تابعيتها من المواطنين المهانين بلا إنصاف: فالدين من العرب، واللغة بلغت قيمتها الأدبية بالاستدانة من العربية والفارسية، والحرف العربي. وجامع أياصوفيا باعتباره أفخر تذكار معماري في إستنبول؛ كان في الأصل كنيسةً مسيحية. فكلّ الفن المعماري التركي من الناحية العملية متولّد من الفن البيزنطي ... **[189]** .

أقوال ليست غريبة عن أسماعنا، وبيننا اليوم الكثيرون من أشباه مورغنتو. وما عرضته؛ إنما عرضته نموذجاً للأفكار التي كانت أفكارهم ذات يومٍ لتصبح أفكارنا مع الزمن [190] . وكأن الدين الذي يعتنقه الأميركيون أوجدته أميركا، وأن الأميركيين لا يستخدمون لغة وآداب بلد آخر، وأن الأبجدية التي تستخدمها هي الأبجدية الأميركية.

وعندما يريد الإنسان أن يطلق أحكامه على مجتمع ما؛ ألا ينبغي له أن ينظر إلى مجتمعه أولاً؟

لنؤجّل الآن تقييم مذكرات مورغنتو، ولنقف عند وصفه عبد الحميد بالسلطان الأحمر ، ولنحاول الحفر قليلاً في قضية اتخاذه عدواً من قبل السفير الأميركي، علّنا نجد شيئاً ما عن سبب هذه العداوة.

أميركا، ورقة عبد الحميد الرابحة

تُرى ما هي الجريمة التي ارتكبها عبد الحميد خان حتى دفعت مورغنتو إلى وصفه بأنه "واحد من أشد الوحوش ضراوة في التاريخ"؟

لا يوجد أي سبب من الأسباب التي أوردها الكاتب يمكن أن يقف

حياله الرئيس الليبرالي وودرو ويلسون- الذي يعجب به- أو أي رئيس أميركي؛ مكتوف اليدين عندما يتعرض للتهديدات نفسها، بل عشرها. إن الذنب الوحيد الذي يستطيع أن يبديه؛ هو جهود السلطان عبد الحميد التي كان يبذلها حتى لا تقع بلاده غنيمةً للإمبرياليين الأوروبيين. وكان ينبغي أن يكون ذلك ورفضه بيع فلسطين لليهود؛ أمرين يدعوان إلى التصفيق حتى تخضرّ الأيدي من قبل أي مواطن أميركي طبيعي. أليس كذلك؟

غير أن الذنب في رأيي كان أكبر من ذلك بكثير، وهو محاولة عبد الحميد استغلال الولايات المتحدة الأميركية ورقةً في يده.

ويبين وحيد الدين إنكين في بحثه عبد الحميد والسياسة الخارجية بالوثائق؛ كيف لعب عبد الحميد بهذه الورقة. ففي الوثائق الثلاث [191] عشرة التي عرضها في كتابه من الإرادات الخاصة (من 1893 إلى 1908)؛ نرى أنه بينما كان عبد الحميد يعمل على تزويد جيشه بالسلاح الأميركي خلال هذه الأعوام الخمسة عشر؛ أي قبل تولي مورغنتو وظيفته بخمسة أعوام؛ كان لا يتردد في السلوك معها بما تقتضيه مصالح بلده ودولته، ويظهر أيضاً أنه لم ينسَ قطّ أنه من بني عثمان.

في الإرادة الخاصة الصادرة في 13 كانون الثاني عام 1886 على سبيل المثال؛ نرى أنه لم يسمح للسفينة الأميركية بانكروفت باجتياز مضيق البوسفور؛ لأن الولايات المتحدة الأميركية لم تكن من الدول التي وقعت على معاهدة باريس. وفي 20 كانون الأول عام 1897 نجد في الإرادة الخاصة جواب الطلب الأميركي بافتتاح قنصلية في أرضروم: لا داعي لافتتاح الولايات المتحدة الأميركية قنصلية في أرضروم؛ لأنه لا يوجد أي مواطن أميركي هناك. وهذا نصه: "تم صرف النظر عن طلب السفارة الأميركية وإلحاحها في أمر وجد أنه غير ضروري؛ بما توجبه إرادة وأمر حضرة سيدنا السلطان".

يتضح شيئاً فشيئاً سبب العداوة الضارية التي ترعرعت في نفوس أمثال مورغنتو، أليس كذلك؟ إذاً، فلنتابع:

السلطان الذي يقاوم أميركا

التمست الولايات المتحدة الأميركية افتتاح سفارة لها في إستنبول، إلا أن السلطان عبد الحميد كان على قناعة بأن دخول ممثّلٍ جديدٍ في التوازنات التي يؤسس لها عبد الحميد في سياسته الخارجية لا يناسب الدولة العثمانية، ولذلك ساق هذا الرد:

"إن تمثيلنا الدبلوماسي في واشنطن من المتوسط. وهذا الطلب لا يمكن قبوله حتى يكون تمثيلنا في واشنطن في مستوى السفارة".

وفي عام 1898 سعت الولايات المتحدة الأميركية إلى تضمين إستنبول تعويضات ما حدث في أثناء التمرد الأرمني، وتتالت التهديدات وعبد الحميد صامد لا يهاب، ويصدر إرادته الخاصة: " **ينبغي تنبيه سفير الولايات المتحدة الأميركية إلى أن الضمانات لا يمكن أن تكون موضوع بحث بأي شكلٍ من الأشكال؛ لأن أداء الضمانات تحت أي مسمى يعتبر اعترافاً بمسؤوليتنا في الأحداث".**

تم الاتفاق على تعيين هاربوت قنصلاً للولايات المتحدة الأميركية في ألازيغ القديمة، إلا أن التحريات بيّنت أنه مواطن أرمني من مواطني الدولة العثمانية انتقل إلى تابعية الولايات المتحدة الأميركية، وكان الاتفاق ينص على عدم تعيين من سبق له أن انتمى إلى تابعية الدولة العثمانية؛ ولهذا السبب صدرت الإرادة بعدم قبول تعيينه في 3 كانون الأول 1900.

كل هذا وعبد الحميد مستمر في عقد الصفقات مع شركات الأسلحة الأميركية، ويتفق مع إحدى الشركات في كونكتيكت لبناء معمل لإنتاج السلاح الخفيف في تركيا، ويضم إلى خدمته الجنرال بغنام من البحرية الأميركية، وتعيينه برتبة باشا، ويعزم على إرساله مع الضابط الشاب رؤوف أورباي الذي أصبح في ما بعد بطل الحميدية إلى الولايات المتحدة الأميركية لشراء الطرادات والغواصات.

والغريب في الأمر أن بغنام باشا يرى عبد الحميد في صورة صاحب شغف بالبحرية يرسله إلى أميركا وأوروبا لشراء القطع البحرية المختلفة؛ وقد صوره عدواً للبحرية. وبقيت هاتان الصورتان المتناقضتان عنده من غير تفسير، وعبر رأيه في حديثه إلى مرافقه العسكري ومترجمه رؤوف أورباي عندما قال: "إنه رجل يشبه الألغاز، وحلّه صعب جداً جداً جداً".

وكونوا على ثقة بأنه عندما نحلّ هذا اللغز؛ فإن الصورة التي ستظهر ستكون بعيدة جداً جداً جداً عما عرضها مورغنتو...

هل كان عبد الحميد أميركيّاً؟

طلب مني السلطان عبد الحميد بشكلٍ شخصيٍّ؛ أن أؤمّن له معلومات مفصّلة عن المدافع ذات الضغط الهوائي. علاوةً على جميع التفاصيل المتعلقة بالمخططات التي تظهر الأقسام الميكانيكية، والأسعار، وما يمكن أن يراه وزير الدفاع مناسباً لتقديمه لنا. وهو مصمّم على شراء هذا النوع من المدافع؛ لتحصين الدفاع عن مضيق البوسفور؛ چناق قلعة .

(من رسالة قنصل الولايات المتحدة الأميركيةسبنسر أدّي إلى وزير خارجيته جون هاي)

التاريخ والحظ، لا يمكن توقّع منعطفاتهما، وكذلك كانت العلاقة العثمانية الأميركية. والعلم الذي كان يرفرف في البعيد- على الجهة الأخرى للمحيط الأطلسي- الذي لم ينل حظه من الجدية المطلوبة، لم يكن أحد يدري أنه سيرفرف في حدودنا الجنوبية في العراق، ولا أحد يدري مصيره بعد الآن...

بدأت الدولة العثمانية بشراء السلاح والمهمّات العسكرية الكثيفة من الولايات الأميركية منذ عهد السلطان عبد العزيز، واستمر في عهد السلطان عبد الحميد، إضافةً إلى انتقال تجارة السلاح هذه إلى النفوذ الألماني حتى عام 1904.

وهذه هي السياسة الخارجية الأميركية للسلطان عبد الحميد، وهذه هي ميزة عبد الحميد.

في عام 1827 اتفقت كل من روسيا وفرنسا وإنكلترا على قيام قواتها البحرية بتوجيه ضربةٍ إلى الأسطول العثماني في نا ڤ ارين بلا مقدمات أو أسباب، فأغرقت 52 سفينة حربية من أسطولنا، ونال شرف الشهادة ستة آلاف من مقاتلينا الملاّحين. فبينما كانت هذه الضربة ستمهد الطريق نحو استقلال اليونان من جهة، كانت القيادات العثمانية تتلقى درساً جديداً في عدم الثّقة بأي دولة أوروبية.

فدولة أوروبية صديقة كفرنسا التي حافظت على وجودها ونمت وتقدمت بفضل الدولة العثمانية ما يزيد على قرنٍ من الزمان؛ تستطيع أن تقايض صداقتها في مصلحة تبدو لها من دون أن يطرف لها جفن. وقبل أن تمضي ثلاثة أعوامٍ (في عام 1830) تقوم فرنسا بإنزالٍ عسكريٍّ على سواحل الجزائر، وتقوم الدولة العثمانية بتوجيه ضربتها في أقصى جناحها الغربي. فالكارثتان- إغراق الأسطول العثماني في نا ڤ ارين، واحتلال الجزائر-

المتعاقبتان خلال ثلاثة أعوامٍ؛ دفعتا رجالات الدولة العثمانية إلى البحث عن بديل. وهكذا بدأت الورقة الأميركية بالدخول في حياة سياستها الخارجية. وأصبحت الولايات المتحدة الأميركية حديث الساعة في عاصمتها إستنبول، ولمّا يمض على استقلالها نصف قرنٍ من الزمن.

كانت الولايات المتحدة الأميركية قد أرسلت ليزبون مفوضاً لإقامة تحالف بين الدولتين عام 1799، إلا أن كل محاولات اللقاء باءت بالفشل. وفي العام الذي تلاه، أبلغ القبطان ويليام بانبريدج قائد الأسطول العثماني كوچك حسين باشا في لقاء بينهما؛ عن رغبة الولايات المتحدة الأميركية في إقامة حلف مع الدولة العثمانية، وعلى الرغم من أن الطلب استقبل بحرارة في إستنبول؛ إلا أنه لم يجد طريقه إلى الوجود.

ثم عرضت هذه الدولة التي لم تستطع أن تضع يدها في يد الدولة العثمانية؛ المعاهدات على قيادات الجزائر وليبيا؛ طرابلس الغرب، وأعلنت الحرب حيث فشلت، إلا أنها لم تستطع أن ترى سفنها تبحر في أمانٍ في مياه البحر الأبيض المتوسط المالحة المليئة بالقراصنة.

فما هو السبب؟

السبب: لم تكن هناك معاهدة بينها وبين الدولة العثمانية التي كانت تسيطر على البحر الأبيض المتوسط رسمياً حتى ذلك الوقت.

الأسلحة الأميركية الخفيفة في أيدي الجنود العثمانيين

تمرّ الأيام الجميلة بسرعة كأنّها الأحلام. ويتذكّر استراتيجيّو الدولة العثمانية الذين يرون أن روسيا وفرنسا وإنكلترا ستمزّق الأراضي المتبقية من هذه الدولة وتتقاسمها في ما بينها؛ سيتذكّرون هذه المرّة الولايات المتحدة الأميركية كقوة اقتصادية وعسكرية جديدة صاعدة، فتبدأ السفن التجارية التي تحمل الأعلام الأميركية ترسو في الموانئ العثمانية منذ عام 1830.

ولم يتوقف الأمر عند حركة السفن التجارية، فقد ضمت الدولة العثمانية إلى أسطولها البحري السفينة الحربية التي قام بتصميمها مهندس السفن الأميركي الشهير هنري أكفورد في عهد الرئيس أندرو جاكسون؛ بشرائها بمئة وخمسين ألف ليرة ذهبية. ولنتوقف قليلاً عند هذه الفكاهة الحقيقية: كانت أميركا تستورد الجمال من الموانئ العثمانية لاستخدامها في حروبها الداخلية، وتقدّم مقابلها صناديق الأسلحة الخفيفة لولاية إزمير. وهكذا بدأت اللقاءات الأولى مع الأسلحة الأميركية؛ كما يذكر في الروايات.

غير أن الانعطاف الحقيقي في استيراد الأسلحة كان في عام 1870؛ حيث كانت الولايات المتحدة قد خرجت لتوّها من الحرب، وبلغت مصافّ

الدول الأولى في العالم من حيث التقنية والحجم في إنتاج الأسلحة في مصانع الشمال، وانخفضت أسعارها لمن يستطيع الشراء. وتوفرت ملايين الأسلحة الفردية في مخازن الجيش الأميركي، وبدأ البحث عن أسواق مناسبة لها، وكانت أركان الجيش العثماني واحدة من هذه الأسواق المناسبة.

ففي نهايات 1869 نصادف دخول 239 ألف بندقية أميركية من طراز أنفيلد، في قشلات- ثكنات- الجيش العثماني. وبعد خمسة أعوام اشتهرت بالطراز المارتيني وتغلغلت إلى الأغاني التركية وبلغ عددها خمسمئة ألف أغنية [192] وهكذا أصبحت الولايات المتحدة الأميركية اعتباراً من 1870 الدولة الأولى التي تستورد الدولة العثمانية منها أسلحتها، وعلى وجه الخصوص في الحرب الروسية التي تعرف بحرب 93 (1877-1878) التي تصادف ارتفاعاً حاداً في شراء الأسلحة، حيث عملت مصانع الأسلحة بطاقتها الإنتاجية القصوى، وزودت جبهاتنا بملايين البنادق والطّلقات، وبالطبع كانت ملايين الدولارات تدخل في جيوب شركات السلاح الأميركية.

واستمرت جهود التسلح في عهد السلطان عبد الحميد الثاني في ارتفاع مطّرد.

أسلحة البلاد الجديدة في أيدي جنود الرجل المريض

يمكننا أن نرى في الوثائق أيضاً، دخول القادة الأميركيين في تنافسٍ شديدٍ في إستنبول؛ لبيع سفينة الجنرال بردان، والعقيد لي الحربية، وهي سفينة توربيدية. فالوثائق الأميركية التي يقدمها أورال ساندر وكورثان فيشك [193] ؛ أتى فيها أنه في عهد عبد الحميد الثاني الذي يصفه مخالفوه بعدوّ البحرية نزل إلى البحر عدد كبير من القطع البحرية محلّيّة الصّنع منها والأجنبية بما فيها الغواصات لتنضم إلى قوة الأسطول العثماني، غير أن التركيز كان لصالح القوات البرية.

كما يظهر في رسالة القنصل الأميركي في إستنبول تيريلّ إلى وزير خارجية بلاده عام 1897 ؛ الحديث المليء بالعبر، والذي دار بينه وبين السلطان عبد الحميد في لقاءٍ معه، وكانت الدولة العثمانية خلالها قد أعلنت الحرب على اليونان، وبلغت قواتنا ديمتوكا بطرفة عين. وكانت أوروبا كلها تنظر حائرةً إلى ما يمكن للجيش العثماني أن يفعله. فهل كان الرجل المريض يصحو؟

بعد المجاملات المتبادلة، فتح السلطان الحديث عن تسليح الوحدات العسكرية، وبناء الوحدات المدفعية، ثم طلب معلوماتٍ عن نتائج أحدث الاختبارات الأميركية في مجال المدفعيات.

من الواضح جدًّا أن ذهن القنصل كان مشوّشاً من هذا الاهتمام الكبير، وكانت عينا السلطان عبد الحميد تتركّزان على البندقيات الأميركية التي خرجت من الحرب حديثاً بشكل خاص، و إلحاح حسب تعبير تيريلّ. ونحسّ في ملاحظات تيريلّ حول الجيش العثماني وهي في حالة حربٍ تأثير بريق الذّكاء والمعرفة الذي يشعّ من عيني السلطان:

إن العناية الشديدة بصحة العسكريين ونظافتهم إلى جانب كمال النظام والتجهيزات؛ أمر يدعو للدهشة والعجب. حمّام كبير يتسع لأربعين عسكرياً في حالة استعداد وعمل دائمَين. وفي يد الأتراك مليون بندقية ماوزر في المخازن والجبهات. ما يثير انتباه وزارتنا أنه إن ظهرت قوّة وحيدة مقابل رجل أوروبا المريض، ربما كنا سنتعرف إلى أشدّ مرضى العصر الحديث قوة وديناميكية .

يبدو أن ورقة عبد الحميد الأميركية ستحتل بضع صفحاتٍ أخرى... فليكن ذلك!

ما الذي فعله عبد الحميد في شيكاغو؟

كنت في عام 2005 مع الباحث الأميركي هيث لوري المتخصص في التاريخ العثماني، كان يتجول ويبحث في جبال ووديان الشمال اليوناني، قلت له: "خير إن شاء الله، ما الذي تسعون من أجله الآن؟". فأخبرني أنه في آثار خطوات الغازي أورانوس بيك. وتحدّث عن البذور المعمارية التي زرعها في الأرض اليونانية والمتعلقة بالأمور الدينية والتجارية والعلمية، وكيف استطاع بهذه البذور وليس بالسيف وحده، أن يبقي هذا الإقليم حياً على امتداد عصور طويلة. وتحدث عن آلامه التي يشعر بها نتيجة طمس هذه الآثار واندثارها في العهد الأخير. وغرقت في أعماقي علّني أجد مثل تلك الأحاسيس...

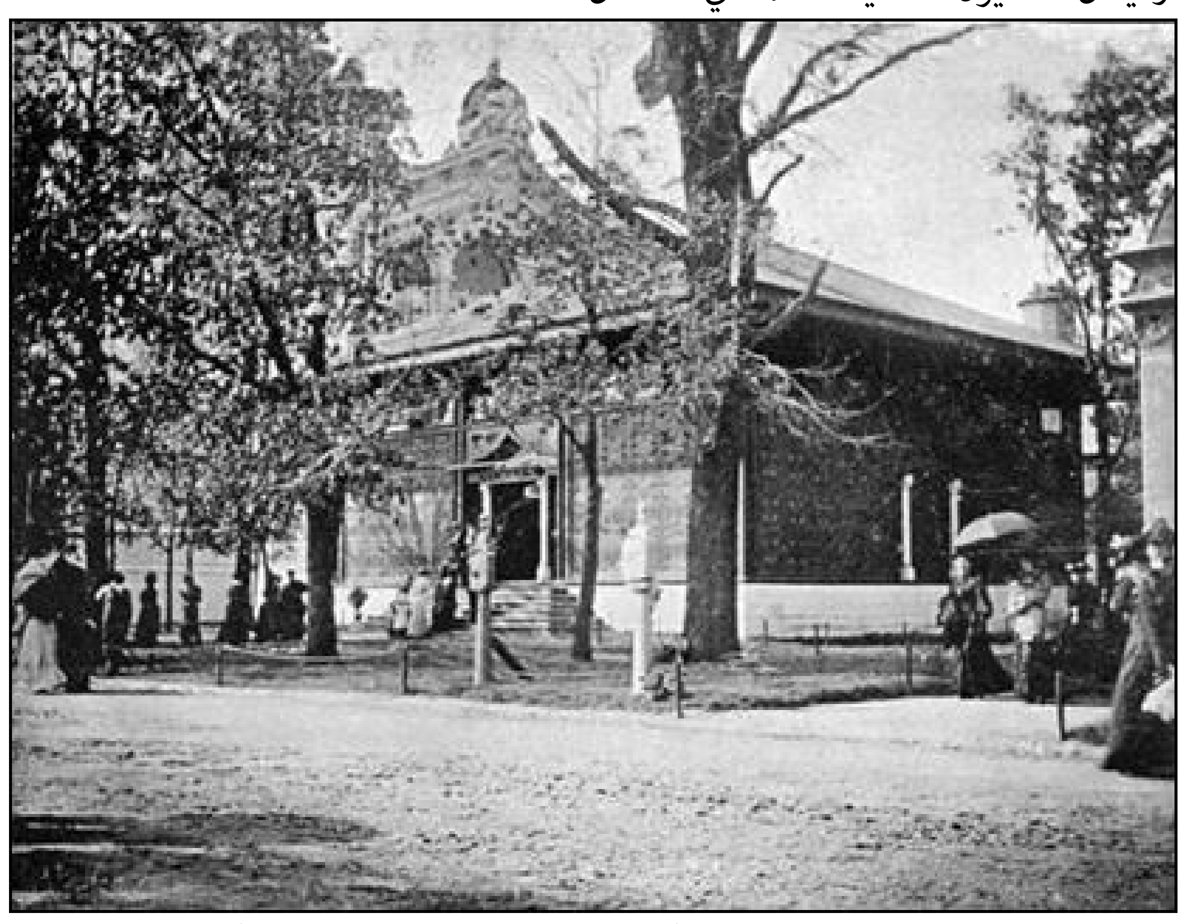
تتحول العثمانية في يومنا هذا إلى ساحة بحث مكثّفة بطولها وعرضها وارتفاعها وأعماق أرضها. فنرى اثنين من علماء الآثار؛ أوزي بارام، وليندا كارول؛ يؤكدان على أن الآثار العثمانية أمر لا يستغنى عنه [194] . ونرى آخر- وهو الإسرائيلي آمي سينغر- يضع حبّ عمل الخير العثماني في بقعة ضوء العلوم الاجتماعية [195] . وفي جانب آخر يرسل أسامة المقدسي مفهوم الاستشراق العثماني إلى أسرّة نوم خبرائنا المريحة [196] . ما أريد قوله هنا: إنه في الأعوام الأخيرة يشرق للعثمانية ربيع جديد. وتدعونا بوجهها الجديد إلى الجوانب البكر التي لم يمسّها بحث ولا نظر.

تذكّرني مقالة المقدسي هذه، باستعراض عبد الحميد الثاني دولته أمام الدول الصناعية الكبرى، وتذكّرني بتشبّثه في المعرض الدولي الذي تحوّل إلى طقوس صناعية . ففي عام 1893 وبتأخير عام واحد، وفي مناسبة إحياء ذكرى مرور 400 عام على اكتشاف كريستوف كولومبس؛ نُظِّم في شيكاغو معرض دولي شاركت فيه مصر الواقعة تحت الاحتلال الإنكليزي، وعُرِض فيه المصريون كمخلوقاتٍ شرقية في حديقة حيوانات . وباشتراك الحمير القادمة من مصر تؤمّن الدول الأوروبية الحديثة على الأقل متعة تذوّق الجمال الشرقي الساحر لهواتها المتطلّعين إلى الشرق. وفي أجنحة المعرض كانت تقدم الفنون التقليدية، أو الألبسة، والعناصر الفولكلورية، أو العرقية، بشكل جذّاب للعيون الغربية [197] .

في حين كانت الدولة العثمانية التي سلكت طريقاً نبيلاً وصعباً نحو التمدّن والعصرنة وهي تقاوم الاستعمار، كانت قد أعدّت مفاجأة غير سارّة لزبائنها في المعرض. فالأوروبيون والأميركيون الذين سارعوا إلى المعرض رجالاً

ونساءً لزيارة ومشاهدة الشرق المخدّر للطّرفة والتندّر، كانت أحلامهم تتحطّم في الجناح العثماني، وتملأ نفوسهم خيبة الأمل والخذلان.

عندما وجّهت دعوة الاشتراك في معرض شيكاغو في 19 شباط 1891 إلى الدولة العثمانية، تمّت إحالة الدعوة إلى شركة سهامي سعد الله الخاصة؛ بسبب النفقات الباهظة التي يتطلبها الاشتراك، والتي تشكّل عبئاً على خزينة الدولة. أعدّت الشركة مشروعاتٍ متنوّعة للقرية التركية التي ستقام في المعرض، فقرّرت: إقامة سوقٍ عثمانية على شكل چشمة - ماء السبيل- السلطان أحمد ، ونموذج للنّصب الحجري في سلطان أحمد، ونموذج مصغر لجامع السليمانية. وتم تنبيه الشركة في إستنبول أن مكان الجناح ينبغي أن يكون وسط المعرض في مكان ظاهر للعيان؛ ولذلك تمّت تلبية هذه الرغبة، فكانت القرية التركية إلى جوار القرية الألمانية والهولندية على الطريق نفسه. وتم إصدار جريدةٍ خاصةٍ بالتركية والعربية والإنكليزية، وتم إنشاء مسرح، وجناح لعرض الصور الضخمة التي تعرف بالدولة العثمانية، وميدان للخيول الأصيلة؛ كما في سلطان أحمد.



جناح الدولة العثمانية في شيكاغو عام 1893 يقع على طريق الزوار.

كان مكان العرض رائعاً ببنائه الخشبي يعلوه زوج من القباب، في

حين كانت المعروضات هي الأخرى غريبة مدهشة، كانت الأقمشة الحمراء التي تحمل شعار علمنا (النّجمة والهلال) من إنتاج معمل الطرابيش تغطّي جزءاً من إحدى الجدران، وينتشر الشعار على الواجهات الزجاجية والأماكن المختلفة ترسل رسالة نحن هنا ، نحن هنا ولا زلنا على أقدامنا منتصبين.

كان في صالة العرض كل الحركات التي تشوش العقل الغربي وتدفعه لإعادة النظر. فإلى جوار القهوة اليمنية، وأكياس الملح على سبيل المثال، كانت الأجسام المعدنية القابعة التي تبهر العيون، وما هي سوى التوربيدات التي تنتجها الترسانة الهمايونية . وإلى جوار الصابون الكريتي والنماذج المعدنية المختلفة، استقرّت بمهارة أجهزة مطافئ الحريق. وفي الصالة أيضاً المنتجات النسيجية اليدوية الشامية والكوسوفية والطرابزونية، والمصنوعات الفضة والذهبية، والعقود الرائعة التي تعود إلى صائغ السلطان الخاص چوبوكچويان والتي كانت تسحر النساء.

ونرى التلغراف، والأجهزة الكهربائية المختلفة، ومنتجاتها المتنوعة: الصوفية والقطنية والحريرية، والأرز والخشخاش، نماذج تبدي أسنانها البراقة في المقدمة كأنها الأشواك. وحلّ مجسّم الطرادة العثمانية في الصالة بعناية رمزاً للتمدن العثماني. وهكذا كان المشهد في الجناح العثماني في شيكاغو ما يزيد على ثلاثة آلاف منتج. **ربما ما كان هذا التعريف بالدولة العثمانية والأموال التي أنفقت فيه؛ ليجعلها في مصافّ أميركا وإنكلترا وفرنسا، إلا أنها كانت تتميز عن إسبانيا ومثيلاتها من الدول الأوروبية.**

وكانت الرسالة قد وصلت: نحن لسنا الرجل المريض ، وإنما نحن بنية تعمل على تأهيل نفسها للعالم المتمدن، ولكن من دون أن تفقد شيئاً من هويّتها أو خصائصها.

وبالطبع، فإن هذا المشهد المخيّب لآمال أولئك الذين كانوا ينتظرون الجوّ الشرقي الليّن؛ كان استعراضاً ظاهراً لاستراتيجية عبد الحميد الدقيقة التي يمكن اختزالها بعبارة: العواء مع الذئاب . ولهذا السبب كان غضب السلطان وثورته عندما رأى في العرض المقدّم له ما يمثّل الدراويش وحلقاتهم. وبدلاً من تقديم بلادنا كأمة فولكلورية للطّرفة والمتعة في عيون الغربيين؛ كان ينبغي له أن يقدّمها بصورة بلدٍ قويٍّ سليم معافى ناهض منفتح للعلم والتكنولوجيا. وكان السلطان يعمل جاهداً للتمسك بهذه الصورة والتشبّث بها.

وهذا السلطان نفسه لم يكن لينسى هويته وكرامته، ويقوم بكل ما من شأنه المحافظة عليهما، حتى إنه لا يهمل تنبيهاته لإدارة المعرض

بالمحافظة على الجامع هناك بعيداً عن الملاهي.

روز ڤ لت يصدر أوامره:
"اقصفوا إزمير بالقنابل"

كان عبد الحميد دبلوماسياً عظيماً، يعرف جيداً كيف يمكن أن يستفيد إلى أقصى حدٍّ من الغيرة الموجودة والتنافس بين الدول الكبرى الراغبة في التوسيع والاستعمار .

(الأميرال هنري وودز)

ولد في مدينة نيويورك في 27 تشرين الأول عام 1858، الثاني في عائلته، واجه مشاكل في حسر النظر والرّبو. حبه للقراءة دفعه إلى نمو حبه للطبيعة، لم يتخلّ عن النشاط طيلة حياته. انتسب إلى هار ڤ ارد قسم العلوم الطبيعية في الثامنة عشرة من عمره. وانتخب للمجلس البلدي في نيويورك في الثانية والعشرين من عمره. وفي عام 1897 عيّن نائباً لوزير البحرية، وفي عام 1899 نراه والياً على نيويورك، وفي 6 أيلول عام 1901 أدى اليمين الدستوري رئيساً للولايات المتحدة الأميركية عقب إصابة الرئيس مكينلي في محاولة لاغتياله إصابات بليغة، وخطا خطوته الأولى من أجل قناة پنما عام 1902. وفي عام 1905 نال جائزة نوبل للسلام بسبب جهوده في إنهاء الحرب الروسية اليابانية. وفي عام 1907 أرسل 16 سفينة أميركية حربية إلى بقاع مختلفة من العالم، وكان ذلك إعلاناً بتشمير الولايات المتحدة الأميركية عن ساعد الجد لتمارس دور الشرطي في العالم. غادر البيت الأبيض عام 1909، لكنه لم يفارق حيويته ونشاطه. خرج في رحلة صيد في أدغال أفريقيا ليعود بما يزيد على خمسمئة جيفة حيوان. وعلى الرغم من أنه عاد إلى الحياة السياسية، ونصب عينه إلى الرئاسة من جديد، إلا أنه فشل في حشد الدعم الكافي لذلك. وانهارت معنوياته الروحية بفقدان ولده عام 1918 ليفارق نشاطه وحياته في 6 كانون الثاني عام 1919 [198] .

تذكرون ما نقلته الأخبار قبل بضع سنوات عن إلقاء حاملة الطائرات تيودور روزفلت التي تعمل بمفاعلين نوويين والتي تعود إلى القوة البحرية الأميركية، كتل الحديد في عرض بحر مرمرة، وربما أدركتم الآن السبب في إطلاق اسمه على هذه السفينة العظيمة! ونقرأ على ظهرها في الصورة الفوتوغرافية المعروضة على صفحات الإنترنت عبارة big stick أي العصا الغليظة، وهذه العبارة، لمن لا يعلم، تعود إلى روزفلت نفسه؛ كشعار في

السياسة الخارجية، وأصلها: **"تكلّم بلطف، ولكن إيّاك أن تترك العصا من يدك"**.

لندع الآن ما تبحث عنه هذه العصا الغليظة في موانئنا لتحليلات الكتّاب السياسيين، ولنعد إلى روزفلت قبل مئة عام والسياسة التي اتبعها عبد الحميد الثاني في مواجهة العصا التي وجّهها إلى إزمير، حيث كان على وشك قصف ميناء إزمير من سفنه الحربية التي توجهت إليه.

وهذه هي الحادثة:

اغتنم المبشرون الأميركيون فرصة تخفيف العوائق القانونية التي كانت تقف في طريق حركتهم بعد حرب القرم (1854-1856) ووجدوا جرأة الانتشار في بقاع الإمبراطورية كلها، ولم يكتفوا بالدعاية للنصرانية في عاصمة الخلافة، بل تجاوزوا ذلك إلى الاستخفاف بالإسلام وأهله. وبينما كان مؤتمر برلين 1878 يطلق الحرية للمبشرين؛ كان يكبل السلطة العثمانية، وقد تسبب إلقاء القبض على المبشّر الدكتور كويل متلبّساً، بأزمة كبيرة في الدبلوماسية بين الدولتين العثمانية والإنكليزية، ولم يتم حلّها إلا بعد جهدٍ جهيد [199] .

غير أن الشكوك التي خامرت نفوس المسلمين حول النشاط التبشيري، والغضب من المبشرين، والتعرض لهم لم يتوقف. ففي عام 1893 اشتدت سخونة الحوادث بانتشار خبر اشتراك اثنين من المعلمين الأرمن- تخرّجا من الكلية الأميركية في مرزيفون- في التمرد الأرمني، وتمّ تخريب مبنى الكلية في الغليان الشعبي. وألقي القبض على المدرّسين مع المشتركين في أعمال التخريب من الذين يحملون التابعية الأميركية، وكان عددهم يزيد على خمسمئة شخص.

كان البيت الأبيض يسوده الوجوم. وصدرت التعليمات إلى السفارة في إستنبول للتدخل لدى الحكومة، وطلب التعويضات عن الأضرار والضمانات. واستطاع الباب العالي تطويق الحادثة بالإعراب عن الأسف وقبول تقديم خمسمئة ليرة كتعويضات. وعفا عبد الحميد عن المدرسَين الأرمنيَّين المعتقلَين [200] .

كانت الحادثة قد طويت، وبدأ عهد جديد بانتقال الأرمن إلى الجنسية الأميركية، ومحاولتهم الاستفادة من الحقوق الفدرالية بشكلٍ جماعيٍّ كأرمن. وما يمكن أن تقوم به أيّ دولة مقيدة في التصرف مع مواطنيها، كانت الدولة العثمانية ستقوم به. وأنها لن تغضّ الطرف عما يجري. وتم تبادل الرسائل، وقامت معركة رسائل بين الطرفين. وأخيراً، اندلع التمرد في

صامصون عام 1894.

اشتدت لهجة الحكومة العثمانية، وكان الشعب يسوده الغليان، وطلبت سفارة الولايات المتحدة الأميركية الحماية من البيت الأبيض، وغادرت الطرادة الأميركية كينتاكي متوجّهة إلى إزمير، ورست في مينائها، وفي نيّتها إستنبول، وتقدمت لطلب الإذن من عبد الحميد، إلا أن الدعوة وجّهت إلى طاقم السفينة بدلاً من الإذن للسفينة. وعلى مائدة العشاء تلقى الطاقم وعداً بدفع التعويضات، وحفاوة السلطان وهداياه، وعندما كان الطاقم يهم بالمغادرة كانت إستنبول تلتقط نفساً عميقاً وتنعم بالراحة؛ ولو كان ذلك إلى حين.

غير أنه لن يكفّ روزفلت عن التلويح بعصاه في وجه الدولة العثمانية بسبب الدول الأوروبية، والسلطان عبد الحميد يقاوم، وروزفلت يحاول بكل نشاطه وحيويته تحطيم هذه المقاومة.

دول قليلة فقط كانت قد بقيت خارج المائدة الإمبريالية على وجه الأرض، وكانت اليابان خاضعةً للتهديد الأميركي، وأفغانستان تستطيع الصمود أمام الإنكليز بدعم من الروس، والدولة العثمانية مقيدة اليدين، والشيء الوحيد الذي تملكه كان كسب الوقت، والعمل على الدفاع بما تملك عن شرفها وترابها؛ مستفيدةً من فترة السلم. وأن يكون الاستثمار في البنية التحتية، وتطوير المصادر البشرية من أهدافها. وسيكون حجم المكاسب في صراع التقاسم القادم الذي لا مفرّ منه مرهوناً بالقوة التي تملكها عن اندلاعه.

كانت استراتيجية عبد الحميد كلها قائمة على هذه الفكرة، والصراع المنتظر على المغانم قد اندلع مع الحرب العالمية الأولى بعد خمس سنوات من إسقاطه عن العرش.

وعلى الرغم من أن تاريخنا لا يذكر ذلك، فإنه في عام 1897 فتحت قوّات السّواحل نيران مدافعها على السفينة الحربية الأميركية بانكروفت التي حاولت دخول ميناء إزمير من دون إذنٍ، وابتلعت الولايات المتحدة غيظها وانتقامها إلى حين؛ بسبب انشغالها بالصراع مع إسبانيا [201] .

ما كاد روزفلت يستقرّ على المقعد الرئاسي عام 1901 حتى بدأ بالتفكير في إعطاء الدرس اللازم للدولة العثمانية، وذهب بعيداً إلى درجة إعلان الحرب عليها إن لزم الأمر. ألم يكن الأسطول العثماني عاجزاً عن شلّ حركة السفينة الحربية الأميركية الضخمة؟ ألا يكفي إرسال أسطول حربي؟ لكن وزير الدفاع إليو روت المعروف بحنكته؛ نبهه إلى أن الأتراك ليسوا

لقمةً سائغةً، وإذا كانت القوات البحرية على وشك الانهيار؛ فإن القوات البرية كانت صامدةً كالجبال ، وإذا كان القتال رجلاً لرجلٍ، فإن أوروبا كلّها لا تستطيع الوقوف في وجه الدولة العثمانية [202] .

عندما أدرك روزفلت أن قوة الرجل المريض في البر وضعفه في البحر، اقتصر على إرسال قواته البحرية.

وحانت الفرصة عام 1903 عندما تواترت الأنباء عن تعرض السفارة الأميركية في بيروت لمحاولة هجوم، وأبحرت على الفور طرادتان أميركيتان، وسرعان ما ظهر زيف الخبر، إلا أن القرار استقر على متابعة طريقها. وفي شهر آب كانت الأخبار الواردة من إستنبول تنقل مدى تأثير السفينتين الكبير في الناس: هل ستُقصَف بيروت بالقنابل؟

غير أن المحذور لم يقع، وتحركت مرةً أخرى سياسة عبد الحميد العميقة الصامتة؛ ليتجنّب المواجهة العلنية بالتأجيل أو التناسي، أو يقوم بحركة مفاجئة تحيّر الأميركيين، ويفوز دائماً بالوقت المستقطع.

عام 1904 لم تعد السفينتان تشكلان خطراً، وأصبحتا في وضع حرج، ولم تستطع الولايات المتحدة أن تتقدم خطوة واحدة في موضوع المبشرين، ولم يقطع لهم عبد الحميد أي وعد في ذلك، وأصبح سحب السفينتين حديث الساعة. قام القنصل الأميركي ليشمان بطلب من البيت الأبيض بإبلاغ الباب العالي والسلطان حول حساسية الرئيس في موضوع المدارس التبشيرية، وأن السفينتين ستنسحبان كبادرة حسن نية من الرئيس. ولم يكن العثمانيون سذّجاً، وعلموا من الصحف الأميركية أن ذلك ليس سوى مناورة لحفظ ماء الوجه، ومن الواضح أن كلا الطرفين يحاولان تغيير مواقع الأقدام، ويناوران. فروزفلت يعاني ضغط جمعيات التبشير في بلاده، وعبد الحميد يسعى للحفاظ على شرف وكرامة بلاده.

ثم إن روزفلت اتخذ قراراً باستعمال قواته البحرية في نيسان 1904، وكان ينبغي هذه المرة أن يكون استعراضاً أكبر للقوة يجبر السلطان على قبول شروطه. فعندما رفضت الدولة العثمانية تقديم التنازلات؛ اتخذ الرئيس قراراً بإخراج العصا الغليظة والتلويح بها، ووجّه برقية جادّة إلى القصر؛ تحمل تحذيره الأخير بشأن المدارس التبشيرية وحرية عملها؛ آملاً أن يتلقى ردًّا ملائماً، ولم ينسَ بعد ألاعيب عبد الحميد التي لا تنتهي [203] .

أُعلِنت حالة الخطر في قصر يلدز بعد تلقي خبر اقتراب الأسطول. ولم يكن روزفلت مستقراً على رأي في ما ينبغي فعله. وإتقان عبد الحميد فنّ المماطلة وتكتيكاته أثار حنق روزفلت في اجتماعه مع الوزراء، ودفعه لاتخاذ

قرار بقصف إزمير. ولم يتأخر الوزير هاي في اعتراضه: وإذا فتحنا النار على إزمير فماذا سيحصل؟ ستجري الانتخابات في ذلك العام، وسيضطر بسببه إلى سحب الأسطول بسفنه الخمس، وهذا كلّ شيء. ثم اتفقوا على مواصلة السفن طريقها، ولكن لن تفتح نيرانها حتى ترفض المطالب.

لا بد من نهاية. ولكن كيف؟

لم يتمكن الرئيس أن يغرز أنيابه في عبد الحميد عام 1903، وأرسل هذه المرة أسطولاً أكبر، وها هو يكاد أن يفقد عاماً آخر في المتاهات التي يحفرها عبد الحميد باستمرار. جمع مجلس وزرائه في 5 آب، وقد أصبح الرأس العثماني الذي لا ينحني همّ البيت الأبيض وشغله الشاغل. وكان يريد هذه المرة إرسال الأسطول الأوروبي الأقوى إلى إزمير، وحسم الموقف. أمضى روزفلت أمسية كاملة مع وزيره هاي بعد لقائهما على العشاء؛ وهو يحاول حلّ لغز عبد الحميد، ويحاول فهم تصرفاته وسلوكه الغامض.



كاريكاتير في مجلة Oriens في 24 نيسان 1909 بعد إسقاط عبد الحميد عن العرش، وتظهر عبارة:
كيف ينبغي أن تكون نهاية عبد الحميد؟ تومئ إلى إعدامه، ولكن بأي ذنب؟ أيمكن أن يكون السبب في ذلك تأخير جلوسهم إلى الطاولة!

وكلما اقتربت السفن من إزمير؛ ازدحمت إستنبول بحركة التنقّلات، وتكاثفت اللقاءات، وكثرت الاقتراحات ومشروعات الحلّ، بين ليشمان ووزير الخارجية توفيق باشا. وأدرك عبد الحميد أن الأمر لن يكون سهلاً هذه المرة، وأزمة السفن التي استطاع أن يتخطاها مرتين؛ تتقدم إليه هذه المرة في أمواج عاتية. واتخذ القرار: ينبغي حل هذه المسألة من دون الدخول في صدام.

أخيراً، دعي القنصل الأميركي إلى القصر، وتلقى وعداً بأن المدارس التبشيرية ستستفيد من الحقوق الفدرالية. ولم يبقَ مما لم يفعله روزفلت سوى أن يطلب من السلطان أن يؤدي اليمين على المصحف. ورداً على ذلك رفض السلطان طلبهم برفع التمثيل الدبلوماسي إلى مستوى السفارة، وربط ذلك بالوضع المالي الذي تمر به الدولة، والذي لا يسمح برفع مستوى التمثيل الدبلوماسي في واشنطن.

وهكذا، انتهت الأزمة بالتعادل (1-1)، بتقديم تنازل صعب، وامتناع عن آخر. وبينما كانت السفن الحربية تبتعد متثاقلة عن ميناء إزمير في 15 آب 1904؛ كان قصر يلدز يبدأ استعداداته للاحتفال بذكرى جلوس السلطان الثامن والعشرين، ويقترب من مواجهة خطر جديد قادم. والقنبلة التي ستنفجر في جامعه بعد عام ستبين له أن الحصار الذي يضيّق عليه الخناق، إنما هو حصار داخلي أيضاً، وسيدفعه ذلك إلى اللجوء إلى مخازنه الفكرية، وإضافة الاحتمالات الجديدة.

وكان عبد الحميد سيستمر في رقصه مع الذئاب حيناً آخر...

الباب الرابع رجل يحمل مشروعاً



مشروع آخر من منجزات عبد الحميد. Szechenyi باشا من مؤسسي إطفائيتنا العصرية، ورجال الإطفاء.

صاحب مشروع

نحن بحاجة إلى بطل روحي يرى أخطاء أمته فيه، وهزيمتها فيه، ويسعى للفناء فيها **[204]** .

نور الدين طوبجي

إذا كان الجانب المتعلق بالمشروعات من شخصية عبد الحميد الثاني قد بقي عبر التاريخ في ظلال عبقريته السياسية؛ فإنه ينبغي لنا ألاّ نهمله عند النظر في الرسائل التي يبعثها إلى يومنا هذا، بل ينبغي أن يكون في مقدمة النماذج التي نقتبسها من جوانب شخصيّته.

فعلى سبيل المثال، هل تعلمون أنه كان يخطط في مطلع القرن العشرين لبناء جسرين على مضيق البوسفور والخليج في إستنبول، وأنه حضّر في ذلك عدة مشروعات مختلفة؟! وعلى الرغم من أن مشروع جسرَي مضيق البوسفور الذي قدمته شركة السكة الحديدية في البوسفور، والذي يعود إلى المعماري الفرنسي فردينان أرنودن عام 1900 لم يكتب له أن يرى النور؛ فإن الوثائق ما زالت تبين الرسومات والمخططات وتظهر فيها الدلائل التي تشير إلى العمل المكثف في البنية التحتية، والتخطيط لمستقبل إستنبول في ذلك العصر [205] .

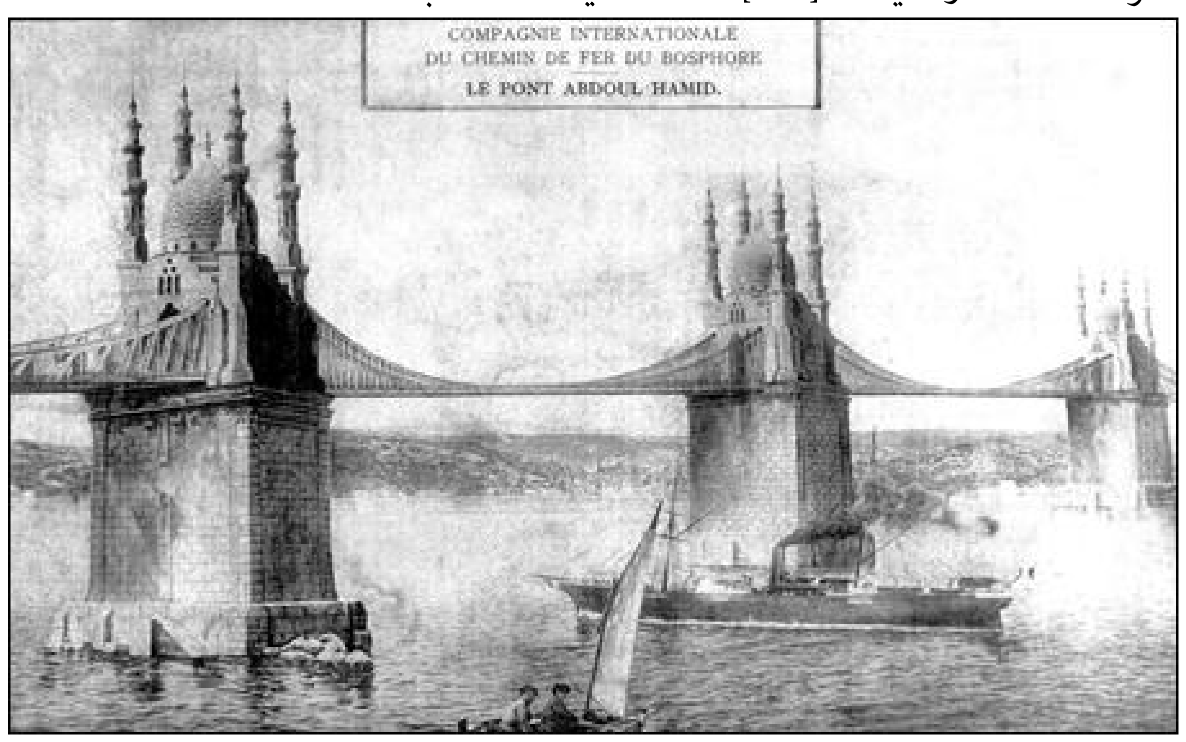


مشروع جسر غلطة، قدّمه جوزيف أنطوان بوڤار الفرنسي إلى عبد الحميد خان بدعوةٍ منه عن طريق صالح منير باشا. (مجموعة الحياة التاريخية).

وسكّة حديد اليمن واحدة من المشروعات التي جرى التخطيط لها، ورست مناقصتها، وبدأت أعمال إنشائها. أعدّ التقرير بشأنها والي اليمن

حسين حلمي باشا عام 1898 - أصبح في ما بعد الصدر الأعظم- وبدأت أعمال الإنشاء عام 1913. غير أن المشروع توقّف وألغي بعد استهداف القوات الإيطالية ميناء جبانة وقصفه بالمدافع [206] .

والخط الحجازي الحديدي من المشروعات التي اكتمل تنفيذها إلى حدٍّ كبير. فهذا المشروع على خلاف الخط البغدادي الحديدي الذي تمّ تمويل جزئه الممتدّ من حيدر باشا إلى أنقرة من قبل الألمان، مشروع محلّي كامل في تمويله وتخطيطه وتنفيذه، من خلال المعونات المقدّمة من العالم الإسلامي، وهذا المشروع وضع إشارات التعجب والاستفهام الكبيرة الجدية في الرأي العام الأوروبي: ترى هل استعاد الرجل المريض الذي أشرف على الموت صحّته وعافيته؟! [207] . لذلك يقف الكاتب



مشروع الجسر الذي يقوم مكانه اليوم جسر السلطان محمد الفاتح، والذي قُدِّم إلى عبد الحميد خان، ويظهر عليه الجوامع. (القبب الكبيرة القرميدية الملونة؛ تُزَيِّنُها السبائِكُ النحاسية الخزفية المذهبة، وتحيط بها المآذن التي تحمل كل جماليات مآذن القرنين السادس والسابع عشر في شمال غرب إفريقيا). (مجلة التاريخ التركي الوثائقية).

الإنكليزي ر. تورت باحترام أمام هذا المشروع الذي ربما كان الوحيد في الدنيا الذي جرى تنفيذه بالكامل من غير ديون أو فوائد ديون . ولهذا، لم يتردد بعض الباحثين في إصدار أحكامهم بأنه: "لو لم تكن

استثمارات عبد الحميد الكبيرة في البنية التحتية، لكانت تركيا عبارة عن بقعة كبيرة تشبه قونيه" [208] - [209] .

عندما تذكر إعادة تشكيل الإدارة في بنيتها المركزية، وتوجيه السياسة الخارجية نحو البحث عن التوازن والتوازنات الدبلوماسية الدقيقة، والحملات الضخمة للاستثمار في التعليم والمواصلات؛ تظهر بوضوحٍ شخصية عبد الحميد المصيرية التي لا يمكن تجاوزها بسهولة في طريق عصرنة الدولة العثمانية وتمدّنها.

وينبغي لنا ألاّ ننسى عمله مع طبقة المثقفين الكبار؛ ومن بينهم بعض الصّدور العظام * ، وإبراهيم أدهم باشا- مهندس المعادن الأول في تركيا- وسعيد باشا الصغير [210] المعروف بشغفه بالكتب- على الرغم من ضيق ذات يده- وأحمد جواد باشا [211] الذي وهب مكتبته الضخمة من الكتب التي جمعها طوال حياته إلى متحف الآثار في تأسيسه الأول، وخير الدين باشا التونسي ذو الأصل الشركسي.

فأحمد جواد باشا الذي عمل صدراً أعظم قبل أربعة أعوام؛ عالم رياضيات، وهو مؤلف كتاب مباحث في الرياضيات الدقيقة ، ويعتبر كتابه الكيمياء الصناعية التطبيقية أوّل مؤلف في ميدان الكيمياء الصناعية في بلدنا [212] . في حين يعتبر كتاب أقوم المسالك لمؤلفه خير الدين باشا الذي استدعاه السلطان عبد الحميد من تونس لمنصب الصدر الأعظم؛ حجراً من أحجار الزاوية في فكرنا السياسي المعاصر [213] .

وكان السلطان عبد الحميد قبل اعتلائه العرش يعرف عن قربٍ أفكار مجموعة الشباب المثقفين الذين يطلقون على أنفسهم لقب: العثمانيون الشباب ، أمثال نامق كمال باشا، وأبو الضياء توفيق، والتي تدور حول الحرية والدستور والمشروطية. وإذا كان الدستور يبدو وكأنه ظهر فجأة بعد اعتلائه العرش؛ فإننا نرى أن السلطان عبد الحميد كان على اتصال مباشر مع المجموعة سابقة الذكر، ويمارس عليها نوعاً من التأثير والتوجيه قبل سقوط عمه السلطان عبد العزيز واعتلاء أخيه الشاهزادة مراد العرش، حتى إنه حدّث مراراً طبيبه الخاص عاطف حسين بيك أنه يعرف أن نامق كمال هو الذي جعل أخاه مراد يدمن على الشراب، ويضيف أنه حاول إقناعه بالكفّ عن معاقرة الشراب [214] .

والقول إن مدحت باشا الذي قدم المشروطية والقانون الأساسي للسلطان عبد الحميد، وحمله عليهما لا يعكس الحقيقة، فالمعروف أن إعلان الدستور كان شرطاً لاعتلائه العرش، وكان السلطان يعتقد بأهميته.

ولذلك، فإن تصرفاته الديمقراطية كتناول الطعام مع أعضاء المجلس، وتحريكه الملعقة مع طاقم عمال الترسانة، وأدائه صلاة الجمعة مع جماهير الناس في المساجد المختلفة؛ تركت آثاراً رائعة بين الناس، وجعلت الشعب يظهر الرضى عن سلطانه.

إنه لمن الخطأ البيّن الشكّ في إخلاص السلطان وحماسته؛ عندما تكلم بانفعال في افتتاح المجلس بعد اعتلائه العرش، وعند إعلانه المشروطية، وإعداده الدستور، ووضعه موضع التطبيق، وإجراء أولى الانتخابات. ولا توجد شبهة دليل للارتياب في ثقة واعتقاد عبد المجيد بضرورة المشروطية والقانون السياسي عام 1876. غير أنه ينبغي لنا أيضاً أن نحلل بشكل دقيق الشروط التي دفعت بالسلطان إلى 1878.

فينبغي لنا ألاّ ننسى هنا أن الذي دعا شاعر الوطن نامق كمال وصديقه ضياء باشا، وعيّنهما في لجنة إعداد الدستور في ظل مجلس شورى الدولة، هو السلطان عبد الحميد. وكانت اللجنة برئاسة مدحت باشا، وقد دافع نامق كمال عن المواد التي تعرضت لاعتراض الحاكم، فاستدعاه السلطان إلى القصر، وتباحثا بشأن الدستور.

تاتغو نامق كمال مع السلطان

دعا عبد الحميد نامق كمال الذي كان قد سقط من عينه منذ عهد عمه السلطان عبد العزيز، وكافأه بجعله عضواً في شورى الدولة، ودعاه إلى لجنة إعداد الدستور، فماذا فعل نامق كمال؟! نظم أبياتاً في هجائه، وكتب فيها تهديداً بلغةٍ يفهمها، وألقاها في أحد المجالس، ذاكراً فيها أن ما تكرر حصوله مرتين يمكن أن يتكرر مرة ثالثة، وكان يعني: أنه كما خلعنا عبد العزيز، ومراد الخامس عن العرش؛ يمكن أن نعزل عبد الحميد فيكون الثالث .

وبينما كان عبد الحميد الثاني مشغولاً بالعمل على تشتيت الطائفة التي قامت بالانقلاب على عمه، وبمعنى آخر: اقتلاع بذور الانقلابيين في سدة الحكم، جاء تحريك شاعر الوطن عصا التهديد من تحت عباءته؛ ليكون القطرة الأخيرة التي جعلت الإناء يفيض. وعلى الرغم من تقديمه للمحاكمة بتهمة الإخلال بالأمن العام، فإنه لم يحكم عليه بالسجن، وحكم بالإقامة الجبرية منفياً في جزيرة غريت، ونقل برغبة منه إلى جزيرة ميدللي .

وفي ميدللي انتابته سورة الغضب مرة أخرى، وإذا كان قد شن هجومه الشديد على عبد العزيز والصدر الأعظم علي باشا؛ فإن المستهدف هذه المرة عبد الحميد بحجة الهزائم في حرب 93 . وعندما كان رأس قلمه

المطواع ينساب بأقذع الهجاء ينال به من عبد الحميد، لم يكن يفكر في الماضي ولا في الآتي، ولا أن هذه الكلمات ستجتمع غصةً في حلقه، كانت الأبيات تندد ببقائه على العرش على الرغم من الهزائم أمام الروس، وتندد بحبه للسلطة، وتندد بهوسه بالعرش وتمسّكه به؛ على الرغم من ابتلاع الأراضي من قبل الأعداء، ويعتبره بلاءً من الله، جاثماً فوقنا .

فما الذي قام به السلطان حتى يكتب نامق كمال عبارته: بلاء من الله ، من محلّ إقامته في جزيرة ميدللي؟ كلّ ما قام به بلاء الله هذا- السلطان عبد الحميد- هو أنه نقله من إقامته الجبرية، وجعله والياً لمتصرّفية ميدللي. نعم، جعله والياً عام 1879 .

ثم ماذا حدث؟

عينه والياً لرودوس و z ı sak ، وبدأ بكتابة التاريخ العثماني، وربما كان جو رودوس ملائماً له، وبدأ بطباعة التاريخ العثماني على شكل أجزاء. وكان الجزء الأول يحمل في مقدمته احتراماً كبيراً للسلطان عبد الحميد الذي كان يصفه قبل ذلك؛ ببلاء الله وانتقامه .

وبينما كان، ربما، ينتظر عطية سنية كبيرة من السلطان؛ حدث العكس تماماً، فالسلطان كان يعتقد التصنّع في هذه المبالغة، ولم تعجبه عبارات الاحترام، فأمر بإيقاف طباعته .

كانت صدمة نامق كمال كبيرة، وعلى الرغم من أنه توسل الرسائل لبيان الخطأ في فهمه؛ غير أن هذه المحاولة باءت بالفشل. ولم يمهله الأجل فتوفي بعد مدة قصيرة في جزيرة z ı sak في 2 كانون الأول 1888 .

أوصى بأن يدفن بجوار قبر سليمان باشا بن الغازي أورخان فاتح روم ألي. وبأمرٍ من بلاء الله تم تحقيق وصيته، فهو الآن يرقد رقدته الأبدية في القبر المجاور لقبر سليمان باشا، والذي قام بتخطيطه توفيق فكرت، ودفع ثمنه السلطان عبد الحميد [215] .

وإذا كان الشاهزادة عبد الحميد لم يظهر فعلياً في المجموعة التي خلعت السلطان مراد الخامس لظهور علامات الجنون عليه؛ فإنه كان قريباً منها، وبعبارة أخرى: كان مدركاً تماماً للنبض الثقافي في عصره، وكان يدرك عن قرب منافسيه وخصومه في المستقبل [216] .

كانت السنوات العشر الأولى من القرن العشرين فصولاً مثيرة مضطربة من التاريخ في ظلال التنافس الاستعماري على مناطق النفوذ، والصراع من أجلها والتقدم خطوة خطوة نحو الحرب العالمية الأولى.

أدرك عبد الحميد مبكراً قبل هبوب عواصف تلك السنوات ضعف

البنية التحتية للدولة العثمانية، وشمّر عن ساعديه، ونزل إلى الميدان مع شعبه وأمّته لتلافي هذا الضعف ومعالجته. وكانت الاتصالات والمواصلات تشكّل أشدّ العوائق الجدّية في طريق الدولة العثمانية نحو العصرنة والتمدن [217] .

تخيلوا أنه عندما كانت مدينة إزمير بعيدة بعد النجوم عن المناطق القريبة التي لا تتجاوز مئة كيلومتر، كانت بمينائها قريبةً من ميناء مرسيليا، وفي وحدة حال مع مدينتها. وعندما كان هذا الخلل يفتح الطريق لهلاك المنتجات الزراعية في أيدي المزارعين؛ كان ذلك سبباً في استيراد شحنات القمح من ميناء أوديسا الروسية إلى إستنبول [218] .

فهل كان الانتظار يليق برجل المشروع؟! الجواب بالتأكيد لا... وهكذا نستطيع أن نفهم همَّ السلطان وسعيه لتأسيس البنية التحتية وتحضيرها في هذا الجو الذي يسوده الحرمان وعدم الكفاية؛ ليقوم عليها مستقبل مشرق لهذا البلد...

انقلاب في البنية التحتية

ارتفع عدد سكان الإمبراطورية في عهد سلطنة عبد المجيد بنسبة 37 بالمئة، من عشرين مليون نسمةٍ في نهايات سبعينيات القرن التاسع عشر إلى 27 مليون نسمة. وفي هذا العهد عرف سكان الأناضول نمواً أسرع .
إريك جان زورخر؛ تاريخ التمدن التركي

كانت الدولة العثمانية حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر تمتد على رقعة واسعة من الأرض تبلغ مساحتها مع البلدان المرتبطة بها اسماً، خمسة ملايين متر مربع. إلا أن المراكز الكبرى في هذا الوطن الواسع كانت تعاني مشاكل في ضعف المواصلات والاتصالات في ما بينها، ومن ضعف الكثافة السكانية؛ عدد السكان/م 2 ، فالدولة العثمانية باستثناء شبه الجزيرة العربية لا يتجاوز عدد سكانها 32 مليوناً عام 1912. وضعف الاتصالات بين هذه المراكز الإقليمية كان سبباً هاماً لصعوبات يواجهها حكامها في الحماية والدفاع عن الحدود. وعبد الحميد الثاني كان يرى حقيقة هذا التخلف، والبعد عن المطالب العصرية، وراح يبحث عما يمكن فعله في سبيل تصحيحها.

فنرى أنه في مجال الاتصالات قام بتكوين نظام البريد والتلغراف، وأدخله في مرحلة التطبيق والعمل، مما يعتبر إنجازاً كبيراً وهاماً في شروط ذلك العصر، فقد استطاع بذلك تأمين جريان الأخبار وانتقالها في الدولة العثمانية من أقصاها إلى أقصاها، بعيداً عن احتكار البريد الأجنبي.

تم إنشاء وزارة باسم البرق والبريد للمرة الأولى عام 1877 من أجل تفعيل عملهما. فاجتمعت لجنة مؤلفة من خمسة أعضاء يمثّلون نظارات؛ وزارات: الداخلية، والمالية، والرسوم؛ الضرائب، والبرق، والبريد، لبحث وظائف البريد المتعددة وتأمين انتشار خدماته. والأبحاث والتقارير تشير إلى أنه تم إيقاف البريد الأجنبي عن العمل عام 1316 (1900) **[219]** .

وفي 27 حزيران 1900 بدأ قلم الحوالات في مؤسسات البرق والبريد بالعمل. وفي 30 أيّار 1901 أنشئت مباني البريد. وفي 30 آب 1901 جرى الاتفاق مع شركة السكة الحديدية- وكان اسمها شمنديفير الشرق- من أجل تأمين الوصول السريع إلى هذه المباني.

وتعود معظم مباني البريد القديمة في المراكز المختلفة إلى عهد عبد الحميد، وما مبنى البريد الكبير الذي أنشأه المعماري ودات بيك في سيركجي في إستنبول [220] ، ومبنى البريد الذي كان يستعمل حتى عهد

قريب في بي أوغلو، ومبنى بريد أوسكوپ، وغيرها... إلاّ قطرات من بريد ذلك العصر.

أما في مجال التلغراف؛ فإن طول خطوط التلغراف في الدولة العثمانية عام 1908 كان يبلغ خمسين ألف كيلومتر. وكان الهدف الأساسي منه ربط أقصى ولايات الدولة بالمركز، ولذلك كان في قصر يلدز أيضاً وحدة تلغراف [221] . ففي عهد عبد الحميد ارتفعت وتيرة العمل في مدّ خطوط التلغراف، وصدرت الأوامر بتهيئتها للأرصاد الجوية، فكانت تعمل على تأمين أخبار الطقس مع سيل الأخبار الأخرى إلى المركز، وكان ذلك بداية لتقاريرنا اليومية عن أحوال الطقس [222] .

ولم يتأخر استخدام الهاتف في إستنبول سوى خمس سنوات بعد أول ظهور له في أوروبا عام 1876، فجرى استخدامه وإن كان ذلك في نطاق ضيق عام 1881.

وكانت الطرق البرية جانباً آخر من أولويات عبد الحميد، وجرى العمل على تنفيذ شبكة الطرق المرصوفة التي تؤمن المواصلات في الأناضول كلها، وانضم الشعب كله إلى العمل وفق النظام الذي دخل الدولة عام 1869، فكان على كل رجل من كل عائلة يبلغ من العمر السادسة عشرة وحتى الستين أن يعمل بوسائله الخاصة أربعة أيام من كل عام في هذا المشروع. ومن يتخلف عن ذلك يلزم بدفع البدل، ولأمر ما كان هذا النظام قد ألغي قبل عام من اعتلائه العرش، فأعاد العمل به.

يذكر سعيد باشا الصغير في مذكراته أنه جرى بعد عام 1879 من خلال العمل الشعبي تعبيد خمسة آلاف كيلومتر من الطرق. وفي عام 1895 كان طول الطرق المرصوفة ضمن حدود الجمهورية التركية الحالية 10160 كم. وكان خليل رفعت باشا- يملك براءة اختراع مقولة: **"ليس لك إلا ما تستطيع الوصول إليه"**- يمضي قسماً كبيراً من أيام ولايته في صامصون مشرفاً على تعبيد الطرق، ويمكن القول إنّ الطرق التي تربط اليوم بين جنوب الأناضول وشرقه تعود إليه [223] .

أصبح الطريق ممهداً من صامصون حتى بغداد بطول 12 ألف كيلومتر عام 1895، علاوة على الطريق الممتد من گوموشخانة- بايبورت- أرضروم- دوغوبيازيد وإلى إيران عام 1879. وبفضل ذلك تتالت الهجرات إلى صامصون، وظهرت مدينتنا الجميلة على ساحل البحر الأسود [224] . وكذلك كانت بورصة تعيش وكأنها في قطيعة مع محيطها والعالم، فتحولت بالطرق التي مهّدت في داخلها، وتعبّدت مواصلاتها مع المدن الأخرى، واستعادت

مكانتها كملتقى للطرق. غير أن الكتابات التي كانت تؤرخها وصادفت من التعساء من يزيل اسمه عنها [225] ، وهي محاولة بائسة لإخفاء حقيقة عبد الحميد، ستدخل التاريخ.



لوحة منقوشة على المرمر في متحف الآثار التركية الإسلامية في بورصة، تعود إلى جادة Mihaliç. تظهر فيها آثار السطر الأول من النظم الذي يحمل اسم السلطان عبد الحميد. (تصوير: محمد گول گونول).

من يملك القدرة التي يخفي بها الشمس؟!

تُظهر الشوارع الكثيرة وشبكات الطرق البرية الممتدة من بتليس إلى بغداد، ومن فلسطين إلى نيدة في عهد السلطان عبد الحميد؛ الاهتمام بالأعمال العمرانية، وما الجسر المرفوع على نهر الفرات في دير الزور إلا خدمة واحدة من تلك الخدمات العمرانية [226] . وسبيل الماء- چشمة- الذي تظهر عليه طغراء عبد الحميد في قرية أَق صو في بورصة ليس سوى نموذج يبين أن نشاطه الخيري امتد إلى القرى ولم يتوقف عند حدود المدن [227] .

كان السلطان عبد الحميد يسعى بذلك إلى إعادة ربط الأجزاء المتفرقة من جغرافيّة الدولة. يهمّ بمد شبكات التيار الكهربائي، ويحس بوطأة

العجز في مؤهلات شعبه ويسعى إلى رفع مستوى تعليمه، ويولي اهتمامه الكبير لسد الثغرات الكبيرة في الخبرات والعناصر المؤهلة. فكان من قدره أن يكون على عاتقه من الحملات الكبيرة- كالتي كانت في مجال التعليم- ما يبلغ أضعاف ما جرى تنفيذه في عهد التنظيمات، كما سنرى في فصل قادم.

ومدارس البنات الأولى افتتحت في عهد عبد الحميد خان، وعندما أبدى عبد اللطيف صبحي باشا؛ وهو من الشخصيات العلمية في عصره؛ تردده في افتتاح مدرسة العلوم للبنات؛ أعلن عبد الحميد تأييده الصريح بقوله: "افتتح المدرسة، وأنا خلفك"، وخطا بذلك الخطوات الأولى لترغيب البنات في الدراسة [228] . ويكفي لبيان نمو عدد الطالبات والمدارس في عهده أن نجري مقارنة بين عدد مدارس البنات في إستنبول بين عامي 1879 و1904 [229] .

كان الحذر من المدارس الأجنبية والإرساليات التبشيرية، والتيقظ الدائم لها؛ من الأولويات التي توقف عندها عبد الحميد في أثناء تخطيطه لمجال التعليم. وعندما قرر الصدر الأعظم كامل باشا القبرصي المعروف بميوله الإنكليزية إرسال بناته وهنّ على وشك البلوغ وبينهنّ ابنته مقبولة وهي في عمر سبع أو ثماني السنوات إلى المدرسة الفرنسية Sör عندما كان والياً في إزمير (1895-1906)؛ لم يمضِ وقت طويل حتى كانت الأخبار تصل إلى مسامع عبد الحميد، ويصدر إرادته الخاصة، ويتلقى الباشا التنبيه الحاسم القاطع:

قصة افتتاح أولى مدارس البنات في صامصون

تم افتتاح أولى مدارس البنات في صامصون عام 1898 من قبل وزارة التعليم الملّيّة. فقد قامت بشراء كرم زبيدة هانم في محلة السوق- پازار- حيث أقيمت مدرسة إيناس المركزية، وبدأت التعليم في صفوفها الثلاثة. أصبح اسمها في ما بعد مدرسة بوزقورت. وقامت فريدة صامصون الصارمة- إقبال هانم- والتي أرسلت من قبل وزارة التعليم بتسجيل الطالبات في المدرسة. وكانت ثالثة هانم بنت يوزباشي الخيالة شمس الدين أفندي، وباسمة هانم بنت مهدي أفندي شيخ تكية السعديين، وأمينة هانم بنت رئيس الحمالين أولى الطالبات المنتسبات إليها .

وكان لانتساب ابنة الشيخ أهمية كبرى في فتح الطريق أمام المتديّنات وترغيبهنّ، وتغص قاعة التسجيل عند إقبال هانم بعشرات الطالبات المتدينات. ولا بد من ظهور علامات الاستغراب في البداية وانتشار الشائعات

والأقاويل، غير أن القافلة المنطلقة ستمضي، وتشق الطريق للأجيال القادمة مستهينةً بكل الصعوبات .

كانت الدروس تتناول القرآن الكريم، والتجويد، والفقه- علم الحال- والقراءة، والإملاء، وحسن الخط، والرياضيات، وعلوم اللغة، والمعلومات المفيدة، والأشغال اليدوية. ويوم الخميس تأتي معلمة تدعى نينا تعلم البنات الأناشيد. كما أهديت المدرسة آلة بيانو. وبفضل هذه الآلة التي قدمتها والدة شاه بندر زادة علمي بيك؛ انطلقت دروس الموسيقى في أعوام لاحقة .

وهكذا تعرّفت البنات في مدينة أناضولية صغيرة إلى المدارس في عهد عبد الحميد خان، وقطعت ألوف البنات أشواطاً واسعةً في الطريق إلى الحياة المدنية. وربما كان من الطريف أن تمارس خديجة هانم بعد أعوام من تخرجها من تلك المدرسة؛ دورها كمعلمة فيها .

"لا يجوز للولاة وكبار الموظفين أن يرسلوا أولادهم إلى المدارس المسيحية..." [230] .

ولا بد هنا من القول: إن من خصائص عبد الحميد أيضاً أنه كان يأمر ببناء مدرسة ابتدائية في كل قرية يبني فيها مسجداً [231] .

وهكذا حضّر لنا الأرضية التي يقوم عليها تمدّن خاصّ، غير أن سير الأجيال القادمة في الطريق من مسؤوليّته، وسيأتي يوم ينقطع فيه السير، ويتدمر فيه الانسجام ويؤول إلى خرابٍ؛ كما يقول محمد عاكف:

ما كان ينبغي لنا أن نحيل انسجامنا إلى خرابٍ، وقد فعلناه. لم يعد من الممكن سدُّ هذه الثغرة التي فتحناها .

وهذا الدعم اللوجستي الذي ننتظره بفارغ الصبر لإعادة إعمار الانسجام في حياتنا اليوم، وسدّ الثغرات المدمية التي فتحناها في أسوار أرواحنا؛ كان سيأتي من عبد الحميد قبل قرن من الزمان...

يمكننا الآن أن ننتقل إلى الحديث عن مشروعه في التعليم...

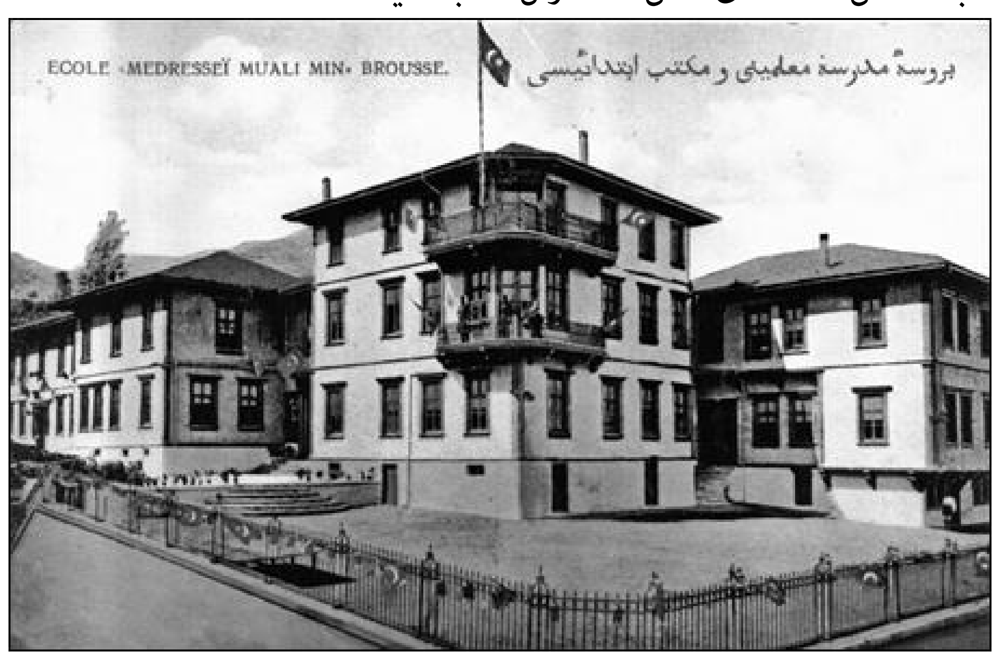
الرّعيان جزء من مشروع عبد الحميد في التعليم الحديث

ليس الإسلام ضدّ التقدّم، لكن الأمور القيّمة يجب أن تكون طبيعية، وأن تنبثق من الداخل، ولا يمكن أن يكتب لها النجاح؛ إذا كانت على صورة التطعيم من الخارج .

السلطان عبد الحميد الثاني

عندما نتناول الحديث عن التعليم في عهد السلطان عبد الحميد؛ فلا يسعنا إلا أن نضعه في موضعه الصحيح في إطار التحديث الذي بدأ منذ عهد التنظيمات، والذي امتد فصولاً من الزمن ما بين عامي 1839 و1876، وينبغي تقييمه على أنه خطوات في مشروع وقانون التنظيمات في مجال التعليم. فعلى الرغم من حملات الإجبار من أجل التحول إلى نظام التعليم الحديث، وبعض النتائج المتواضعة التي تم التوصل إليها في هذا العهد من حياة الإمبراطورية؛ فإننا نرى أن هذا التحول لم يكتسب السرعة والسوية المطلوبتين، وربما نرى الآن أيضاً بعض الأخطاء التي تم التشبث بها في ذلك العهد في هذا المجال.

من هذه الأخطاء، أنه على الرغم من الإعراض عن المدارس والذي ساد في ذلك العصر؛ لم يكن هناك تقويم ولا إعادة نظر عند الانتقال من مرحلة إلى أخرى في تطبيق هذا النظام التعليمي الحديث. وسادت تعليمات أمر الله أفندي ناظر المعارف في عهد المشروطية والتي تتجه إلى تعليم النخبة بدلاً من الانطلاق من المدارس الابتدائية



دار المعلمين التي افتتحت في عهد عبد الحميد في بورصة، (أتم فيها المؤلف دراسته المتوسطة، وكانت قد تحولت إلى إعدادية محمد جلبي، وربما كانت هذه الدراسة في مدرسة من المدارس التي افتتحها؛ سبب اهتمامه بالسلطان عبد الحميد وحبه لشخصيته).

كما يجري في الهند اليوم، وسيطرت النظرية الطوباوية في التعليم، نعم، سادت هذه التوجيهات منطق التعليم في ذلك العصر، فمهدت الطريق إلى إهمال المدارس الابتدائية.

وهكذا تركزت حملات التعليم على الرّشديّات التي تقابل المرحلة الثانية من التعليم الأساسي اليوم، وأهملت مرحلة التأسيس الأولى. وانصبت على افتتاح الجامعات؛ دار الفنون، وأهملت المرحلة الثانوية، مما يظهر الخلل الذي كان يسود عقليات ذلك الزمن.

فالمجتمع الذي تسود فيه مدارس الصبيان المرتبطة بنظارة الأوقاف والمشيخة الإسلامية، يتلقى فيها طلاب الابتدائية العلوم الدينية. ومن يتشبث بالمدارس الابتدائية والجامعات لتعليم العلوم الطبيعية والعصرية يكون كمن ينتج سلّماً ناقص الدرجات، فإلى أي مستوى يمكن أن نرتقي بمصعد هذا التعليم الذي تساقطت أسنانه؟!

ولذلك لم نحصد ما يرجى من الثمار من الرشديات أو من دار الفنون التي افتتحت وأغلقت ثلاث مرات، وبقيت دار الفنون بفتراتها التعليمية القصيرة التي تخلو من المرحلة التأسيسية السابقة؛ مجرّد استعراض بلا إثمار.

وقيام مجلس الأمور النافعة واختصاصه بالتعليم والإشراف على المدارس عام 1838، وقيام نظارة المدارس الرشدية، وقيام نظام التعليم العلماني في العام نفسه، وإنشاء مجلس المعارف العمومية لإصلاح ميدان التعليم عام 1846، وأخيراً قيام نظارة المعارف العمومية التي تعتبر ميلاداً لوزارة التعليم عام 1857؛ يمكن القبول به كخطوة جادة نحو تحديث التعليم، إضافة إلى قانون المعارف العمومية الذي صدر عام 1859 والذي شكل بذور الجهود التي ستبذل في ميدان التعليم في السنوات اللاحقة.

غير أن معظم هذه الجهود التي انطلقت بدافع النوايا الحسنة لم تبتعد كثيراً عن التخطيط والتصميم، واصطدمت محاولات التطبيق بعوائق مختلفة نابعة من الأعراف والعادات، وكان لا بد من انتظار عهد السلطان عبد الحميد الثاني من أجل الوصول إلى أهداف هذه التحضيرات، وإنقاذ شبكات التعليم من حدود العاصمة إستنبول، ونشرها حتى أطراف الدولة

النائية. وعلى الرغم من أن دستور 1876 كان يستهدف سلسلةً متصلةً متعاقبةً من حملات التمدن؛ فإن اندلاع الحرب الروسية (1877-1878) والهزائم التي تبعتها وخسائر الأرض الهائلة؛ كل ذلك شكل الحدث الذي أعاق الجهود المبذولة في ميدان التعليم. وهذا هو السبب الأساسي لتأخر استجماع الدولة قواها حتى عام 1879.

سأحاول هنا مقارنة الإنجازات التي تمت في عهد عبد الحميد خلال ثلاثين عاماً؛ بما تم إنجازه في عهد التنظيمات، والميراث الذي خلّفه للسنوات اللاحقة؛ وعهد الجمهورية ضمناً، وتأثيراته في ميدان التعليم، بدلاً من تقديم كشف حسابٍ تفصيليٍّ فيه. فنقدم بذلك رؤية عامة متفحّصة على الجهود المكثّفة التي بذلت في ذلك العهد الذي يوصف بالرجعية والظلامية في سبيل تحضير البنية التحتية، وتنمية الثروة البشرية.

بقيت مدارس الصبيان بتركها في عهدة نظارة الأوقاف والمشيخة الإسلامية خارج جهود الإصلاح المبذولة في ميدان التعليم؛ لأنها كانت تجري في نظامٍ تعليميٍّ جذوره معلّقة في الهواء. وكان قد جرى افتتاح مدرسة لإعداد مدرسي كتاتيب الصبيان عام 1868 إلا أنها لم تكن كافية لسدّ احتياجات الإمبراطورية الواسعة، فاتُّخِذ بعد ذلك بعامٍ قرارٌ بافتتاح المدارس الابتدائية المستقلة عن كتاتيب الصّبيان، وكانت البداية في عصرنة التعليم الابتدائي، إلا أنه من المؤسف أيضاً أن هذه المدارس لم تلقَ الجدّية المطلوبة.

ومن المثير للانتباه أن دستور عام 1876 كان يفرض التعليم الابتدائي الإلزامي في الدولة العثمانية في ذلك التاريخ المبكر الذي كانت فيه معظم الدول الأوروبية بعيدة عنه. وهذه هي المادة من الدستور:

إلزام أفراد الدولة العثمانية كافة بالمرتبة الأولى من تحصيل المعارف، وبيان تفرعات هذه المادة ودرجاتها في قانون خاص .

ومع بقاء كتاتيب الصبيان من دون مساس؛ كانت تفتتح المدارس الابتدائية المنافسة بكثافة، ويجري السباق المحموم بين الأصول الجديدة والأصول القديمة، ويغدو ذلك من القضايا التي تشغل الدولة، ثم كانت هذه المادة تشكل بذور قانون توحيد التدريسات في عهد الجمهورية، وانهيار هذه الثنائية في التعليم.

وهكذا انتشرت المدارس الابتدائية، وكان انتشارها في المناطق ذات الكثافة المسلمة أولاً؛ لردم الهوّة الكبيرة التي كانت في مستوى التعليم بين المسلمين وغير المسلمين من رعايا الدولة، فقد كان لغير المسلمين مدارسهم

المتفوقة للذكور والإناث، وكان لا بد من التحرك السريع، وتحقيق التجانس التعليمي بين المسلمين وغير المسلمين حفاظاً على مستقبل الدولة.

ارتفع عدد المدارس الابتدائية من ست مدارس عام 1876 إلى خمسين مدرسة عام 1886، وبلغ عدد المدارس وفق الأصول الحديثة 3057 مدرسة عام 1892-1893، في حين لم يكن هذا العدد يتجاوز 200 مدرسة عام 1877. ويرتفع هذا العدد ثلاثة أضعاف إلى 9347 مدرسة في العام الدراسي 1905/1906. وبلغ المتوسط السنوي للمدارس التي افتتحت في عهد عبد الحميد 400 مدرسة سنوياً، ويمكن اعتبار هذا الرقم قياسياً في ذلك العصر.

وكان لا بد من تأمين المعلمين لكل هذه المدارس، فافتتحت دور المعلمين في مراكز معظم الولايات؛ الخاضعة لنظام دورات التأهيل المكثفة.

وإذا كانت الرشديات قد افتتحت في عهد التنظيمات؛ فإن معظمها كانت استعراضية فارغة، ولم تكن تملك المباني الضرورية السليمة، ولا الهيئة التدريسيّة الكافية، ولا التجهيزات اللازمة. وفي عهد عبد الحميد تضاعفت الرشديات ثلاثة أضعاف من 250 رشدية عام 1876 إلى 900 رشدية تمارس التعليم، وتخرّج الأجيال في مبانيها الخاصة بها عام إنزاله عن العرش.

بيانو في مدرسة البنات

أحب هنا أن أنقل لكم هذه اللفتة المثيرة من كتاب نظارة المعارف العمومية: نشأتها التاريخية وأعمالها :

في إطار نشاطات عام 1300 - 1882/1883 - جرى احتفال لتوزيع المكافآت لطالبات الدوام النهاري والدوام الليلي- أي المقيمات- في مدرسة إيناس الكائنة على طريق الديوان يوم السبت 25 شعبان- 1 تموز 1883 - بحضور منيف باشا وآخرين من رجال الدولة، وقد سرّتهم إجابات الطالبات عن الأسئلة التركية والفرنسية والألمانية، والمهارة التي أظهرنها في العزف على البيانو، وأقيم معرض للوحات الرسوم والأشغال اليدوية [232] .

كانت الرشديات بمستوى المدارس المتوسطة، وكان لا بد من افتتاح الإعداديات التي تقابل التعليم الثانوي، فاتجهت أموال الضرائب إلى إنشائها، فافتتحت 43 إعدادية في المرحلة الأولى في أماكن مختلفة، وكان لبعضها قسمها الداخلي. وفي نهاية عهد عبد الحميد (1909) كان عدد الإعداديات 109 مدارس يُدرَّس فيها عشرون ألف طالب.

ولم يكن ذلك كافياً، فقد تمّ الاحتفال بافتتاح مدرسة غلطة سراي الشاهانية، وكان التدريس باللغة الفرنسية، ويجري اختيار طلابها بعد امتحان قبول، ويدرس فيها الطلاب من مختلف الملل والجماعات. ولم يكن يغيب

عن الأنظار اتباع سياسة خبيرة من قبل إدارات ذلك الزمن في قبول الطلاب ومواد الدراسة، فيلاحظ انخفاض عدد الطلاب غير المسلمين مع الزمن، والتركيز على اللغة التركية. ولم تبقَ هذه السلطانيات محصورة بغلطة سراي، فافتتحت في كريت وبيروت، في اختيار غير مألوف.

لم يسعف الحظ دار الفنون - العلوم - فافتتحت وأغلقت عدة مراتٍ، واحترق بناؤها بعد افتتاحها بقليل، وأُغلقت للمرة الأخيرة عام 1881، حتى أصبحت البنية التحتية جاهزة ليستقيم عليها تعليم التنظيمات. وكان من نصيب السلطان عبد الحميد تمهيد الأساسات التي تقوم عليها جامعاتنا، وعند اقتراب موعد جلوسه الخامس والعشرين؛ أصدر إرادته الخاصة بافتتاح دار الفنون مرة أخرى؛ ليبقى تاريخها الزاهي محلقاً في أجواء إستنبول الضبابية طيلة 33 عاماً حتى إغلاقها عام 1934.

إنه من العسير علي أن أحصي هنا كل الإنجازات في هذا المجال، وليس من السهل تقديمها في خطوط عريضة، وليس لنا إلا إيجاز المخلّ...

مدرسة الهندسة البحرية التي أصبحت اليوم المدرسة البحرية العسكرية، والمدرسة الطبية العسكرية وهي اليوم GATA ، والمدارس الحربية التي هي أساس المدارس الحربية اليوم، ومدرسة البيطرة العسكرية، ومدرسة الأركان، ومكتب الملكيّة الذي تحول إلى كلية العلوم السياسية، والمدرسة الطبية التي شكلت بذور كليات الطب في جامعة إستنبول، والتي تم إنجازها جميعاً في عهد عبد الحميد؛ تقف أمامنا اليوم وهي تحمل هوية التحديث التي نراها في عالمنا اليوم.

وينبغي لنا أن نضيف هنا الحديث عن المدارس العليا التي تم التخطيط لها وإنجازها في هذا العصر أيضاً، نذكر منها:

مكتب الحقوق (1880) الذي شكل أساس كلية الحقوق في جامعة إستنبول، وافتتح بخطابٍ ألقاه جودت باشا مؤلف المجلة . والمدرسة الزراعية البيطرية؛ ڤ يترينر (1887) التي انتقلت إلى أنقرة (ودرس فيها محمد عاكف الذي أصبح في ما بعد معارضاً لعبد الحميد). ودور المعلمين، ومدرسة الهندسة المدنية التي تحولت في ما بعد إلى مدرسة الهندسة العليا، ومدرسة الصناعات النفيسة التي تخرج منها معظم الفنانين (1882)، وتعتبر بداية كلية الفنون الجميلة اليوم، ومدرسة التجارة الحميدية (1884) نواة أكاديمية العلوم الاقتصادية والتجارية التي حافظت على وجودها حتى وقت قريب، ومدرسة العشائر (1892) يدرس فيها أبناء العشائر العربية والكردية والبدوية، ودار تعليم مهنة تربية دودة القزّ وإنتاج الحرير

(1886)، ودار تحصيل الحرير (1889) في بورصة، وكانتا البذرتين اللتين أنتجتا معهد تربية دودة القز في بورصة، ومدرسة الكروم والتطعيم، ومدرسة الغابات وخامات المعادن، ومدرسة الشرطة، وسلسلة كبيرة من المدارس التطبيقية التي تخرج منها أولئك الذين أقاموا الجمهورية التركية، والدول المنفصلة عن الدولة العثمانية في القرن العشرين. وعندما زار الأمير فيصل - من العائلة السعودية، وأصبح في ما بعد ملكاً - إستنبول عام 1932 وبدأ يتكلم بالتركية الصافية في لقاءٍ صحفيٍّ أثارت دهشة الصحفيين، أجابهم: "ليس في الأمر ما يوجب الدهشة والاستغراب؛ لأن أجدادي تلقوا تعليمهم في مدارس إستنبول".

ولا بد من أن نضيف هنا أيضاً مدرسة الرعيان في المزرعة النموذجية في أنقرة عام 1898. وبذلك نرى أن سنوات السلطان عبد الحميد الثاني كانت عهداً لنشر العلوم في كل المجالات بما في ذلك تربية المواشي والحيوانات [233] .

العثمانيون تخرجوا من المدارس التي افتتحت في عهد عبد الحميد والتي كانت موجودة من قبل وتطورت في عهده، بمستوى لا يمكن مقارنته بعام (1876). وتكونت العقليات التي تحمل المعرفة، ومفهوم الوطن المشترك، والملّة العثمانية، والمزودة بالعلوم الحديثة من الطب إلى الحقوق، وتعرفت إلى الأجهزة العلمية والتكنولوجية الحديثة، والأهم من ذلك انتشار الثقافة المكتوبة في المجتمع، وظهرت النصوص المطبوعة التي استفاد منها كلّ من السلطان ومعارضيه، واستمرت المناوشات السياسية عبرها وتطورت حتى عام 1908. حتى إذا ظهر الانفجار الكبير في عالم الصحافة عام 1908 أصبح السلطان هدفاً لانتقاد الخريجين من هذه المدارس حتى صدور قانون تقرير سكون عام 1924. فبينما كانت هناك زمرة قليلة من المثقفين ممن يعرفون القراءة والكتابة عام 1876؛ أصبح عدد المسلحين بسلاح الثقافة والمعرفة جمهوراً غفيراً لا يمنعهم من النزول إلى الميدان شيء، وتبقى هنا:

أهلية هؤلاء في حمل هذا السلاح، وقدرتهم على استعماله الصحيح، لها حكايتها المستقلة [234] .

أبراج الساعة أيضاً تتحدث عنه

إن عقلي يتمرد على السكون، دلّني على مشكلة، أو عمل أقوم به، أو أصعب الألغاز، أو أعقد التحليلات؛ وعندها فقط ألقى عالمي الذي أنسجم معه... إنني أبحث دوماً عن الحماسة العقلية .
كونان دويل
(أَحبُّ الروائيين البوليسيين إلى السلطان عبد الحميد)

لقد قرأ أجيالنا عبارات التنبيه الأولى المتعلقة بالأبراج التي تحمل الساعات الكبيرة في ثلاث رسائل لعصمت أوزال، فربما لم تجد الأجيال التي عاشت مع هذه الأعمدة القائمة في الأماكن المختلفة في إستنبول والأناضول الوقت الكافي للتفكير في دلالاتها. ففي هذا العصر الممتد من العام 1970 وحتى العام 1980 الذي تعمّق في التحزّب الإيديولوجي، وتراصّت فيه السواعد، وانطلقت الشعارات التي تنادي بالموت للشيوعية وأمثالها، كانت أعواماً شاذةً يجري فيها استقطاب الأبيض والأسود [235] في المجتمعات، وهذه الأعوام الشاذة التي أستعملها بعد أعوام طويلة لم تنشأ من فراغ، فكانت أعواماً غريبة حقاً عشناها بكل غليانها وأطوارها، وذلك هو عذرنا الوحيد.

يتحدث عصمت أوزال في برج الساعة من مسائله الثلاث، أن الفرنجة الذين يزورون البلاد الإسلامية كانوا يشتكون من خلوها من أبراج الساعة، ويربطون ذلك بالأذان الذي يرفع كل يوم خمس مرات. فيرى عصمت أوزال أن المسلمين لا يقيسون الزمن بآلة ميكانيكية، بل بالأذان وأوقات الصلوات التي تقسم يومهم إلى فصول حيّة رائعة. وقد عرض أيضاً أحمد هاشم الفوارق بين الساعات الزمنية و ساعة المسلم بشكل رائع في مقالة له بعنوان: ساعة المسلم . علاوةً على أن هذه الأبراج كانت تعيد ذكرى الكنائس من خلال الأجراس التي تدق على رأس كل ساعة في البلاد الإسلامية. وباختصار كانت أبراج الساعة هذه تندرج في إطار تغريب البلاد و تنصيرها وتعتبر جزءاً من مشروعها [236] .

ما من شكٍّ عندي في أن هناك علاقة وثيقة بين أبراج الساعة ومشروع التمدن، فالاستعمال الدقيق للوقت يشكل خطوة بالغة الأهمية في المدن الصناعية في الزمن البرجوازي، ولا يمكن أن يغيب عن الأنظار التمزق الذي أحدثته هذه الأبراج التي دخلت نسيج مدننا التقليدية.

بل كانت تستخدم إضافة إلى ذلك في إبلاغ الإطفائية بالحرائق في

أسرع وقت، وهي أيضاً جزء من استراتيجية المراقبة التي توحي للمجتمع بنفوذ السلطة؛ فهي أبراج للمراقبة، بل هي أبراج متعددة الأغراض.

ينبغي لنا ألاّ نتسرع في الحكم على هذه الأبراج بأنها جزء من مشروع التغريب الذي سلكته التنظيمات، فضلاً عن اتهامها بالتنصير؛ لأنه مثل كثير من المسائل عندما نبحث في المصادر المختلفة والأدلة المادية ونقف على ماهيتها سيظهر العجب الذي لا مفر منه.

فكيف ذلك؟!

بدايةً، نخطئ حين نقول: إنه لم يكن في الديار العثماني أي برج للساعة قبل عهد التنظيمات؛ لأن أبراج الساعة هذه قد بدأت في العمل الحثيث في المدن العثمانية منذ عهد السلطان سليمان القانوني، أي في القرن السادس عشر حسب كينيتز في كتابه في ظلال السنجق الكبير [237] .

ويأتي برج ساعة جامع بنيالوق فرحات باشا عام 1577 في مقدمة هذه الأبراج، وبرج ساعة أوسكوپ، وبرج الغازي خسرو بيك في سراي بوسنة من القرن السابع عشر، والذي لا يزال قائماً حتى الآن، والذي تحدث عنه الأوليا چ لبي- صفحة 296 - وبرجا الساعة في تراونيك [238] .

كما تحدث الأوليا چ لبي عن برج ساعة قرب جامع في شومنو- في الأراضي البلغارية حالياً- في عام 1602. ويتحدث عن برج الساعة في أسكوب بعد قدومه منها عام 1660-1661، فيقول:

يقوم برج للساعة كأنه المئذنة إلى جوار جامع هونكار- أي الحاكم- أمام القلعة المطلة. يسمع جرس الساعة من مسيرة منزل **[239]** ، صوته قوي، وبرجه ظاهر يمكن رؤيته **[240]** .

ولا يزال قائماً حتى الآن برج الساعة في صفران بولو الذي أمر ببنائه الصدر الأعظم عزت محمد باشا عام 1790 [241] .

لقد انتشرت أبراج الساعة منذ القرن السادس عشر في الممالك العثمانية من الغرب إلى الشرق كما يذكره حقي عجون في بحثه أبراج الساعة في الأناضول ، وتطورت هذه الأبراج منذ ثلاثة قرون قبل عهد التغريب، ويأتي السلطان عبد الحميد الثاني- الذي نفضل أن نمحو اسمه من تاريخ التغريب في بلدنا- ليكون الشخص الذي أمر ببناء هذه الأبراج في الأناضول بشكل منهجي منتظم. فقد أصدر في جلوسه الخامس والعشرين عام 1901 فرماناً يلزم الولاة ببناء برج للساعة في كل ولاية، وكان برج يلدز (1890) وبرج دولمة بهچة (1894) قائمين قبل ذلك.



مشفى الحميدية للأطفال، بناه السلطان عبد الحميد في ذكرى وفاة ابنته خديجة. (وهو اليوم: مشفى شيشلي للأطفال).

وغدت مراكز المدن في كل الأناضول متشابهة بارتفاع هذه الأبراج فيها؛ من چ وروم إلى أماسيا، زمن بالكسير إلى چ انكري، ومن كوتاهية إلى أضنة، ومن لاديك إلى إزمير، ومن ني گ دة إلى غردة، ومن صفران بولو إلى آيدن، ومن كوموش به چ ة كوي إلى بورصة، ومن غوينوك إلى أنقرة، ومن مرزفون إلى بيلاجيك، ومن سونكورلو إلى طوقات، ومن وزير كوبرو إلى يوزقات، ومن أدرنة إلى چ ناق قلعة؛ مضيق البوسفور [242] .

لم يكن السلطان عبد الحميد- وهو المولع بمهنة الساعاتي- ينظر إلى الأمر من أفق ضيّق كالتغريب والتنصّر، بل كان يرى أن الاستثمار الأمثل للوقت شرط ضروريّ للتمدن، ويرمي إلى ذلك ببناء هذه الأبراج إلى جوار المباني العامة في الولايات والقائم مقاميات ومحطات السكك الحديدية، في رسالة إلى الموظفين من أجل الانتقال إلى مرحلة جديدة لضبط الزمن. ولم يكن ذلك هدفه الوحيد، بل كان التحذير من الحرائق والمراقبة يندرجان في الأهداف الثانوية.

وإذا تحدثنا عن هذه الأبراج من الناحية الفنية، فما من شكٍّ في أن برج الساعة المشهور في ميدان القصر في إزمير، إلى جوار أبراج الساعة في السراي، والذي بناه المعماري رايموند تشارلز بيري من مواليد أق سنجق، إزمير، عام 1901 من أجمل هذه الأبراج، فالبرج على الطراز الشرقي يحمل نسمات قوية من الآثار المعمارية في الشمال الأفريقي والأندلس، يتوّجه

حوض مثمّن يحمل 25 صنبور ماء- لأنه في ذكرى جلوس السلطان الخامس والعشرين- فاندثر الحوض وخالفه البرج في بقائه حتى الآن. وبذلك نرى ختم السلطان الذي لا يمحى على هذه المدينة الفتيّة، إضافة إلى كنيسة سانت هيلين التي بُنيَت بإذنٍ من السلطان في السفح المقابل للبرج [243] ... في حين لا يسعنا إلا أن نمر مرور الكرام على برجي Gümülcine والقدس، وقد بقيا خارج حدودنا اليوم...

ربما كان السبب في حيرة نورية أكمان في مقابلة أجرتها مع سليم درين غيل من أعضاء الهيئة التعليمية في جامعة بوغاز إي چ ي وعدم فهمها موقفه السلبي في عدم اعتباره عهد عبد الحميد من تاريخ سيرنا نحو التمدن؛ ربما كان السبب في ذلك هو أن جميع الكوادر بمن فيهم إداريّو الجمهورية قد تخرجوا من المدارس التي أسسها عبد الحميد.

لم يكن قطّ عهد عبد الحميد من العصور الرجعية كما يعتقدون، فهو لا يزال يطل علينا من موقعه في أكثر مراحل تاريخنا المتمدن حرجاً. فهل ننظر إليه بما يكفي؟! الأمر مشبوب بالشكوك...

المنارة، وبرج الساعة، ومحطة الأرصاد الجوية، جنباً إلى جنب

إذا كان أجمل أبراج الساعة في مجموعة أبراج عبد الحميد في إزمير؛ فإن أطرفها برج الساعة في حديقة المشفى الحميدي للأطفال في شيشلي، إستنبول؛ بناه السلطان عبد الحميد بمناسبة وفاة ابنته خديجة بعد حادث أليم. هذا المشفى أصبح اليوم مشفى شيشلي للأطفال، وقد صمّمت في حديقته مئذنة مسجد وبرج ساعةٍ متعدّد الأغراض. ساعتان في جهتين متقابلتين، ويستقر البارومتر في الثالثة، والتقويم الشهري في الرابعة. فبرج (الساعة/المئذنة) هذا يضيف إلى خدماته قياس سرعة الرياح. ولما كان المشفى مخصصاً للأطفال؛ فقد أقيمت حول المسجد حديقة مجهّزة بسورٍ من القضبان؛ لنزهة الأطفال المرضى. وهكذا يتلاقى في برج الساعة والمرصد الجوّي من عالم المدنية مع المئذنة الدّالة على الموروث الديني في بناء واحد **[244]** .

هل صدئ الأسطول في الخليج؟!

إنني على استعداد للتضحية بنفسي من أجل حماية الأسطول إن لزم الأمر .
السلطان عبد الحميد

عندما يُذكَر السلطان عبد الحميد، تُذكَر عداوته المزعومة للبحرية في مقدمة الانتقادات الموجهة إليه. فيزعم من يزعم أنه لما كانت القوات البحرية في طليعة القوى التي انقلبت على عمه السلطان عبد العزيز؛ فإن السلطان عبد الحميد توجس منها خيفة، وحاول جهده إضعاف القوات البحرية، إلى درجة محاولته إغراقها. والأسطوانة المشهورة هي: لقد صدئ الأسطول الهمايوني المعظم بربطه في الخليج من قبل عبد الحميد [245] .

لا دخان بلا نار، فلا بد من التفكير في الأسباب بشيء من التفصيل، ولا بد من الإجابة هنا عن سؤالين: 1- هل ترك عبد الحميد الأسطول في الخليج عرضة للبلى والصّدأ؟ وهل كان حقاً يحمل عداوة للقوات البحرية؟ 2- وإن كان الجواب بالإيجاب؛ فهل كانت هناك أسباب أخرى تخصّ ذلك العصر لم ندركها نحن؟

سأحاول الإجابة في بنود متسلسلة:

1- على الرغم من أن الأسطول العثماني في عهد عبد العزيز كان قد بلغ مرتبة القوة البحرية الكبرى الثالثة في العالم؛ فإن السفن العملاقة المستعملة أو الاحتياطية استطاعت الصمود بصعوبة بالغة في أثناء الصدام مع السفن الروسية الصغيرة البخارية في حرب 93، وأغرقت بعض هذه السفن مثل سفينة لطف الجليل بالطوربيدات، وتمت حماية السفن الأخرى من خلال زوارقها التي أحاطت بها. فلم تنفع ألوانها البراقة ولا يافطاتها العظيمة التي تحمل اسمها، ولا مظهرها العظيم المهيب في شيء [246] .

2- الدول التي لا تملك البنية التحتية لإنتاج السفن لا يمكنها إبقاء أساطيلها عامرة من خلال الاكتفاء برفدها بالسفن المستوردة من الخارج؛ لأن ذلك يزيد من ارتباطها بالخارج كما هو الشأن اليوم مع طائرات أف 16. وكان لا بد من التحديث المستمر حتى يبقى الأسطول الذي بناه السلطان عبد العزيز بقوته وعافيته. غير أن الهزيمة التي تعرضت لها الدولة في حرب 93، واضطرارها إلى دفع ملايين الليرات الذهبية تعويضات حرب للروس، كل ذلك جعل الإبحار بالأسطول أمراً مكلفاً لا تستطيع أن تتحمّله دولة تعمل جاهدة لإيفاء ديونها من خلال إدارة الديون العامة التي تمتص الضرائب، فضلاً عن تحديثه.

3- لم يهمل السلطان عبد الحميد أمر الأسطول كلياً، فقد ضم إليه سفناً حديثة، وحدّث السفن الموجودة، بل كانت هذه الدولة من أولى الدول التي ضمت إلى أسطولها الغواصات كما سنرى، لكنه لا ينكر أنه كان ميالاً إلى القوات البرية، فكان التمويل يتركز على المدافع والأسلحة النارية، وقد اشترى القسم الأكبر من مدافع كروبّ التي استخدمت في معارك چناق قلعة؛ حرب البوسفور، ونشرت على المضائق من قبله.

4- كان بقاء الأسطول في الخليج كعنصر ردعٍ أفضل من تجوله في البحر الأبيض المتوسط.

5- لو كان عدواً للأسطول كما يقال؛ لما أبدى مقاومةً لطلب الروس بعض السفن كتعويضات حرب في معاهدة أياستيفانوس، ولحقق لهم طلبهم. لم يفعل ذلك، واعترض على الاتفاق بهذه الكلمات التي تأخذ بالألباب، وتدفع إلى التفكير العميق؛ بقوله لصفوت باشا:

" لا يمكنني أن أقبل أبداً أن أستغني عن الأسطول، وأنا على استعداد لكلّ تضحية في سبيل رفض هذا البند، وعلى استعداد للتضحية بنفسي في سبيله " [247] .

وعلى الرغم من هذه الكلمات المجبولة بحب الوطن؛ لا تكفّ الألسنة عن دعوة صاحبها بعدوّ الأسطول ...

امتياز عبد الحميد في ميناء غلطة

هل كانت هذه الشجرة تستحق الاجتثاث؟!هذه القلعة، هل كان ينبغي لها أن تحطّم؟ !

فالح رفقي أتاي (*1921*)

ما الذي لا نصادفه عندما ننظر في عصرنا هذا من نافذة التاريخ؟!

في عام 1890 في عهد السلطان عبد الحميد الثاني؛ تحقق مشروع شبيه بمناقصة غلطة پورت التي كان الجدل حولها حديث الساعة، فكيف كان ذلك؟

كانت الموانئ المجهزة التي تستقبل السفن الشراعية وقوارب التجذيف تنتشر في إستنبول، غير أن السفن الضخمة المعدّة للحمولات الكبيرة لا تستطيع أن ترسو فيها، فتلقي مراسيها على مسافة من الشاطئ، ويتم نقل حمولتها من الركاب والبضائع عبر سفن مخصصة لذلك. فكانت هذه الموانئ باباً واسعاً لعمل السفن والحمّالين؛ ولذلك كانت الجمارك والموانئ أبواباً جديدة يلتمس عناصر الإنكشارية أرزاقهم فيها بعد إلغائها عام 1826. فكانت تلك السنوات على الصورة التالية:

كانت سفن الحمولات الكبيرة ترسو في غلطة في عرض البحر بربطها بالطوافات والعوامات طيلة القرن التاسع عشر، ويتم نقل الركاب والبضائع بزوارق التجذيف والسفن والبوارج إلى البر عبر ميناء منصوب بشكل بدائي بسيط في سواحل غلطة. فزوارق التجذيف بأحجامها المختلفة تنقل من 10 إلى 15 راكباً، وتتجمع على الغالب في الميناء أمام المعبر الفرنسي ، وجميع أطقمها من الروم واليونانيين القادمين من جزر كفلونيا ونيسيروس ومرمرة. والسفن الشرقية المسطحة المنخفضة التي تستوعب 3 إلى 4 ركاب يملكها الأتراك. والحمالون الذين ينقلون البضائع ويرتبونها في المخازن أيضاً من اليونانيين القادمين من جزيرة كفلونيا **[248]** .

نشأت الحاجة الماسة إلى الميناء الذي يستطيع استقبال سفن البضائع الضخمة للرّسوّ فيه؛ في عهد محمود الثاني بعد ولادة السفن البخارية وإبحارها في البحار. ومما زاد من الشعور بالحاجة إليه بقاء عدد لا بأس به من سفن الأسطولين الإنكليزي والفرنسي أشهراً طويلة، بل أعواماً في إستنبول خلال حروب القرم، فقد واجهت البحريتين اللتين اعتادتا على شحن الجنود والمهمّات بسلاسة صعوبات كثيرة في إستنبول. وقد وضعت القضية على طاولة البحث في عهد عبد العزيز من دون التوصل إلى قرار، وبقي

عبؤه حتى عهد عبد الحميد [249] .

وكذلك أصبح بناء هذا الميناء شرطاً ضرورياً للسيطرة على عمليات التهريب التي يعتقد اتساع رقعتها في إستنبول. وفي النهاية، استقرت مناقصة المشروع على العرض الذي قدمه الفرنسي ماريوس ميشيل- أسلم في ما بعد [250] - وكان قبل ذلك يدير المنارات البحرية في إستنبول. وبدأ العمل بالميناء عام 1879. منح الامتياز، وطلب منه تأسيس شركةٍ، ولم تتأخر حركات الاحتجاج من أهل غلطة والمتضررين: ستتحكّم الشركة بتعرفة الأسعار كما تريد، وما الذي ستؤول إليه أحوال القوارب الصغيرة، ولكنّ الأمر الذي نسيه هؤلاء وقوف الدولة وراء هذه الشركة [251] .

ينقل عثمان نوري إنكين في المجلد الخامس من مجلة الأمور البلدية؛ كامل المقاولة التي جرت بين الدولة وهذه الشركة، والقانون الذي ينظم الاتفاقية بينهما [252] . وعند النظر فيها ندرك مدى صرامة عبد الحميد في مشروع (ميناء غلطة). ولم يكن المشروع مختصاً بميناء غلطة وحدها، فكان يتضمن أيضاً سيركجي پورت، والموانئ التي تبدأ من سيركجي وطوپ خانة وتمتد على ضفتي الخليج حتى جسر Unkapanı الحالي. كان على الشركة أن تقوم ببناء الميناء، وأحواض السفن، والمستودعات، مقابل ضريبةٍ تفرض على الأوزان التي تشحن إلى الميناء، وبعد استرداد النفقات؛ يتم توزيعها بين الدولة والشركة [253] .

كانت مدة الامتياز 85 عاماً على شكل إنشاء- تشغيل- تحويل ، وقد قيّدت الاتفاقية بشروطٍ صارمةٍ: فإن تخلفت الشركة عن الجداول الزمنية؛ فإن للدولة أن تعلن فقدان الشركة أهليتها، وتضع يدها على أموالها ومنشآتها، وتعرضها في المزاد العلني؛ انظر دفتر الشروط: المادة 17.

اتّخذت الإجراءات الصارمة كافةً، ففي البداية طلبت من الشركة خارطة لساحة الإنشاءات بمقياس 1/100، وفي كلّ مرحلة ستجري مراقبة التنفيذ من قبل وزارة النافعة ؛ أي الإعمار، وتمّ تعيين مفتّشين لهذا العمل، وتتحمّل الشركة رواتبهم. ولوزارة البحرية تعيين ضابطٍ من ضبّاطها لقيادة ميناء دار السعادة وشركة أحواض السفن والمستودعات؛ إذا رغبت في ذلك. وفي الاتفاقية أيضاً: تأكيدٌ على عدم المساس بأيٍّ من الأوابد الأثرية، والجوامع، والأعمال الخيرية؛ الأوقاف. والمادة السابعة تبين امتلاك الدولة حقّ التشغيل وبيع المنشآت القائمة في الميناء بعد أربعين عاماً. ولم تترك الرّسوم لمزاج الشركة، فلا يمكن رفع الرسوم إلا بعد تصديق الوزارة، وبعد شهر من الإعلان. كما تم ترتيب قواعد مراقبة الميناء ومنشآتها بما يليق بالدولة

العثمانية. فيتم في البداية تدقيقها علميًّا من قبل الوزارة، ويتمّ قبولها مؤقتاً، وبعد اختبارها عاماً كاملاً، وإعادة النظر فيها، وتقديم التقرير بسلامتها، يتم قبولها بشكل رسمي.

ومن الطبيعي أيضاً الاهتمام بمظهر الميناء. فقد ورد في المادة 22: "ينبغي ألاّ ينقص عدد العاملين في المعاملات الرسمية- معاملات الضرائب- عن العدد الحالي، وألاّ يزيد عن المرة والنصف". ثم تبين مقادير الضرائب مفصّلةً، فعلى سبيل المثال: فرنك على كل طن رسوم الربط، و3 فرنكات رسوم الميناء، و... والأهم من ذلك أنه إذا حصل خلاف بين الشركة والدولة العليّة؛ فإن المحاكم العثمانية وحدها لها صلاحية النظر والفصل فيها.

لم يترك عبد الحميد مصير ميناء غلطة لرحمة الشركات الأجنبية حتى في عصر الامتيازات. وإذا كانت الاستثمارات قادمة من الخارج؛ فالعمل لا بد من أن يكون من خلال شركة عثمانية، أي شركة قائمة وفق القوانين العثمانية. وفي النهاية كانت لائحة طويلة من التفصيلات توضع على طاولة الشركة لتنفيذها: من قطع القرميد إلى طعام طيور الكناري، ومن زيت السمسم إلى زيت الكاز (الكيروسين)، ومن حيوانات الأقفاص إلى طلاء الشّبّ؛ نوع من الطلاء كان يستخدم في ذلك الزمن، وغير ذلك.

افتتح الميناء أمام السفن عام 1895، فكان ميناءً متقناً بمقاييس ذلك العصر كما يقول سرمت مختار ألوس:

"لم تكن الألسنة تكف عن الحديث عن إتقان ميناء غلطة، فكانت تتحدث عن رسوّ أضخم السفن فيه، ولم يكن ذلك كذباً، فمنذ طفولتي ومنظر البحر والسفن يستهويني، والفضول إليه يدفعني للنظر إلى ذلك الجانب- الميناء- في طريقي وأنا أعبر الجسر. وقد رأيت قديماً السفن عابرة الأطلسي، والطويلة العالية كالجبال بمداخنها الثلاث أو الأربع، ترسو في الميناء عند حلول الربيع. من هذه السفن على سبيل المثال: سفينة القيصر ويلهلم الثاني Lloy Norddeutscher التي تتسع لتسعة عشر طناً، وسفينة وايت ستار لاين (Oceanic) التي تتسع لسبعة عشر طناً، وسفينة إنترن باسيفيك (Korea) التي تتسع لأحد عشر طناً [254] .

كانت جهود التحديث تستمر، والدولة العثمانية تريد أن تضع القواعد بنفسها، وتدور الأحاديث هنا وهناك، محمّلة بالهموم، وتنتشر الشائعات بأن الشركة تطالب بقطعة أرض لها في غلطة. فيتحرك عبد الحميد بحيويته التي اشتهر بها، ويهدد الشركة بفسخ الامتياز، وشراء الشركة بحجة التأخر عمّا تنص عليه الاتفاقية. وتسارع الشركة إلى تنشيط أعمالها وقد ظهرت

فيها آثار التهديد.

نعم، هذه هي الدولة العثمانية التي كانت توصف بالرجل المريض ، صاحبة الاقتصاد المنهار كما يقال، استطاعت أن تبني ميناء غلطة في ظل تلك الشروط السيئة! فماذا فعلنا نحن؟!

أول أوتوموبيل وأول صيدلية في الدولة العثمانية

يحلو للزاعمين أيضاً أن يلقبوا عبد الحميد بعدو الأوتوموبيل، ولأمرٍ ما يحاولون إخفاء دخول السيارة الأولى بإذنٍ منه !

فقد دخلت أول سيارة تعمل على البنزين إستنبول في عام 1895 وقد افتُتِح بها ميناء غلطة؛ بطلب من زهير زادة أحمد بيك الذي أصبح في ما بعد مبعوث البصرة. وعرضت السيارة في فنر بهجة. وهناك رواية أخرى مفادها: إن الذي أدخل السيارة الأولى هو القائم مقام ستا ڤ رو من الفرقة الموسيقية الهمايونية، وإن سيارتنا الأولى كانت إيطالية الصنع [255] .

وصيدليتنا الحديثة الأولى كانت أيضاً في عهد عبد الحميد، افتتحها خليل حمدي بيك عام 1880 عند بداية الطريق الصاعد زيرك باسم صيدلية حمدي، وذاع صيتها خلال فترة قصيرة، وتخرج منها الكثير من الصيادلة. ثم افتتحت بعدها :

صيدلية ضياء في ديوان يولو عام 1890 .

صيدلية أدهم پرتو بيك في أق سراي عام 1895 .

صيدلية محمد كاظم في بشيك طاش عام 1896 .

صيدلية حلب، مؤسسها بشير كمال في بهچه قاپي عام 1898 .

صيدلية الاستقامة، مؤسسها حسن رؤوف في ديوان يولو عام 1900 [256] .

والأوتوموبيلات والصيدليات كانت من المدنية الحديثة التي دخلت البلد في عهد عبد الحميد .

عبد الحميد الثاني
مؤسس غواصاتنا البحرية أيضاً

إنّني في الحقيقة أتعجّب من سلطانكم. إنه رجل يشبه الألغاز... بل إنه لغز صعب جداً جداً جداً يستعصي حلّه !...
بغنام باشا

نردد دائماً الحديث عن تخلفنا دونما رويّة ولا تمحيص، وأننا نضطر إلى العيش في هذا الظلام بسبب تقوقعنا على أنفسنا، وانعزالنا عن الغرب، وتفويتنا قطار الحضارة، وإغماض أعيننا عن التطورات العالمية، ثم نجلد أنفسنا بالحديث عن عدم اللحاق بركب المدنية، وعدم مرور الرأسمالية في قريتنا... ونجعل من ذلك كله حديث المجالس على طريقة الساديّين، كما وصفهم بذلك المرحوم أيهان سونغار في معرض حديثه عن الذين يحبون أن يتناولوا الفليفلة الحارّة. ونحن ربما كنا في حديثنا الذي لا ينتهي عن نهاية تاريخنا المؤلم؛ مكبّلين أسرى لتاريخ ساديّ يستهويه اللوم والعتاب وجلد الذات. وربما لا يمكن لنا توثيق الساديّة هذه بأفضل من تاريخ غواصاتنا والتطورات التي جرت عليها في فترة شروقها الأول.

فمن المثير أن ميلاد الغواصات التركية يصادف ظهور الشفق الأول لتاريخ الغواصات في العالم، فإذا لم تكن السفينة الحربية هي الغواصة الأولى التي ظهرت في الوجود، فإن الثانية أو الثالثة كانت بطلب منا، فليشنّف آذانهم من يتحدثون ويزعمون أنه عندما كان العالم يتطور؛ فإننا كنا نستمتع في سباتنا الجميل، وليقرأوا هذه المعلومات.

رحلة قصيرة في تاريخ الغواصات

هناك من يعيد تاريخ الغواصات إلى الإسكندر الكبير، أو يقرنه بليوناردو دافنشي، ويتحدث سيد وهبي في سورنامة عن تمساحٍ آليٍّ يتسع لثلاثة أزواج من الرجال بناه إبراهيم أفندي من الترسانة في إطار الاحتفالات باحتفالات ختان أولاد السلطان أحمد الثالث، كما يتحدث عن محاولات الهولنديين والإنكليز بناء قوارب تستطيع التنقل تحت الماء.

فهذا التمساح الآلي الذي يمكن أن ندعوه بأولى غواصاتنا [257] شق طريقه تحت الماء من شرم الترسانة حتى ظهر بين يدي السلطان الذي أقام سرادقه في حديقة الترسانة على الخليج. وقد تم تجميع هيكل التمساح بإحكام، وتم تزفيت سطحه الداخلي؛ ليمنع تسرب الماء، كما جرى

تثبيت ما يماثل المنظار في مقدمته. وبعد بقائه تحت الماء فترة من الزمن؛ طفا إلى سطح الماء، وترجّل منه خمسة رجال يحملون على رؤوسهم أطباق زردة الأرزّ- نوع من الحلويات- وكأنه مطبخ عائم لإعداد هذا النوع من الحلويات [258] .

فكان هذا التمساح أول نموذج فتح الباب لتصميم الغواصات على شكل الحيوانات البحرية. وبعد نصف قرن من احتفال أحمد الثالث، تم تطوير الغواصة على شكل سلحفاة من قبل ديفيد بوشنل في أميركا لتستمر بعد ذلك باسم تورتِل . وقد أثارت الغواصة نوتيليوس انتباه نابليون عام 1801، إلا أن مصممها روبرت فولتون لم يجد الدعم المطلوب، فغادر إلى أميركا ليتابع مهاراته هناك؛ لتتوقف بعد ذلك بوفاته من دون تمام العمل. وفي عام 1849 قام ويليام Bauer بتطوير غواصته Marine Plongeur ، لتبدأ الاختبارات التي سميت باختبارات الحوت الذكي ، لتظهر أول نموذج لغواصة متكاملة عام 1875. فالغواصة Plongeur التي تطورت على يد John P. Holland تسبح على وجه الماء بالدفع البخاري، بينما تتحرك تحت الماء بواسطة البطاريات.

وفي عام 1878 نجحت الغواصة التي أنتجها المهندس الإنكليزي ج.و. غاريت بطول 14 قدماً؛ في شق طريقها تحت الماء، ليصمم بعد عام غواصة بطول 45 قدماً، إلا أنها غرقت بعد ارتطامها في Galler .

ثم أخذ عالم الغواصات يتطور سريعاً بعد اهتمام منتج الأسلحة السويدي Thorsten Nordenfelt ، وفي عام 1885 تعاون غاريّت و Nordenfelt في استوكهولم لينتجا أول غواصة مشتركة (Nordenfelt I) لتدخل في التاريخ كأول غواصة حربية في التاريخ: طولها 64 قدماً، وتحمل توربيداً واحداً، ومدفعاً من طراز Nordenfelt ، وتم شراؤها من قبل الحكومة اليونانية بتسعة آلاف جنيه إسترليني، فكانت هذه الصفقة الشرارة التي أشعلت انطلاقة الغواصات وتطورها في تاريخنا.

غواصتنا الأولى قادمة

تلقت نظارة البحرية العثمانية عبر البريد رسالة من لندن بتاريخ 25 تموز 1885 من منتج السلاح السويدي الشهير Nordenfelt يكشف فيها عن اختبارات ستجري على الغواصة قرب كوبنهاغن. فإذا كانت نظارة البحرية ترغب في إرسال ممثلين عنها لحضورها، فإن ذلك سيؤخذ في الاعتبار، ويتم تعيين التاريخ بناءً على ذلك. وتكشف الرسالة أيضاً، أنه يمكن إجراء هذه الاختبارات في الأسبوع الأول أو الثاني من شهر آب. وعلى الرغم من أن

الاختبارات لم تنجز حتى تشرين الأول من ذلك العام؛ فإن الحضور كان حشداً كبيراً: القيصر الروسي مع زوجته، ملك الدانمارك وزوجته، أمير Galler وأميرتها... وكان البنكباشي خليل بيك- الملحق العسكري البحري الأسبق في برلين- عن الدولة العثمانية بين ممثلي الدول الممتدة من اليابان حتى البرازيل؛ قرابة 35 مراقباً. ثم كانت الغواصة الحربية Nordenfelt التي تحمل رقم 1 من نصيب البحرية اليونانية بعد تجارب خاصة أجريت بطلب منهم. غير أن خليل بيك كان منشغلاً بإرسال تقريره إلى إستنبول يبين فيه: أن الغواصة في وضعها الحالي غير كافية لتحقيق الغاية من وجودها، وتحتاج إلى تعديلات: بزيادة سرعتها، وتزويدها بطوربيدات لازمة، وإتمام نواقصها من قبل الدولة التي تشتريها بعد خضوعها لتجارب كثيرة، وبهذه الشروط فقط تغدو هذه الغواصة صالحة للاستخدام.

كان المقيم في يلدز في إستنبول يترقب بفضول هذه الغواصة، ويرغب في ضمّ هذا الاختراع الحديث إلى الأسطول العثماني، كان عازماً على ذلك؛ لأن عبد الحميد يدرك بحسه الفائق أن امتلاك اليونانيين هذه الغواصة في ظل العلاقات المتوترة يمكن أن يشكل تهديداً معنوياً للسفن الحربية والتجارية العثمانية، فكان لا بد من عملٍ يدخل الرهبة في قلوبهم ويخفّف من جرأتهم.

في أرشيف رئاسة الوزراء؛ إرادة سنيّة مؤرخة بتاريخ 1302 ورد فيها حديث عن غواصة لا مثيل لها في الدول اشتراها اليونانيون، وأمرٌ بشراء غواصتين منها بعد إتمام نواقصها وتزويدها بثلاثة طوربيدات بأحد عشر ألفاً إسترلينياً. وكان الإنكليز يقفون وراء تحريض الدولة العثمانية للإسراع بشرائهما؛ لأن اليونانيين يستعدون لهجوم وشيك على الإمبراطورية العثمانية. وكان عبد الحميد يدرك أن اليونانيين لا يجرؤون على شن هجوم بري والتعرض للقوات العثمانية البرية، ويتوقع أن تقوم اليونان بالتعرض للأسطول العثماني وسفن المواصلات البحرية إلى جزر إيجة وسواحل سلانيك، وتوجيه ضربة إليها. وتأتي أهمية هذه الوثيقة من كونها تبين عناية عبد الحميد بالقوات البحرية واهتمامه بها.

وهكذا كانت الخطوة اليونانية محرضاً مباشراً لتحرك إدارة عبد الحميد حيث كانت يده في الأصل على الزناد. وكانت رسالة Nordenfelt التي ورد فيها ذكرها بإيجاز، الخطوة الأولى لهذا التوجه.

انطلاقاً مما كتبه الباحثان الروسيان ألكساندر ڤ يتول وقسطنطين زوكوف [259] يمكن بيان الأهداف البعيدة لجهود عبد الحميد في تزويد

أسطولنا بالغواصات، والهدف السياسي يأتي على رأس هذه الأهداف.

عندما كانت الدولة العثمانية تتمدد نحو الغواصات...

كان عام 1885 العام الذي تسلق عليه التوتر بين الإمبراطوريتين الروسية والإنكليزية، فقد دخلت روسيا في حرب مع القوات الأفغانية في عهد القيصر ألكساندر الثالث (1881-1891)، وتحرك الإنكليز لاحتلال جبال القفقاس خوفاً من امتلاك الروس كل أدوات التحكم والاختيار. ورأى الروس أنهم عاجزون عن حماية سواحلهم من الهجوم الإنكليزي، وأدركوا عجز أسطولهم في البحر الأسود عن التصدي للبحرية الإنكليزية؛ فدخلوا في تحالف مع الألمان والنمساويين عام 1881. وكانت العلاقات العثمانية الإنكليزية سيئة بسبب احتلال قبرص عام 1878 ومصر عام 1882، علاوة على أنهم كانوا يمارسون الضغط على الدولة العثمانية للاعتراف بالاتحاد البلغاري. وفي الوقت الذي كانت فيه إستنبول تستعد لهجوم إنكليزي متوقع، وتزيد من استحكاماتها في المضيقَين- مضيق چ ناق قلعة؛ البوسفور، ومضيق إستنبول- كان عبد الحميد يضطر إلى فتح أبواب الدولة للألمان لوضع حد للضغوط السياسية لبسمارك في ظل الشروط الحرجة التي تمر بها الدولة [260] ، فأصبحت لدى قواته مدافع كروبر وبنادق الماوزر علاوة على Armstrong ، وأخذت هذه المدافع تحتل مواقعها على المضيقَين للدفاع عنها عام 1885، وبنادق الماوزر على أكتاف الجنود العثمانيين [261] ، والعسكر الألماني في خدمة الجيوش العثمانية منذ عام 1884.

كانت هذه التطورات في البحرية العثمانية بشكل خاص لا تغيب عن أعين الروس، وكان اهتمامهم الكبير ينصب على الاستحكامات العسكرية في البوسفور؛ لعلاقتها بالدفاع عن سواحلهم. نعم، كانت مدافع كروبر التي اشتراها عبد الحميد قد أخذت مواقعها في القلاع المنتشرة على سواحل المضيق عند مدخل البحر الأسود منذ زمن بعيد، منذ عام 1886. بقي أن الأسطول العثماني عام 1885 لم يعد كالأسطول الذي دخلت به حرب 93 - 1778 - كما ورد في مقالة وودز باشا في التايمز. ولم تتوقف التطورات عند حدود شراء مدافع Nordenfelt والطوربيدات، فقد قام الأتراك ببناء معمل لإنتاج الصواريخ، وتم اختبار هذه الصواريخ- الطوربيدات- في أحواض سفن Kağıthane ، وتم تصميمها لمواجهة أي هجوم روسي محتمل.

وإذا قرأنا مذكرات وودز باشا بتمعن؛ فإننا نجد شراء عبد الحميد هاتين الغواصتين أمراً عجيباً؛ لأن إستنبول كانت واحدة من المراكز التي مر بها أصحاب مشروعات الغواصات والطوربيدات، ولدينا الآن أسماء ثلاثة

منهم: الجنرال بيردان، والجنرال وولاس، ووييليامز.

كانت عقارب الزمن تشير إلى 6 أيلول 1886 عند اكتمال الغواصة التركية الأولى في ترسانة TaŞkızak ، فسميت باسم عبد الحميد، ونزلت البحر للمرة الأولى في شباط عام 1887. جرت الاختبارات الأولى في الخليج، كانت تعمل تحت سطح الماء مباشرة ولا تغوص كلياً، لكنها سريعة، وسهلة القيادة. إلا أن هذه الغواصة الثانية في العالم لم تقدم الثمرة المرجوة منها، ولم يحصد السلطان النتيجة التي ينتظرها من هذه التقنية الخارقة التي أنفق فيها المبالغ الكبيرة. وعلى الفور استدعي غاريتّ إلى إستنبول، وطلب منه طمأنة عبد الحميد بأنه لم يخدع من قبل منتج السلاح Nordenfelt ؛ وطلب منه السلطان غواصة جديدة ليس لها مثيل في الإتقان.

اكتملت الغواصة الثانية في آب عام 1887، ونزلت البحر باسم عبد المجيد في كانون الثاني 1888، وأجريت الاختبارات للغواصتين معاً. عبرت الغواصة عبد المجيد مصب سراي بورنو إلى إزميت، وأجريت اختبارات التنقل وإطلاق الطوربيدات [262] ، ليصل الأمر بعد ذلك إلى إتمام الاتفاقية. وكانت الغواصة عبد المجيد- غواصتنا الثانية- تنال شرف الغواصة الأولى التي تطلق قذائفها في العالم [263] . واستطاع المهندس غاريتّ إقناع ناظر البحرية حسن باشا بتوقيع اتفاقية جديدة بتاريخ 15 آذار/ مارت حسب التقويم العثماني 1888، بأنه سيكون في خدمة البحرية العثمانية إن لزم الأمر، وأنه سيترك عاملين في إستنبول؛ لمواجهة مشكلات طارئة. وصدر فرمان السلطان خلال أسبوع بعد الاتفاق؛ 22 آذار/ مارت حسب التقويم العثماني 1888، وباتفاقيات صيانة وإصلاح الغواصتين تم التوقيع على الاتفاقيات الضرورية لخدمتهما.



الغواصة (عبد الحميد) في مياه الخليج. وهي الغواصة رقم 1.

وإذا كانت الغواصتان عبد الحميد وعبد المجيد من أولى الغواصات في

العالم، ومن النماذج الأولى لها، فإنهما أيضاً كانتا تحملان عبء استطلاع عالم جديد، واكتشاف المجهول بما تحملانه من عجمة، فقد لحقهما الأذى منذ الإطلاق الأول للطوربيدات، وأعيدتا إلى الصيانة. كان ذلك كافياً؛ أن يكون الأسطول العثماني منفرداً بهاتين الغواصتين، وكان الهدف من شرائهما إظهار العصا الغليظة المخبأة تحت المعطف لليونانيين والروس والإنكليز.

وعندما يقرأ هذه العبارات التي ظهرت في صحيفة The Manchester Courier في تاريخ 28 حزيران 1887 حول اهتمام الأتراك بالغواصات:

لقيت غواصة Nordenfelt شهرةً واسعةً، فضم الطليان والروس إلى أساطيلهما البحرية نموذجاً واحداً منها، في حين امتلكت الحكومة التركية أكثر من نموذج واحدٍ. وقد فرغت للتوّ من بعض الاختبارات المهمة على Nordenfelt التركية الثانية، وحصلت على بعض النتائج المهمة **[264]** .

عندما يقرأ ذلك أولئك الذين يزعمون إن السلطان عبد الحميد الثاني كان لا يعير اهتماماً للبحرية، وأنه ترك أسطولنا يهترئ راسياً في الخليج؛ ستحمرّ وجوههم خجلاً عندما يرون أنه لم يكن سوى الأب الكبير لغواصاتنا البحرية.

عبد الحميد ينتزع حقه بنفسه

إن ظهور السلطان عبد الحميد الثاني راعياً حقيقياً لغواصاتنا؛ يُتلف أرضيّة المزاعم التقليدية التي قدمنا بها هذه الفقرات، تلك المزاعم التي تدعي أن عبد الحميد ترك الأسطول الذي بلغ بجهود السلطان عبد العزيز إلى ثالث أكبر أسطول في العالم؛ تركه لمصيره والهلاك، والتي كانت شائعة بين ضباط البحرية بمقدار شيوعها بين معارضيه، وتظهر في أيامنا هذه بوسائل مختلفة مرة بعد مرة... نعم، هذه المزاعم كانت ولا تزال تساق نموذجاً لاستبداد عبد الحميد المجنون [265] .

إلا أن كون هذا الخاقان المتهم مؤسس إحدى الغواصات الأولى في العالم، ودافع تكاليفها من الخزينة الخاصة- وليس من خزينة الدولة- أي من الواردات والنفقات الشخصية للسلطان [266] ، يجعل هذا الادعاء في وضع حرج وعاجز يدفعه للبحث عن مستند يتشبث به. فما الذي يدفع السلطان؛ عدو البحرية؛ لينفق من حسابه الخاص على إنشاء غواصة بحرية يقدمها هبةً لأسطولنا، مستبقاً بذلك معظم دول العالم، ومطلقاً الشرارة الأولى لصناعة الغواصات الحربية؟! لا بد من بيانٍ، أليس كذلك؟

من الواضح أن هذا التساؤل ألقى بعبئه على عقول الباحثين في تاريخ غواصاتنا، فها هو نجاة گولان في الأسطر التالية ينتقل من هوة إلى

أخرى:

السؤال هو:

عبد الحميد هو السلطان الذي قضى على البحرية التركية، وأعطب السفن في الخليج، ولا يحب رجال البحرية، ولا يركب السفن، ولا يحب الساحل، ولا يراه آمناً، ويترك قصر دولمة بهچة الكبير لينسحب إلى الخلف إلى التلال، ويبني قصراً جديداً على تلة يلدز- إذا كان هذا هو عبد الحميد- فلماذا يشتري السلطان الذي يكره البحر والبحرية الغواصة في الوقت الذي لم يكن أحد يملكها؟ ! [267] .

ولا بد للجواب من ألف شاهدٍ حتى يصح أن يكون جواباً عند الكاتب، ثم يولّد هذا السؤال:

"من يدري، من هو هذا الذكي المحب لوطنه الذي استطاع أن يستحوذ على عقل السلطان؟ فأقنعه بفكرة الغواصات؟". وهكذا نرى أنه عند الحديث عن القضاء على السفن وإعطابها يذكر عبد الحميد المستبد وصاحب الصلاحية المطلقة، وعند الحديث عن جهوده في الغواصات يجري إنزال عبد الحميد إلى مكانة ممثّلٍ فاقد الصلاحيات والمسؤوليات، والاستحواذ على عقله من محب للوطن. فالوصف الأول يناسبه، بينما يناسب الوصف الثاني رجلاً ذكياً محباً لوطنه، ولما لم يكن عبد الحميد يملك ذرة عقلٍ أو حبٍّ للوطن، فإنه لا بد من أن يكون هناك شخص آخر في المطبخ، فمن هو هذا الذكي؟! ليست هناك معلومات... وبمثل هذا يتكون التاريخ أليس كذلك؟...

الحيرة تكتنف رشيد متل في لغز عبد الحميد

تقف هذه القصة لغزاً صعباً يستعصي حلّه أمام كتّاب تاريخ البحرية التركية. البنكباشي البحّار رشيد متل في كتابه الصادر عام 1960 من قبل قيادة أركان القوات البحرية على وعي بحقيقة هذا اللغز، ففي إطار الازدواجية التي يحاول الهروب منها في صفحات كتابه كلها يتحدث عن الاتفاقية التي تم التوقيع عليها مع الروس في 3 آذار/ مارت حسب التقويم العثماني 1878 في أياستيفانوس، والتي رفض السلطان عبد الحميد الثاني التصديق عليها رسمياً، فذكر اعتراض عبد الحميد على المادة التي تتعلق بأسطولنا مباشرة، فقال:

في محادثات أياستيفانوس طلب الروس إدراج تسليمهم ست قطعٍ من أسطولنا الذي يسيطر على البحر الأسود، والذي تأسس في عهد عبد العزيز؛ في بنود المعاهدة. فتمت استشارة الباب العالي الذي عبر عن اضطراره إلى

القبول بهذا الطلب في ظل وضع معقد يستحيل معه إتمام المعاهدة؛ من دون القبول به. فرد عبد الحميد بشكل قاطع بهذه الأقوال :

إلى الباش وكيل- رئيس الوزراء- صفوت باشا وسائر الوكلاء، أقسم إنني لا أفكر أبداً ولن أقبل بخروج الأسطول من يدنا. أقبل بكل التضحيات، وأرفض مادة الأسطول من جذورها، وأنا مستعد للتضحية بحياتي فداءً لأسطولنا إن لزم الأمر .

5 شباط 1293 (27 شباط 1878) [268]

ترى من نخدم عندما نقدّم صاحب هذا الموقف الأصيل الذي ينبغي له أن ينسج في تاريخنا بحروفٍ من ذهبٍ، عندما نقدمه حتى الآن عدواً للبحرية؟! أترك القرار لكم...

يحاول كاتب هذه السطور- متل- أن يشارك قرّاءه، ومعظمهم من العسكريين، الأسئلة التي تولدت في ذهنه:

من المؤكد أن استبداد عبد الحميد الشديد كان سبباً في تطور استخباراته، وتخبطه في الأوهام، فهل كان تركه الأسطول راسياً يُتلف في الخليج بسبب أوهامه الشخصية وخوفه من وقوف الأسطول ضده في يومٍ من الأيام؟! أم بسبب العجز المالي والانحطاط العام؟! فالوثيقة السابقة، وتمويل السلطان الغواصتين الأوليين عبد الحميد، وعبد المجيد من الخزينة الخاصة، وإرساله رؤوف أورباي إلى إنكلترا وأميركا؛ لمعاينة الغواصة ومفاوضات الشراء وفتح الاعتماد؛ إذا كان كل ذلك يوحي بأنه لم يترك الأسطول ليتلف في الخليج عمداً؛ فإنني على قناعة بأنه من المبكر الحديث عنه بشكل مثبتٍ أو منفيٍّ، والتدقيق في الوثائق سيظهر لنا حقيقة الأمر فيه. والحقيقة المرّة المطلقة هي أن تاريخنا العثماني المستند إلى الوثائق لم يكتب حتى الآن . [269]

ولا بد من التنويه هنا أن أقوال رشيد متل هذه كتبت من وجهة نظر عسكرية. تُرى كم عدد مؤرخينا الذين يستطيعون أن يكتبوا بموضوعية في مثل هذا الموضوع الحساس اليوم؟

هوس عبد الحميد بالغواصات

يحدثنا متل أيضاً بأن الاتفاقية المبرمة مع Nordenfelt تنصّ أيضاً على أن تسليم الغواصتين يجب أن يكون خلال شهرين ونصف، وأن يجري نقل أجزائهما في صناديق عبر سفن الشحن، وأن يتم تجميعهما في إستنبول. وعندما تأخر قدوم الغواصتين عن المدة المبيّنة في الاتفاقية، لم تصل الوثائق التي تبيّن تعليبهما أو تحميلهما في سفن الشّحن إلى إستنبول، ويكاد عبد

الحميد يفقد صبره، ويبدو عليه القلق، فهو ينتظر لحظة لقاء الغواصتين بفارغ الصبر، ويصدر إرادته الخاصة إلى ناظر الخزينة الخاصة أغوب باشا يسأله فيها: ألم تسدد المبالغ المبينة في الاتفاقية؟! ويأتي الجواب: تم تسديد ما مجموعه اثنان وعشرون ألف جنيهٍ إسترلينيٍّ في الدفعة الأولى، وسيسدد مبلغ ثمانية آلاف جنيه استرليني عندما تتحرك السفن المحملة بقطع الغواصتين حسب ما هو مبين في بنود الاتفاقية. وهنا لا يستطيع رشيد متل أن يخفي دهشته وإعجابه:
يبدو أن عبد الحميد الذي يتطلع إلى امتلاك الغواصتين في أسرع وقتٍ؛ يفقد صبره في تأخرٍ لا يتجاوز عشرة الأيام [270] .

ويبلغ اهتمام عبد الحميد مبلغه، وتبلغ انفعالاته حدّها الأقصى في أثناء تجميع الغواصتين، وتتعاقب أسئلته بشكل مكثّفٍ لناظر البحرية حسن باشا عن سبب البطء في العمل، وأنه نمي إليه أن السبب في ذلك تأخّر أجور العمال، فإن كان ذلك صحيحاً فما هو سبب هذا التأخر؟! فقد كانت الأجواء تنذر بحربٍ وشيكةٍ مع اليونانيين؛ ولذلك تتوالى تباعاً الإرادات السنية في سبيل تكثيف العمل واستمراره ليل نهار رغبةً في اكتمال تجميع الغواصتين، ونزولهما الماء في أسرع وقتٍ، وبدأ العمل الليلي الإضافي في ترسانة TaŞkızak وارتفع عدد العمال، وازدادت وتيرة العمل.

فقد تسرب الماء إلى الآذان المثقوبة ، وازدادت العيون التي تتلهف إلى معرفة هذا السلاح الجديد المجهول الذي يمتلكه العثمانيون، وبحث الجواسيس عن الفرص التي تمكنهم من التصوير الفوتوغرافي لهاتين الغواصتين. وقد تمكّن أحد الجواسيس من التقاط بعض الصور من خلال إخفاء آلة التصوير تحت معطفه، وتمويه عدستها على شكل ثقب أزرار معطفه. لكن، ألقي القبض عليه من قبل القوات الأمنية العثمانية وأعدم. الصورة الأصلية في معهد Smithsonian في أميركا.

لغز عبد الحميد في عقل رؤوف أورباي

كانت أعماق رؤوف بيك الذي يعتبر نفسه بحاراً بروحه وعواطفه؛ تتحرّق شوقاً إلى عالم البحار المفتوح، وتفيض بالحنين إلى النصر فيه. أسند إليه عبد الحميد الثاني وظيفة المفتّش العام للأسطول الهمايوني- السلطاني- عام 1904، ثم أسند إليه مهمة جمع المعلومات عن المنظومات الجديدة للطرادات والغواصات، وأسند البحث عن إمكانية فتح الاعتمادات لتأمين شرائها إلى الأميركي بغنام الذي عينه ياور؛ مرافقاً فخرياً للسلطان، ومترجمه اليوزباشي رؤوف أورباي، وأرسلهما إلى إنكلترا والولايات المتحدة الأميركية.

وقام موظف المابين الثاني نوري باشا بتبليغهما بهذه المهمة الجديدة:
طلب منا السلطان عبد الحميد في سفرنا إلى أميركا أو عند مرورنا بإنكلترا في طريق العودة؛ معلومات مفصّلةً عن أنظمة جديدة للطرادات المصفحة في هذين البلدين، وزيارة مواقع صناعتها، وأوصافها، وأسعارها، والزمن الذي تستغرقه صناعتها، وإمكانية تأمين ضمانات الدولة، وفتح الاعتمادات .

ثم أضاف نوري باشا بعد بيانه هذه المهمة:
" أنتقل الآن إلى الإرادة الأصلية للذات الشاهانية: يأمركم بإجراء تحقيقات عميقة مفصلة حول الغواصات تحت البحار، وهذه إرادة خاصة مهمة"، ثم فتح الملف- الملف الخاص الذي يحوي الوثائق الرسمية السرية- الموضوع على طاولته، وبين لنا مفاتيح الشيفرات الرقمية الخاصة بالبلدان التي سنتوجه إليها ... **[271]** .

انتعشت آمال اليوزباشي رؤوف بيك وبغنام باشا بالأوامر الصادرة إليهما وسط الدهشة والإعجاب الشديدين، وازدادت دهشة رؤوف بيك عندما علم أن صالح منير باشا- سفير عبد الحميد طيلة حكمه في باريس- قد علم بقدومهما عندما كانا في فيينا وقبل وصولهما باريس؛ عن طريق شبكة المراسلين التي شكلها، وما إن وطأت أقدامهما أرض باريس حتى طار الخبر إلى إستنبول، وبلغ مسمع السلطان المقيم في يلدز...

ولم تفارق مشاعر الحيرة بغنام باشا أيضاً، ولم يتمالك لسانه فقال مخاطباً رؤوف بيك:
إنّني في الحقيقة أتعجّب من سلطانكم؛ إنه رجل يشبه الألغاز... بل إنه لغز صعب جداً جداً جداً يستعصي حلّه... فتارةً تراه صاحب أفكار غير مسبوقة، وتارةً أخرى تراه بعقلية القرون الوسطى... فهل تستطيع أن تبين لي البنية الحقيقية لاهتمامه الشديد بما يتعلق بعملنا؟ فالرجل الذي حبس الأسطول في الموانئ قرابة ثلاثين عاماً؛ هو نفسه الذي يرسلنا إلى أميركا في طلبيّةٍ لشراء الغواصات بصلاحيات وقرارٍ قطعيٍّ لم تعرف في أكثر البلدان ديمقراطيةً ... **[272]** .

ونرى أيضاً أن رؤوف بيك على مشارف الحيرة التي يحاول بغنام باشا أن يتخلص منها، فلم يستطع أن يتوصل إلى حكمٍ نهائيٍّ صحيحٍ وحياديٍّ على عبد الحميد حتى كتابة مذكراته، ويعتقد أنه ليس من السهل إصدار مثل هذا الحكم بعد الآن؛ بعد كتابة المذكرات، وينتقل إلى الدار الآخرة حاملاً في رأسه هذا اللغز الذي يستعصي حلّه. ولم تتكلل مع الأسف جهود شراء الغواصات بالنجاح هذه المرة؛ بسبب محاولة اغتيال السلطان بتفجير

قنبلة عام 1905، وبسبب المصاعب المالية التي تعانيها الخزينة، ولم يتمَّ سوى شراء عدد من الطرادات.

وهكذا انضمت الغواصة الفرنسية توركواز التي تم الاستيلاء عليها خلال معارك چ ناق قلعة- حرب البوسفور- إلى غواصتينا- عبد الحميد وعبد المجيد- وقد تم سحبهما إلى الخليج بسبب الشيخوخة بعد فترة قصيرة؛ لتدخل جميعاً في تاريخنا كنماذج فريدة من أسطولنا البحري. ولو لم تذهب هذه الجهود الأخيرة للسلطان عبد الحميد هباءً؛ لكان لدينا في الحرب العالمية الأولى عددٌ كبيرٌ من الغواصات، ولم ننتظر قدوم الغواصات الألمانية من بحر البلطيق لمواجهة الغواصات الفرنسية والإنكليزية المتسللة إلى بحر مرمرة.

ثناء من قيادة القوات البحرية على عبد الحميد

في الكتاب الصادر من قيادة أسطول غواصاتنا البحرية بمناسبة الذكرى المئوية لانطلاقته المبكرة في تاريخنا؛ انتصار عجيب لعبد الحميد، إذ تفيض المقالة المعنونة رسالة في يوم أسطول الغواصات ، بعباراتٍ تنمّ بمشاعر الشكر والعرفان بجميل عبد الحميد الذي وهبهم هذا الميراث الشريف:

"... إن الاهتمام الذي منح سلاح الغواصات إيّاه قبل مئة عام- عام 1886 - في وقتٍ كانت لا تزال فيه هوية منصّة بحريّة عائمة، والخطوة التي تمّت، والقرار الذي اتّخذ في سبيل إضافته إلى بحريّتنا؛ يتبيّن صوابه الآن بجلاء" [273] .

وإذا كان الثناء السابق بالتلميح والإضمار، فإنّ في الكتاب الرسمي الصادر عن قيادة الأسطول البحري مديحاً عجيباً لعبد الحميد. فبعد بيان شراء أولى الغواصتين من أسطولنا من الخزينة الشخصية للسلطان في الرسالة، تأتي هذه العبارات:

لقد تم شراء هاتين الغواصتين اللتين تشكلان نواة قواتنا التركية الغواصة بفضل رئيس الدولة صاحب الرؤية البعيدة في الإدارة. فهاتان الغواصتان وجدتا بإرادة وعزيمة تركيّتين للتطور وتعلم الجديد. وإذا ظهر الضعف عند استخدامهما الأول، وظهرت عيوبهما في التجارب المتتابعة؛ فقد وجدت الجرأة لاختبارهما واستعمالهما، وتمّ تطويرهما نحو الأفضل من خلال استدراك تلك العيوب .

فإن بقي هناك من يجهل قدر عبد الحميد الذي تدين له أولى غواصاتنا، ويصر على اعتباره عدواً للبحرية؛ فهذا شأنه. غير أنني أستنبط من كل هذه المواقف والأقوال أن السلطان عبد الحميد الثاني الذي يستمر

في تاريخنا لغزاً يصعب حله، يضيف إلى عقده عقدةً أخرى يصعب حلها في عالم الغواصات في تاريخ بحريتنا.

وربما تتساءلون عمّن يملك في يده السيف القادر على حل هذه العقد؟!

اسم عبد الحميد لا يزال حياً
أكاديمية گ ول خانة الطبية العسكرية،
وحدائق الزهور

ليس شخصك، بل لو كان نعشك هذا حاكماً لنا؛ لكان أليق بنا، فليعد تابوتك وليجلس على العرش العثماني .

أحمد راسم

صباح الرابع والعشرين من آذار 1993 تستيقظ إستنبول على انفجار مريع لم يسبق له مثيل نتيجة انضغاط غاز الميتان في أكوام القمامة وسط إستنبول، وتناقلت وكالات الأنباء خبر انزلاق 470 ألف متر مكعب من القمامة، ويكون ذلك أول انزلاق للقمامة يسجله التاريخ. فأكوام القمامة التي تجمعت عشوائياً خلال أعوام متعاقبة ابتلعت محلّةً كبيرةً، وراح ضحية انتقامها 39 شخصاً. وكان مكبّ القمامة- كما يذكره الكثيرون- يدعى مزبلة حكيم باشي .

ربما يعجب البعض أمام هذا الحدث العجيب من علاقة حكيم باشي بالمزبلة، ويسأل عن سبب تسميتها باسمه. حكيم باشي و مزبلة ، حكيم باشي و الموت ... فهذان المتناقضان كانا يتجولان معاً في ذاكرتنا حيناً من الزمن، غير أنه سرعان ما طغى عليهما عارض النسيان الذي لا شفاء منه... فما العلاقة بينهما: حكيم باشي الذي كان يعني في العصر العثماني وزارة الصحة، وهذه المزبلة؟!

فلنرجع بذاكرتنا إلى الثمانينيات من القرن التاسع عشر، فالحرب الروسية التي اشتهرت بحرب 93 (1877-1878) وعقب هجرة مئات الآلاف من المسلمين الأتراك من الأراضي التي بقيت في بلغاريا الآن إلى أدرنة، ثم تجمّعهم في إستنبول؛ أقام المهاجرون مؤقّتاً في باحات المساجد وساحات الميادين ريثما يُخصَّص لهم مكان يستقرون فيه. وعندما سئلوا عن عملهم، كان الجواب الطريف: تربية الورود . من المؤكد أن إخواننا الإسبارطيين سيبتسمون من هذا الجواب.

استقر قسم من المهاجرين في إسبارطة، وهم السبب في نفحات الورود في هذه المدينة، ومن العجيب أن عبد الحميد هو الذي أسس لهذه المدينة صورتها. واستقر الآخرون في إستنبول في مزرعة السلطان عبد الحميد الخاصة في چ اويش باشي.

إياكم أن تملّوا، فالحكاية تبدأ الآن...

بدأ المهاجرون من إقليم Kızanlıklı والذين استقروا في مزرعة چ اويش باشي؛ بإنبات الورود وإنتاجها وفق المنهج العلمي بإشراف C. Bonkowski من أساتذة المدرسة الطبية الشاهانية . وكان الحصاد الأول عام 1886، وقد قطف من الورود 650 كغ. سُرَّ السلطان بالنتيجة، فسمح بانتشار عبق الورود في مزرعته حكيم باشي من وادي Göksu ترغيباً منه في تربية الورود، فتحول هذا الوادي بحقٍّ إلى وادي الورود ، ليضاف إلى جمال المنظر موج من عبق الورود، وسيل من الألوان الزّاهية.

وهذه المزرعة من أملاك مصطفى بهجت أفندي؛ حكيم باشي- وزير الصحة- في عهد محمود الثاني وسليم الثالث، توفي عام 1834، وهو العم الأكبر لشاعرنا المشهور عبد الحق حميد، لعب دور الريادة في تطوير المصطلحات الطبية التركية، وتطوُّر الطب في تركيا. وارتفاع عدد السكان في محيط هذه المزرعة التي عانت الإهمال زمناً طويلاً؛ جعلها تتحول من وادي الورود إلى وادي النفايات .

ومن المثير للسخرية والألم؛ أن وادي الورود نشأ في الثمانينيات من القرن التاسع عشر في عصر الانحطاط ؛ بينما كان تحوله بعيداً عن الإنسانية إلى وادٍ للنّفايات ووقوع حادثة الانفجار في عصر النهضة حسب تعبير كتبنا المدرسية.

فبينما يسعى الرجعي عبد الحميد جاهداً من أجل استثمار الجهد الإنساني لاستنبات الإنسانية واعتصار عبق الورود منها؛ يسعى التقدميون من حكامنا إلى صب ماء القبور على فسائل المدنيّة وقتل بواكير فروعها المخضرّة [274] .

علاوةً على أن الرجعي عبد الحميد كان يُرسي في صمتٍ أسس GATA ، أي أكاديمية گ ول خانة الطبية العسكرية، التي لا تزال قائمة حتى اليوم في حيدر باشا.

ففي عام 1898 دعيت مجموعة من الأطباء من جامعة بون إلى إستنبول للعمل عل رفع سوية المدارس الطبية إلى المستوى الأوروبي؛ ومستوى المدنيّة المعاصرة. ويعود تاريخ إنشاء مشفى گ ولخانة العسكري إلى عام 1848، وتحول إلى المدرسة الإعدادية عام 1860، لتصبح في ما بعد عام 1875 إلى الرّشديّة الطبية العسكرية [275] . إلا أنه حدث تطور مفاجئ، فقد أبلغ الأساتذة الفرنسيون الذين كانوا يحتكرون تعليم الطب في إستنبول رفضهم العمل مع الألمان، فاتّخذ القرار بتخصيص مشفى جديد

خاص بالأطباء الألمان ووقع الاختيار على مبنى رشدية گ ولخانة في سراي بورنو. وتم تحويل البناء إلى مشفىً يضم 150 سريراً، وتم تجهيزه بأحدث الوسائل والمعدات الألمانية.

في موسوعة معارف إستنبول - أنسيكلوبيديا إستنبول - لنوران يلدرم نجد أنه تم في مدرسة گ ولخانة التطبيقية إنجاز أفضل المختبرات والعيادات الطبية تطوراً، وتم افتتاحها كمشفى يستقبل المدنيين (ج 3، ص 440)، ونجد أيضاً أنه تم إنشاء معملٍ صغيرٍ في حديقة المشفى لإنتاج الضمادات الطبية بدلاً من استيرادها معلبةً من أوروبا.

لم يعد المشفى في سراي بورنو كافياً، فاتخذ القرار في عهد عبد الحميد بتشكيل مدرسة طبية كبيرة بضم المدارس المدنية والعسكرية في حيدر باشا، ليتحول إلى مشفىً عسكري بشكل تام عقب غليان 1909 وما تلاه من حروب البلقان والحرب العالمية الأولى؛ وما زلنا نستطيع أن نرى العبارة التي تبيِّن إنشاؤها من قبل عبد الحميد قائمةً على الباب حتى الآن. ثم دخل المشفى مرحلة جديدة في عهد الجمهورية باستمراره بالعمل في ظلال قصر طوب قا پ ي ثم نُقِل إلى أنقرة عام 1941، وأصبح يُعرف بعد عام 1947 باسم GATA [276] .

نموذج جيّد، وآخر سيّئ: من حدائق الورود إلى مكب النفايات، ومن مدرسة گ ولخانة التطبيقية إلى GATA المشفى العسكري. لست أدري ما تذكركم به هذه القصة، لكنها تذكرني بشيء واحد: إنه النّفس الذي يتنفس به الماضي في الحاضر...

الباب الخامس الآباء والأبناء



موكب جنازة السلطان عبد الحميد في شباط عام 1918.

وَدَّعَ (السلطان الأخير) عالمنا قبل أن يدرك آلام الاحتلال البريطاني. إنه عصرٌ يُطوَى وعالَمٌ يَرتَحِل.

قافلة النادمين

السلطان عبد الحميد خان الثاني: آخر حكام الدنيا، والإمبراطور العالمي الأخير .

إيلبر أورتايلي

في أحد الأعوام التالية لعزله عن العرش توجه أنور باشا وطلعت باشا إلى قصر بيلربيي لزيارة السلطان عبد الحميد، غير أن أنور باشا لفّق حجّةً وعاد أدراجه عن عتبة الباب لشعوره بالخجل، أما طلعت باشا، فقد كانت عيناه تفيضان بالدّموع وهو يغادر مجلس السلطان، ويعبّر عن الفوائد العظيمة التي وجدها في اللقاء، وعن حجم الأخطاء التي وقعوا فيها، ثم كان بين المشيّعين الذين ودّعوا جنازة السلطان في أنهار من الدموع. في حين كان أنور باشا المغرور وحده واقفاً، وقد عقد يديه خلف ظهره. كانت جنازة السلطان عبد الحميد آخر جنازةٍ عظيمةٍ احتشدت فيها جموع الناس في العهد العثماني. فكانت جنازة رسمية خاصة بالسلاطين بأمرٍ من أخيه السلطان رشاد. واشترك فيها الأمير شاهزادة وحيد الدين. وكانت أصوات نحيب النساء تتعالى من النوافذ عند مرور الجنازة: كيف تتركنا وتذهب ؟ [277] .

وتدب مشاعر الندامة عند الفيلسوف رضا توفيق ويجد في نفسه الحاجة إلى التعبير عنها فيسكبها في قصيدته استمداد من روح السلطان عبد الحميد .

كلّما ذكر اسمك في التاريخ والأزمان؛
يعطيك حقّاً أيها السلطان العظيم ...
نحن الذين افترينا بلا حياءٍ ...
على السياسي الفريد في عصره ...
على السلطان ...

وبالطريقة نفسها يعبر الشاعر سليمان نظيف عن ندمه [278] .

لقد أدرك كثير من الناس ممن لم يعرفوا قيمة السلطان خلال حكمه أخطاءهم، وعبروا عن ندمهم في بلبلة كبيرة من الفوضى التي عمّتهم بعد إزاحته عن العرش. وكان كثير من شعرائنا العظام كعبد الحق حميد، ويحيى كمال، وتوفيق فكرت؛ ممن نظموا الأشعار في مديح السلطان عبد الحميد في السنوات الأولى من جلوسه على العرش؛ قد تحولوا إلى صفوف المعارضة لأسباب مختلفة. غير أن يحيى كمال- كما سنرى في ما بعد- يبدأ

في سنواته الأخيرة بروايته التي نرى فيها علامات الندم: "أنت لي في كل ليلة"، غير أن الأجل قطع عليه الطريق قبل إتمامها.

جدّ أمين معلوف أيضاً انقلب على السلطان بعد أن كان معه

دعنا نبتعد قليلاً عن الأسماء المعروفة في قافلة النادمين، ولنتجه بأبصارنا نحو المناطق النائية عن مركز الدولة العثمانية، نرى كيف تطورت علاقة بطرس النصراني البيروتي جد الكاتب الروائي أمين معلوف بالسلطان عبد الحميد؟!؛ ولذلك نتوجه إلى زحلة عام 1908 ...

إن كان حقاً أن الأموات لا يموتون بشكل كامل، وجدّي الآن في الغرفة إلى جانبي يراقبني وأنا أقلب أوراقي؛ فإنني أعتقد أنه سيطلب مني أن أتوقف عن نقل هذه المقتطفات، وأنتقل إلى موضوعٍ آخر؛ لأنني أقترب الآن من الساحة التي لا يرتاح لها. وفي الحقيقة، لم أكن أحب الدخول إليها أيضاً. غير أنني إذا كان ينبغي لي أن أسلط باقةً من النور على جدي المنسيّ؛ فإنه لا بدّ لذلك من ثمن؛ فلا يمكنكم أن تسلسلوا الحقائق كما تشتهون. ولهذا لا أستطيع أن أنقل لكم تحيات جدّي للذين أسقطوا عبد الحميد قبل ذكر مدائحه الكثيرة التي نظمها في مديح السلطان.

وبشكل أكثر دقة هنا، وجدت حتى الآن ثمانية مواضع تحمل عبارات المديح، أو على الأقل الاحترام. وأعتقد أنني سأعثر على المزيد لو أمعنت في البحث. لن أنقل كل هذه المقتطفات، غير أنه لا يمكنني أن أمضي من دون أن أنقل هذه الأسطر من بيانه الصحفي في زحلة:

من المؤكد أن الثناء الأول والأخير، ينبغي أن يكون لحاكمنا المحترم السلطان ابن السلطان عبد الحميد خان سبب كلّ خيرٍ، أطال الله عمر سلطنته العليّة.

ثم ينظم بعد ذلك بقليل أبياتاً يذكر فيها أن الفضائل إنما جبلت من السلالة العثمانية، وأن القدر الذي من عادته ألاّ يرحم، تصرف تصرفاً حسناً هذه المرة إذ جعل من عبد الحميد حاكماً **[279]** .

وفي موضع حديثٍ آخر عن جدي ذُكِر أنه كان يشاهد مسرحيةً بعنوان صلاح الدين عندما تلقى خبر إسقاط عبد الحميد عن العرش وتسليمه إلى محمد رشاد، فصعد المسرح وتحدث بهذه الكلمات باسم الشعب العثماني حول الحكام الذين تم عزلهم وإسقاطهم عن الحكم:

لقد وضع الناس حياتهم وشرفهم وأموالهم وأملاكهم أمانة بين يديه؛ لكنه باعها جميعاً ببضعة قروش. سيبقى اسمه ملطخاً بالعار إلى الأبد. فبدلاً من أن يمحو الخيانة والفساد عن دولته؛ قام ببثّ جواسيسه وزرع بذور الحقد

والعصيان في كل مكان. ولذلك أريد أن أتوجه بهذه الكلمات إلى هذا الكائن الوقح...

ثم يتبعها ببضعة أبيات قاسية، ولكن هذا الحد كافٍ. ولأنه ربما لم يسعفه الوقت لترتيب كتاباته أو ربما غير أقواله خلال الاضطرابات السياسية؛ فإنني لا أريد تعنيف جدي أكثر من هذا، وأترك الحجر الأول ليرميه به امرؤ لم يتغير قطّ [280] .

إن أمين معلوف بأسلوبه الاستهزائي العجيب يقول الكثير لكل ذي عينين.

في الخاطرة التي ذكرها راغب أق يواش في الخمسينيات من القرن العشرين؛ يسلط الضوء على التقارب الذي تم أخيراً بين أنور باشا وعبد الحميد. ففي ما كتبه أق يواش بناءً على مصادر موثوقة كما يقول، نرى أنّ الحكومة التي رأت السّفن الإنكليزية والفرنسية وصلت سواحل إستنبول خلال المعارك التي كانت تدور في چناق قلعة، قد اتخذت قراراً بنقل العاصمة إلى الأناضول. ولما بلغ هذا الخبر مسمع السلطان المعزول خرجت من لسانه هذه الكلمات الغاضبة:

لقد نقلتموني من سلانيك، وأتيتم بي إلى هنا بحجة سقوط روم إلي تحت الاحتلال [281] ، والآن تتحدثون عن التوجه إلى قونية بحجة الخطر المحدق بإستنبول. وطبيعيّ أن العدو الذي يحتل إستنبول سيبسط احتلاله وصولاً إلى قونية لتأسيس أمنه في إستنبول، وحينها ستتجه الأنظار إلى القرية التي قدمنا منها؛ إلى مهان.- فالمقولة السائدة في الأسر الحاكمة المتعاقبة أن منشأ العثمانيين يعود إلى مدينة مهان في إيران اليوم، غير أن الأبحاث التي أجريت حول هذا الموضوع تدل على أن سبب هذه المقولة يعود إلى أن العثمانيين حين اتجهوا من أواسط آسيا نحو الأناضول أقاموا في هذه المدينة فترةً من الزمن. م.أ- لن أتحرك إلى أي مكان، ولن أترك أرض أجدادي .

وكان أنور باشا وكيل القائد العام مكلّفاً بمحاولة إقناع السلطان عبد الحميد بالانتقال إلى قونية. وبعد خروجه من اللقاء المنفرد بينهما في قصر بيلربيي؛ مكث قليلاً في غرفة الحرس، وبينما كان يحتسي قهوته؛ سأله الحرس: "يا سيدي كيف وجدتم السلطان السابق؟"، فأجاب باقتضاب: "لقد أخطأنا معه للأسف". وعندما سئل عبد الحميد السؤال نفسه عن أنور باشا الذي أدرك متأخراً إساءته للسلطان؛ كانت إجابته أشد إثارةً: "ليس رجلاً سيئاً، كان يمكن استخدامه" [282] .

ويأتي الكلام الذي قاله أنور باشا لجمال باشا المرسيني قبل مغادرة إستنبول وهربه خارج البلاد بيوم واحد، ليكشف عن نظرة جديدة بدأوا

يرون السلطان عبد الحميد بها فضلاً عن دلائل الندم على عزله، وصعودهم إلى الحكم قبل تسع سنوات.

أنور باشا وعبد الحميد:

وهذا ما قاله أنور باشا مخاطباً جمال باشا المرسيني:

"أيها الباشا: أنا مستعد لأن أُحاسَب عن كل أعمالي. لقد أردنا الطورانية فأصابنا الهلاك. إن أساس أخطائنا ومسؤوليتنا يكمن في عدم فهمنا السلطان عبد الحميد، وأننا أصبحنا أدوات للصهيونية. إنه اعتراف مؤلم؛ لكنه الحقيقة" [283] .

لماذا أخطأوا فهمه؟!

" إن الجمهورية عندنا ما زالت مشروعاً في أيدي الناقمين على تاريخهم ".
دوغان أوزلم

إن تطور الآداب العثمانية المعاصر- أو على الأصح تمدّن الآداب التركية- وتشكّلها واكتسابها هويّتها المعاصرة، تعود إلى عهد السلطان عبد الحميد كغيرها من مناحي الحياة الأخرى. فهناك فوارق كبيرة بين الدولة التي استلمها من أخيه والدولة التي سلمها إلى الاتحاديين: في الشكل المدني للإدارة، وفي حيازة أجهزة حديثة، وفي ارتفاع مستوى التطور التكنولوجي والتعليمي.

وتبعثُر هذه الإمبراطورية التي كانت في طريق التمدن، وتمزّقها فجأةً إلى أشلاءٍ في السنوات التسع التالية لعزله عن العرش (1909-1918)، والخسائر الضخمة في هذه المرحلة؛ ترينا أيّ تسونامي كان السلطان عبد الحميد الثاني يهدف إلى مقاومته وإيقافه! ولقد عرفنا بحسرةٍ وألمٍ كيف تمكّن الأغرار الذين صعدوا إلى السلطة وبضربةٍ واحدةٍ؛ من إزالة الموانع التي جهد السلطان عبد الحميد الثاني في إقامتها بكل ما أوتي من قوةٍ، ووضعها في وجه الأمواج الإمبريالية. في حكاية السنوات العشر ينقل لنا حسين جاهد يا لچين سذاجة هذه السنوات بمهارةٍ من خلال ما يعكسه قلمه الجذّاب المتمكّن.

ومن هذه الزاوية؛ استطاع عبد الحميد خان بما يملكه من شخصية لا يمكن تجاوزها، وما يمثله من نموذجٍ قياديٍّ يمكنه أن ينهض بالحكم من جديدٍ، ويدفعه للوقوف على قدميه؛ أن يبلغ أيامنا هذه من دون أن يمحى من الذاكرة. لم يكن عبد الحميد في تعبير إلبر أورتايلي؛ السلطان الأخير فحسب، بل هو في الوقت نفسه الإمبراطور الأخير.

واستمر اسمه وذكره الأسطوريّ عصراً كاملاً في تركيا، بل في العالم الإسلامي كلّه: من البلقان إلى القفقاس، وفي الشرق الأوسط، وفي الشرق الأقصى... وينبغي بعد هذا ألاّ يكون مفاجئاً أن نصادف في أخبار الصحف من حينٍ إلى آخر خطب جمعةٍ تتلى باسمه حتى أيامنا هذه في أماكن متفرقة من العالم: في أفريقيا، والهند، وجنوب شرق آسيا. وقد حدثني صديق لي كان قد اشترك في معرض الكتاب في الرياض عن قارئٍ سعوديٍّ قبّل كتاباً عليه صورة السلطان عبد الحميد، ووضعه على رأسه.

وعلى الرغم من ذلك، فإنه من الواضح أننا نعاني مشكلة حقيقية في

فهم عبد الحميد الثاني الذي نجح في كسب محبة شعبه، واستطاع أن يؤسس لعلاقةٍ جيدةٍ معه، لكنه لم يبتسم له قدره مع المثقفين في عصره، أو في من جاؤوا بعده. فالدعايات المغرضة التي قام بها مخالفوه حتى في عصره، وعلى الأخص بعد المشروطية الثانية، والافتراءات التي ليس لها أصل، والمبالغات التي تنتشر بين المتعلمين حوله؛ كل ذلك فتح الطريق إلى كونه حاكماً مستبداً، وطاغيةً لا يعرف الرحمة في عيونهم، وإلى تصلب هذه النظرة، وجمودها، واستمرارها إلى يومنا هذا.

فمراد الميزانجي، على سبيل المثال، عندما كان مدرساً للتاريخ في ثانوية دار الشفقة؛ طلب مراقبة الباب، وكأنه كان يريد أن يفشي سراً خطيراً، ثم أخذ يحدث طلابه عن السلطان الذي يكبل أقدام الذين لا يحبهم، ويحملهم على سفينة عز الدين ويلقيهم في عرض البحر قبالة Tekir da ğ ، ويصف الحدث بطريقة توحي بأنه رأى ذلك بأم عينيه، والطلاب، كما يقول مالك أق سل الذي كان طالباً يستمع إليه حينها، كانت تثور في نفوسهم كراهية السلطان والحقد عليه [284] .

والخواطر التي رواها آقا كوندوز في عهد الجمهورية عن عبد الحميد، درامية برمّتها، وتبيّن بشكلٍ رائعٍ كيف يمكن أن نؤسّس جيلاً مشحوناً بكراهية عبد الحميد [285] .

إذاً، فلماذا كانت العلاقة سيئةً بين السلطان والمثقفين؟! نجد الجواب حرجاً. وتقييم جوستين مكارثي لهذه المرحلة الحرجة من التاريخ يظهر هذه المسألة بوضوحٍ:

لم تكن المشروطية العثمانية عملاً ناجحاً، فالدستور الذي يتمّ سنّه في مرحلةٍ خطرةٍ تمرّ بها الدولة، يمكن أن يلغى ويترك مكانه لدستورٍ آخر عندما تتعرّض لخطرٍ جديدٍ. فقد وقع هذا الخطر على رأس المشروطية نتيجة هزيمة العثمانيين في الحرب الروسية عام (1877 - 1878)، فكان هناك للمرة الأولى مجلس يبدي احتجاجه، فأعلن بلسانٍ حادٍّ ومؤلمٍ أنّ سبب الهزيمة يتحمله الجيش أولاً، والسلطان ثانياً. وبدأت الأصوات ترتفع في المجلس وتنادي بوجوب انتقال سلطة الجيش إلى المجلس. وخشي السلطان من الانقلاب عليه، ومن وصول تلك الأصوات إلى أوروبا. وحرصاً منه على أمن الدولة وسلامتها؛ قام باستخدام الصلاحية التي تمنح المشروطية السلطان إيّاها بحلّ المجلس. وعلى الرغم من أن السلطان لم يلغ الدّستور، إلا أنه لم يتخذ قراراً بانتخاب النّوّاب من جديدٍ، ولم يجتمع المجلس العثماني بعد ذلك طيلة ثلاثين عاماً من حكمه .

ثم كرس السلطان وقته للعمل على إسكات الأصوات المعارضة، وإعادة الادارة للانضباط من جديدٍ تحت سلطته. وكان الوقت المكتسب، والعمل فيه على الاستثمار في التعليم؛ أكبر ضمانةٍ لاستباق الزمن. وقد بيّن بوضوح هذه الفكرة بعد إعلان المشروطية الثانية [286] .

وكان السلطان عبد الحميد قد قال حينها: إنه كان ينبغي إعداد الأمة لتكون بمستوى الوسط الجديد الذي يشكله الدستور، أما وقد آن الأوان، ونضجت الأمة؛ فإنني أعلن الدستور [287] .

ويروي حسين جاهد- كان دائم المعارضة للسلطان- أنّ عبد الحميد لم يستطع أن يكبح دموعه وسط الهتافات الجياشة التي ارتفعت بعد إعلانه المشروطية في المجلس، ومسحها بيديه. وينقل رئيس جمعية الأتراك الجدد تركيا الفتاة؛ جون تورك أحمد رضا بيك عن السلطان أنه قال له: "لا أتذكر لحظةً كنت فيها سعيداً إلى هذا الحدّ في عمري كله" [288] .

غير أن تبدّل ألسنة أولئك الذين كانوا يقدمون له كلّ مظاهر الإخلاص بعد سقوطه، وانقلاب تصرفاتهم، ودأبهم على الظهور وكأنهم عدوّه الأزليّ، ودخولهم في سباقٍ لإعلان عداوته... كلّ ذلك ضيّق علينا فرصة فهمه بشكل أفضل. وعندما ينظر المرء إلى رجالات ذلك العصر، فإنه يجد صعوبةً في تمييز من يكذب مضطراً لإنقاذ نفسه عن أعدائه الحقيقيين. وندرك جيّداً أيّ طينةٍ من البشر كان عبد الحميد مجبراً على التعامل معها.

فالجرّاح جميل توپوزلو، وفق ما كتبه سرمد مختار ألوس، وهو واحد من الأقلام الخبيرة بذلك العصر؛ طبيب استحقّ لقب الباشا من قبل عبد الحميد الثاني، ونالها منه، وتنقّل طيلة حكمه في مواقع هامّة. وكان ينال من قصر يلدز الرّتب والنّياشين كلّما قام بعمليّةٍ ناجحةٍ، من دون أن يرفض أيًّا منها [289] ، وأقام الاحتفالات المبالغ فيها في الذكرى السنوية لجلوس عبد الحميد في بيته في چفت هاووزلر [290] . لكنه استطاع بعد المشروطية أن يقدّم نفسه بأقواله وكتاباته كمجاهدٍ حارب الاستبداد منذ الأزل. وتبدّل المواقف تبعاً للمصالح أمر لا يختص به زمن دون آخر...

وتاريخنا القريب هو تاريخ المتغيّرين، والمجبرين على التّغيير. وما زالت الإساءة إلى عبد الحميد تجري في صحافتنا حتى اليوم- أمين چولاشان، نموذج لذلك [291] - كما كان يساء إليه في فترة حكمه، أو في زمن الاتحاديين، أو في زمن ما يسمّى جون ترك أي تركيا الفتاة؛ وكأنه سياسيّ حيّ بيننا. أي إنه لا يزال حديث الساعة...

فماذا يعني كونه حديث الساعة؟! إنّه في رأيي يدلّ على شيءٍ واحدٍ:

يدلّ على أن السلطان عبد الحميد رصاصة استقرت في أجسادنا... رصاصة لم ننجح بعد في انتزاعها... ولا أعلم بالتحديد إن كانت رصاصة متشظّيةً أم لا، وربما تنتظر لحظة الانفجار بعد عشرات السنين...

صورة شعاعية لمراد ميزانجي

بقلم يحيى كمال

استطاع يحيى كمال تصوير حالة مراد ميزانجي بنجاح، فلنستمع إليه:

مراد ميزانجي تركيّ روسيّ، وواحد من شخصين تقدّما بلائحة الإصلاحات إلى السلطان عبد الحميد بناءً على طلبه؛ والآخر عزت هولو باشا المعروف بعزت العربي. كان واثقاً من أن تقريره سينال القبول، غير أن المعاملة الباردة التي لقيها من القصر جعلته ينتقل إلى المعارضة من خلال جريدة الميزان التي قام بإصدارها في مصر؛ ويأتي لقبه من هذه الجريدة. وعندما تدّخل الغازي مختار باشا في الأمر اضطر إلى الهرب إلى باريس، ليباشر معارضة عبد الحميد من هناك. وبينما كان من أعلام تركيا الفتاة جون تورك في باريس استطاع أحمد جلال الدين باشا إقناعه بالعودة إلى إستنبول، وقبل أن يكون عضواً في مجلس الشورى، وسلّم قيادته إلى السلطان الذي عارضه مدةً من الزّمن؛ مخلّفاً وراءه على الأرض المعارضة كلّها. لكنه وبعد إعلان المشروطية حاول الظهور بمظهر البطل فلم ينجح، وألقي القبض عليه من جيش الحركة باعتباره واحداً من المحرّضين في أحداث 31 آذار، ونجا من الشّنق بأعجوبةٍ [292] .

ربما كان مراد بلزومه باب السراي ينعم بما يغدق عليه القصر من ناحيةٍ، وبالروايات الكاذبة التي ينسجها ويرويها في المدارس محاولاً حشد الأنصار من الجيل الجديد من ناحية أخرى.

ربما كان مثالاً جيداً لسرعة التقلب في حياته، غير أنه يشكل مثالاً ضاراً إلى أقصى حدٍّ في حياتنا الفكرية والسياسية... لكنّه الواقع...

محمد عاكف ومعارضة عبد الحميد

هنا أيضاً تختلط الحقائق بالأكاذيب .
أمين معلوف

يمثل الكتاب الذي ألفه مدحت جمال كونتاي عن محمد عاكف [293] ، محاولةً منه ليكون نداً يرتقي به إلى مقام عاكف، إضافةً إلى إظهاره في إطار أفكاره، يلبسه لبوسها. وعاكف في الكتاب، إضافةً إلى كونه مثلاً يقتدى به، فهو أمام مدحت جمال في شيخوخةٍ ثقافيةٍ. أي أن القامتين متساويتان.

هذه هي المذكّرات، وهذه بعض أقدارها، فالناس يرغبون في الدفاع عن أنفسهم في مواجهة التاريخ، ولهذا تكتب المذكرات. فالأحداث التي تعود إلى الماضي بعد أن ظهرت الجبهات وتمايزت، يعاد توزيعها وترتيبها وفق الجبهات الجديدة، باحثةً لها عن موطئ قدم... والأحداث تخضع للانحراف وفق هذا المنظور عند الكاتب أيضاً، وربما لا يشعر هو أيضاً بهذه اللعبة في بعض الأحيان، وتمارس ذاكرته اللعبة ذاتها معه. وربما يدرك الإنسان أنه لا يمكنه أن يكون محقاً في كل حين، لكنه لا يستطيع أيضاً أن يتنازل عن هذه اللعبة الأزلية.

فعاكف كونتاي هذا، عدوّ عبد الحميد اللدود، فهو، على حد قول كونتاي، يتقزز منه معنوياً ومادياً. فبينما كانا يسيران معاً ذات يوم في بيازيد، يتراكض الناس، فيجريان معهم قبل أن يعرفا السبب، ثم يشقان الصفوف ليعرفا السبب، ويكون خروج عاكف كونتاي أسرع من دخوله، ويخرج مصفراً يتدافعه الغثيان، ولم يكن لمرضٍ أصابه، بل لأنه رأى وجه عبد الحميد للمرة لأولى.

وعاكف عند مدحت جمال يثق بأنّ عبد الحميد يقف وراء أحداث 31 آذار/ مارت حسب التقويم العثماني كثقته بنفسه [294] .

ولقد دافع مثقفو الهند عن عبد الحميد في صحفهم، فقام إصلاحي مصري يدعى فريد وجدي يردّ عليهم في جرائد مصر، وأن عبد الحميد هو الذي افتعل أحداث 31 آذار/ مارت حسب التقويم العثماني. وترجم عاكف هذا الرّدّ ونشره في جريدة الصراط المستقيم [295] .

وإذا قلّبنا ديوانه الشعري صفحات فإننا نعثر بالفعل على إداناتٍ ثقيلةً يتهم بها عبد الحميد.

هم يغرينني من زمنٍ بعيدٍ
أن أغدو للظالم؛ فأحذره .

فبعيد مسجدنا، لا يأتي للصلاة إليه
وبلغت على أملٍ مسجده
مثل النّساء يختفي في قفصٍ؛ عبد الحميد
والواقع يصفعني كيف تأملت الوصول إليه .
يلدز كان محاطاً ربما بأربعين أو خمسين ألفاً من الجنود .
أولئك الفرسان، والطرابيش الحمراء بلا عددٍ .
فانظر إلى ما تكلفه صلاة واحدة .
ستون ألفاً كان على الأقل يبقى بلا صلاة .
أما الإسراف والتبذير فلا تسأل .
يشقّ عليّ منهم تلك السخافات
لِمَ كل هذا التواري؟ !
فهلا خرجت إلى الميدان قليلاً وتحاسبنا .
رجل أنت أم جن؟ هل من أحدٍ رآه فيخبرني؟
فأنت تفرّ إلى الزوايا تختفي فيها عنا [296] .

فعبد الحميد يختبئ خلف الأقفاص مثل النساء، يحيط به أربعون إلى خمسين ألفاً من الجنود المسلحين، ويترك ما يزيد على ستين ألفاً بلا صلاة حين يصلي الجمعة، ويعيش في بذخٍ وتبذيرٍ، ويبحث عن كلّ ملجأٍ يحتجب فيه عن الناس، وهو غراب يلدز؛ كما ذُكر في موضع آخر من ديوان صفحات . وعبد الحميد في نظر عاكف قذر في شخصه بمقدار السياسة القذرة التي يمارسها.

ولا يمتلك المعلومات الواضحة الدّالة على تخليه عن هذه النظرة. والبراذعي الذي يرد ذكره في القصيدة السادسة من ديوان صفحات تحت عنوان عاصم ؛ لم يكن اعترافاً لبيان قيمة عبد الحميد، بل لبيان أنّ الاتحاديين دفعوه ليقول: إن هناك ما هو أسوأ من السيّئ. وهذه نقطة تستحق التفكير؛ أن يكون توفيق فكرت عند عاكف- الذي يخالفه إيديولوجياً- في الحلبة نفسها عندما يذكر عبد الحميد.

في القصائد الأخيرة من صفحات يمكن أن نعثر على أبيات تعبر عن ندمه على هذه التصرفات، فهو يقول على سبيل المثال:

يقولون: هل يمكن أن نعثر على البراذعي الماضي مجدداً؟
لم يكن عاملاً بسيطاً، بل كان معلماً !
عجباً كيف جهلنا قدره قبل فوات الأوان
لم يكن سرجاً ما ضيعناه، بل كان دولة ذلك المرحوم [297] .

ولا بد هنا من لفت النظر إلى أن هذه الأبيات كُتبت عام 1922 أي بعد عشرة أعوامٍ من سنوات الدولة العصيبة التي ساد فيها الهرج والمرج، ولا أرى هذه التلميحات كافيةً للتكفير عن الانتقادات السليطة اللاذعة السابقة [298] - [299] .

لكن علاقة بديع الزمان النورسي بعبد الحميد يحيطها وسط أشدّ تعقيداً وتلوّناً وغرابةً من علاقة محمد عاكف.

بديع الزمان النورسي وعبد الحميد

كان الإمام بديع الزمان، في الواقع، محقاً إلى حدٍّ كبيرٍ في مهاجمة الاستبداد. وعندما قام الذين يمارسون استبداداً لا مثيل له بمهاجمة صاحب الاستبداد الضّعيف في زمن سعيد القديم- أي المرحوم السلطان عبد الحميد- تبريراً لأخطائهم؛ قام الإمام بديع الزمان بما توجبه عزته الايمانية، فأعلن سعيد القديم مخطئاً، حتى لا يكون مع الظالمين في صفٍّ واحدٍ .
جلال تاتيكر ورمضان بالجي

يتميز سعيد النورسي في علاقته بالسلطان في عبد الحميد وانتقاداته عن غيره من أبناء جيله عموماً، وعن محمد عاكف خصوصاً؛ بنجاحه الكبير في موضوعية المعارضة وبعدها عن الطابع الشّخصي. فهو يلتزم المبادئ، ولا ينحدر إلى مستوى الشعارات العامة الرخيصة مثل غراب القصر . وفي أكثر كتاباته حدّةً، وحين ينتقد الاستبداد الذي غدا موضة العصر، يتهرب في إصرارٍ من ربط انتقاده بشخص المستبد. وربما يمكن القول: إنه يتخذ من تشريح عبد الحميد الاجتماعي نموذجاً للاستبداد، كما فعل الأمير صباح الدين [300] .

ولنبدأ بذكر مواضع التلاقي والاختلاف بين بديع الزمان وعبد الحميد:

إنّ معرض دفاعه عن نفسه أمام ديوان الحرب العرفي بتهمة الدعوة إلى الوحدة الإسلامية وقف يعدّد أسلافه فيه: وهم- حسب تاريخ الوفاة- ياووز سلطان سليم (1520)، علي سوافي (1878)، الشيخ تحسين أفندي (1880)، نامق كمال (1888)، جمال الدين أفغاني (1897)، محمد عبده (1905) [301] . وإذا كانت هذه السلسلة الثقافية المثيرة، وربما العجيبة، تبين المصادر التي طورت أفكار بديع الزمان في مواجهة الاستبداد؛ فإنها في الوقت نفسه تقدم لنا طرف الخيط في مخالفته للسلطان عبد الحميد.

فعلي سوافي الذي ذكره بديع الزمان مخالف جريء تبلغ به جرأته إلى تنظيم عملية مداهمةٍ ciragan لتهريب السلطان السابق مراد الخامس، تمهيداً لإعلانه سلطاناً، وعزل عبد الحميد عن العرش.

وتحسين أفندي مدرس في دار الفنون- العلوم- مع جمال الدين أفغاني، أرسله مصطفى رشيد باشا إلى باريس، حيث بقي فيها سنوات طويلة، لكنه أيضاً ممن أجبر على الانسحاب من الحياة الفكرية والثقافية إلى زاويةٍ في عهد عبد الحميد.

وقد رأينا كيف كان سلوك نامق كمال، فهو يعارض عبد الحميد في

الوقت الذي لا يدّخر وسعاً في الاستفادة المادية منه.

وجمال الدين أفغاني الذي قدّم نفسه داعيةً للوحدة الإسلامية؛ شخصية غامضة أثارت شبهات السلطان عبد الحميد، ففضّل وجوده في إستنبول يتحرك تحت سمعه وبصره.

ومحمد عبده تارةً يكون مع السلطان عبد الحميد وتارةً أخرى ضده. ويرى بعض الباحثين أن مردّ ذلك إلى الوسط الذي يتكلم فيه، ولذلك ينبغي أن تقيّم أراءه بناءً على ذلك. وهو ما ينطبق أيضاً على تلميذه رشيد رضا. ففي البداية نرى أنه يدافع بشدةٍ عن مشروع الخط الحجازي [302] ، ويرى أن على المسلمين جميعاً أن يدعموه، كما أنه يدافع عن عبد الحميد ويتمسك به إلى درجة أن يقول في الإصدار الأول لمجلة المنار إنها تستقي العثمانية بلهجتها الحميدية. وفي سنواته الأخيرة نجده يصل في لوم عبد الحميد إلى درجة اتهامه بالاستبداد [303] .

وينبغي لنا هنا ألاّ نبالغ في تأثير بديع الزمان سعيد النّورسي بمثقفي الجيل الذي يسبقه، لقد تأثر بهم بلا شكٍّ، لكن، ألا ينبغي لنا أيضاً أن نبحث عن عالمه الفكري الخاص به، وقدرته على صهر المعطيات التي يقتبسها في بوتقته، ويعيد تركيبها وتطويرها إلى أفكاره الخاصة؟

بهذه الخلفية، قدم الملاّ سعيد إلى إستنبول عام 1907، محمّلاً بفكرة افتتاح مدارس تجمع بين المعارف التقليدية والعصرية، وافتتاح جامعةٍ إسلاميةٍ باسم مدرسة الزهراء يضيء بها في رأيه بالتعليم شرق الأناضول. إنه في الثلاثين من عمره، ويرى أن الطريق إلى إصلاح المدارس القائمة يقوم على تزويدها بالعلوم العصرية، وتطويرها إلى مدارس حديثة. فسعيد النورسي الذي استيقظ على"حلم" نامق كمال وأفكاره حول الدستور والمشروطية عندما كان في ماردين؛ وجد في وان فرصة المتابعة الشخصية والتعرف إلى مدى تأثير موجة التّغرّب و العلمانية التي أتت بها التنظيمات في فئة المثقفين العثمانيين. وبينما كانت المدارس الشرعية في حالٍ يرثى لها، لم تكن أوضاع الخريجين من المدارس العصرية تشرح الصدور أيضاً: فكانت هذه المدارس تنشر شبهاتها عن الإسلام، وتعمل على تحميله مسؤولية تخلّفنا. فكان لا بد من وجود نموذجٍ تعليميٍّ جديدٍ يضع حداً لطرفي هذا الانحطاط. إذاً، لا بد من مدرسة شرعية جديدة تعمل على تدريس حقائق الإيمان والمعارف الإسلامية، وعلى إقامة الجسور والتوفيق بين حقائق الإيمان والعلوم العصرية، وتكون بذلك حلاً فريداً للمشكلات القائمة.

كان السلطان عبد الحميد يعمل باستمرار على افتتاح مدارس جديدة

على امتداد الإمبراطورية كلها، وافتتح جامعة دار الفنون في إستنبول، والجامعة الحميدية في بكين؛ لتمكين المسلمين في الصين من متابعة تحصيلهم العلمي. غير أن هذه المدارس كانت تهدف إلى بناء الإيديولوجية الرسمية، وإعداد الرجال المخلصين للخليفة السلطان. بينما كانت المدارس العليا كالمدرسة الحربية والملكيّة والطبية قد غدت مصادر مباركةٍ للمعارضة؛ كانت الرقابة قائمةً، والصحف الأجنبية التي ينقلها البريد الأجنبي تقرأ بسهولةٍ حتى في منزل طاهر باشا في وان. وعن طريق هذه الصحف الأجنبية، كانت تتدفق جميع الأخبار والمعلومات من أوروبا وأميركا إلى الداخل بلا رقيبٍ.

كانت السنوات التي جاء فيها بديع الزمان إلى دار السعادة- لقب إستنبول- حاملاً في رأسه المخططات، سنوات صعبة من كل النواحي تواجه السلطان عبد الحميد. وقبل عامين من قدوم بديع الزمان إلى إستنبول؛ وبينما كان السلطان منهمكاً في حلّ مشكلة الأرمن، انفجرت قنبلة في حديقة السراي.

ثلاثة أعوامٍ تفصل المشروطيّة عن حادثة القنبلة في تموز1905، أمضاها عبد الحميد في إدارته يبحث عن مخارج جديدةٍ لمواجهة الشّروط العالميّة المتغيّرة، في الوقت الذي كانت تضعف فيه تدريجيًّا قدرته على المناورات التوازنية السّياسيّة، وتنتشر فيه حملات المعارضة ضدّه. فعبد الحميد كان يبحث باستمرارٍ عن صيغٍ جديدةٍ لحكم البلقان- وهو ما سيكرره أتاتورك بعد سنوات- أضف إلى ذلك متابعته أخبار الحرب الروسية اليابانية عام 1905، واهتمامه الشديد بالنتائج، وذلك لأنه كان يعمل عل تطوير حسابات جديدة تقوم على ظهور اليابان كقوة سياسية جديدة على المسرح الدولي، وهو ما نعرفه من المذكرات التي كتبها رؤوف أورباي.

كان السلطان عبد الحميد حين تقدّم بديع الزّمان سعيد النورسي بمشروع مدرسة الزهراء إلى القصر، في شغلٍ شاغل، غير أنه لم يكن هناك أدنى سببٍ للتردد في مشروعٍ مثيرٍ كهذا يصب في إعادة ربط شرق الأناضول الذي أصبح ملاذاً دافئاً للطلاب الأرمن، بالإمبراطورية.

يُذكر في كتبنا أن بديع الزمان حين قدّم عريضته المتعلقة بإصلاح التعليم في أيار أو حزيران من العام 1908، قد جرّ على نفسه المشاكل. لكنه من غير السهل القبول بأنّ تقريراً يتعلق بالتعليم يتقدم به إلى القصر يدفعهم لوضعه تحت المراقبة، وربما كان السبب الحقيقي هو كلامه الصريح والبعيد عن المجاملات مع الموظفين البيروقراطيين في الطبقة العليا

من القصر، ومن الواضح أنهم لم يكونوا مهيّئين لمثل هذا الأسلوب الحادّ، فأثار بذلك حفيظتهم.

وُضع في مشفى طوپ طاشي للأمراض العقلية في أسكدار، وبعد فحصه هناك من قبل طبيبٍ أرمنيٍّ تبيّن أنّه سليم عقلياً، وبناءً على تقريره نقل إلى السجن. كان شهر حزيران قد أشرف على نهايته، وكان يفصله عن الانقلاب الدستوري في 24 تموز 1908 شهر واحد فقط؛ إذجاءت زيارة ناظر الضبطية- مدير الأمن- لسعيد النورسي في نظارته، لتدلّ على أن التوصيات التي قدّمها للقصر يجري تقييمها. وحسب كلام الباشا، فإن المشروع المقدّم من بديع الزمان سيتم النظر فيه في مجلس الوزراء، وسيجري تعيينه رئيساً للجامعة التي سيتم افتتاحها. وعرض عليه راتب شهري من القصر إلا أنه رفضه، فلم يكن قطّ يهدف في مشروعه إلى أن يرتبط بمرتّبٍ شهريٍّ، ومن الطبيعي أن تصرّفه المستغني هذا لن يفهم أبداً من موظفي القصر؛ في نظامٍ يتطلّع الكلّ فيه إلى وظائف الدّولة ومرتّباتها.

ثم تم بعد ذلك إعلان المشروطية عقب هذا اللقاء، وضعفت سيطرة عبد الحميد على الإدارة إلى حدٍّ ملحوظٍ، فهو الآن حاكم مقيّد لا يملك الصلاحيات المطلقة. وهنا تبدأ حملة بديع الزمان للمشروطية وتستمر 9 أشهر حتى 31 آذار/ مارت حسب التقويم العثماني. وعلى الرغم من تجدّد الحديث عن مدرسة الزهراء ،إلا أنها بقيت مشروعاً لم ير النور. وافتتاح جامعة أرض روم- جامعة أتاتورك- عام 1950 يمكن اعتباره انعكاساً باهتاً لهذا المشروع [304] .

ما أريد قوله هنا:

إنّ بديع الزمان قدم إلى إستنبول في السنة الحادية والثلاثين من حكم عبد الحميد خان، وفي السنة الثانية والثلاثين- أي في الزمن العاصف الذي يهدّد بانقلابٍ وشيكٍ- قدّم إلى القصر تقريره حول افتتاح مدارس في الولايات الشرقية. ولو تم تقديم التقرير من قناة مناسبة أخرى وأرضيّة مناسبة أخرى، وفي زمن مناسب، لكان من المستبعد ألاّ يغتنم عبد الحميد هذا المشروع وألاّ يعيره الجدّية اللازمة على الأقلّ في سبيل بناء الأنصار المخلصين، وهو الذي كان يأمر بإحضار أبناء شرق الأناضول إلى إستنبول لتعليمهم في مدارس عشائرهم، ويدفع عشائر البدو البؤساء في الولايات الشرقية إلى الانضمام إلى الألوية الحميدية ليبلغوا أعلى مراتب الجيش والمدنية [305] .

على الرغم من كل هذه التجارب القاسية وكل واحدة منها تكفي

لتوليد العداوة ضد عبد الحميد، والتي عاشها بديع الزمان- حجزه في مشفى الأمراض العقلية، وإلقاؤه في السجن، والتحقيق معه، وغير ذلك- فإن هناك نقطةً هامةً تميزه عن غيره من المعارضين، فقد انطلق في أحكامه على عبد الحميد من المبادئ، وتهرّب بإصرارٍ عن تحويل المعارضة إلى قضيةٍ شخصيةٍ.

نعم، كان يرى الاستبداد في إدارة عبد الحميد، ويتناوله بالانتقاد، غير أنه كان يدرك أيضاً المبالغات التي تحيط الحديث عنه في أجواء الانقلاب. واستبداد عبد الحميد، كما رآه في المناظرات، كان استبداداً جزئياً أكره عليه، ولكن الاستبداد الجزئيّ الخفيف الجبري، إذا أُفلت من عقاله؛ يتكاثر كالخلايا، وينتشر في كل مكان، ويتولد الاستبداد المطلق ولو لم يكن يريده المستبد.

إذاً، فمن الوهم أن نقيس مقاربة بديع الزمان لإدارة عبد الحميد القائمة على حكم الرجل الواحد بالمقاربات المتحيزة المتعمّدة، ونظرة الوحش القابع في يلدز . واستبداد عبد الحميد في نظره لا يعدو كونه استبداداً خفيفاً مقارنةً بما يراه في ما بعد من استبدادٍ كيفيٍّ شديد متمثّل بديوان الحرب العرفي .

يقول مصطفى سونغور- من طلابه- إنّ بديع الزمان عندما لقي من مآسي حكم الحزب الواحد واستبداده، ذكر عبد الحميد فقال: أي سعيد المتبلّد! لقد عارضت حاكماً مشفقاً، وقلت عنه إنه مستبدّ؛ فتحمّل جزاءً لك هذا الاستبداد الشّديد [306] .

وفي موضع آخر ينقل لنا مصطفى سونغر رأي بديع الزمان بعبد الحميد بالعبارات التالية: "إن السلطان عبد الحميد وليّ، وأدعو له في أدعيتي الخاصة، وأذكره في دعائي كلّ صباحٍ: يا رب أسألك أن ترضى عن السلطان عبد الحميد خان، وعن السلطان وحيد الدين، وعن جميع السلاطين العثمانيين" [307] .

وفي وثيقة أخرى عن كون السلطان عبد الحميد ولياً في نظره، ما ذكره محسن علو- من طلابه أيضاً- لنجم الدين شاهينر، فقال: "نشر أحد المؤلفين كتاباً عن السلطان عبد الحميد في إستنبول يهاجمه فيه بشدّةٍ وينهال عليه بأقذع العبارات، فلما سمع به الأستاذ بدا عليه الحزن وقال لنا: لقد كان السلطان عبد الحميد خليفةً لستين مليون مسلمٍ، وأنا أراه وليًّا ". ونشر عنه مكتوباً [308] ملحقاً [309] .

وما شعر به سعيد النورسي من الحاجة إلى تغيير قناعاته عن

السلطان عبد الحميد بعد سنوات استبداد الحزب الواحد باسم المشروطية؛ يظهر من جديدٍ تعلقه بالمبادئ، وانطلاقه منها بعيداً عن الأشخاص. ولو مارس معارضةً قائمةً على الاعتبار الشخصي كمحمد عاكف، لأصبح في وضعٍ لا يمكن فيه الرجوع عن أقواله، أو سيضطرّ إلى اعتذارٍ شخصيٍّ أيضاً كما فعل رضا توفيق. لكنّ سعيد النّورسي كان في تصرفاته متمسكاً بالحقوق إلى درجة عبوديّتها، وتعاليم القرآن هي التي تنير له الطريق إلى معرفة هذه الحقوق. ولذلك أعلن بوضوح في سيرته الذاتية بعد أعوام طويلة أنه كان مصيباً في الوقوف ضد الاستبداد، لكنه أخطأ الهدف.

وهذه الرسالة- مكتوب- التي كتبها محسن وضياء- وهما طالبان من طلاب بديع الزمان- عام 1953 تتناول الجواب عن سؤال أحد المدرّسين:

أولاً: إن الدستور الأول الذي اتخذه استاذنا قانوناً أساسياً في حياته كلها هو القرآن الكريم، ولذلك كان يحسن الظن بالسلطان، وهو يقول: "الأخطاء المرتكبة من قبل الحكومة في عهد السلطان لا تجوز نسبتها إلى السلطان"، معتمداً على القاعدة القرآنية) .. وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى... (. وحاول تأويل بعض الأخطاء التي بدرت منه، على أنه كان مكرهاً عليها في مواجهة معارضيه .

ثانياً: لقد أثنى أستاذنا في بداية الحرية عام 1908 بكل قوته على الحرية في دائرة الشريعة، ودعا الناس إلى تلك الحرية في خطاباته العامة، وقال لمخالفي تلك الحرية الشرعية: "إن لم تكن أي الحرية في دائرة الشريعة، فإن الاستبداد الجبري الجزئي الخفيف ممن وصمتموه بالاستبداد، يتحول إلى استبداد كليٍّ شديد، ويبدأ بالانقسام ليعمّ الجميع فيمارسونه بأشكال مختلفة، وتموت الحرية ويسود الاستبداد المطلق ".

حتى إنّ أستاذنا أعلن في ديوان الحرب العرفي الذي عقد من أجل إعدامه قائلاً: "إن كانت المشروطية تتجسد في استبداد الاتحاديين، أو كانت مخالفةً للشريعة؛ فلتشهد الدنيا أنني رجعيّ ".

ثالثاً: في ذلك الوقت أدرك أستاذنا بنوعٍ من الحس المسبق- الحس قبل الوقوع- خلاص العالم الإسلامي من الاستبداد الأجنبي، وتصوّر بداية ظهور نوعٍ من الجماهير الإسلامية المتحدة- الجمهوريات الإسلامية المتحدة- وتمنّى حصولها، وشعر بها، وصرخ بأعلى قوته، وأبدى احترامه وتأييده للحرية الشرعية، وكرّر في خطاباته: "إن الحرية التي لا تقوم على التربية الإسلامية، لن تبقى على قيد الحياة وتموت، وسيظهر مكانها استبداد مطلق ".

رابعاً: لقد سمعنا من أستاذنا، وأدركنا ذلك من أحواله، أنه كان على قناعة

تامة بأن السلطان عبد الحميد كان من بين السلاطين في عداد الأولياء؛ بما أظهره من القناعات - البصيرة - والثبات في مواجهة الدسائس والقوى الأجنبية الشديدة، وسوقه العشائر البدوية البائسة في الولايات الشرقية نحو المراتب العسكرية والمدنية العليا، بانضمامهم إلى الألوية الحميدية، وحضوره الدائم صلاة الجمعة في جامع الحميدية، ووجود شيخٍ يعتبره أستاذه المعنوي في يلدز - ينبغي أن يكون الشيخ أبو الهدى ، والشيخ ظافر أفندي شيخ الشاذلية، م.أ- وحسناته الكثيرة باعتباره خليفة القسم الأعظم من العالم الإسلامي .

هذا المكتوب الملحق بالمناظرات في بعض طبعاته، يحوي بنداً خامساً بالغ الأهمية، أنقله من ترجمة بديع الزمان في أكثر التراجم سعةً لعبد القادر باديللي:

كلّ بني آدم خطاء، فإذا كان قد تكلم في خطاباته عن عبد الحميد وعن أخطاء جسيمة اضطر إليها، فإن كلامه ذلك يبقى بلا أهمية. فكما أن الأخطاء التي وقعت بين علي وطلحة والزبير رضي الله عنهم من العشرة المبشرين من الصحابة لا تؤثر في حقيقة أخوّتهم الإسلامية، فكذلك أخطاء أستاذنا في حق السلطان المرحوم عبد الحميد، لا يمكن أن تكون محوراً للاعتراض **[310]** .

إن الزلزال الذي وقع طيلة 45 عاماً (1908-1953) يبدو أنه جدّد صورة عبد الحميد، والفراغ الأصم الذي خلّفه والإصابات والصدمات المتتالية بعده؛ لا بد من أنها بيّنت بوضوح لمن يريد أن يرى، المهالك التي كان السلطان يحاول صدها. وينبغي هنا أن نأخذ في الاعتبار، كيف استطاع بديع الزمان سعيد النورسي أن يدير وجهه نحو الحقيقة لأنه في مقارباته كلها ينطلق من المبادئ.

وأخيراً، ألا يحمل الخطأ هنا معنى الثواب؟ نعم، هذا هو الطريق، إلا أن الحقيقة لا تكشف عن وجهها إلا لمن يتابع السير عليها بإخلاص.

ملا حظة : من أجل وثائق أرشيف رئاسة الوزراء المتعلقة بقدوم سعيد النورسي من وان إلى إستنبول يمكنكم الاطّلاع على: سليم سوئماز: بعض الوثائق المتعلقة بحياة بديع الزمان النورسي الأولى في إستنبول : ö k prü ، العدد 88، ربيع 2004، ص 77-89).

عبد الحميد وأبناؤه (نكران الجميل)

إن الذين احتلوا مكاني، برَّأوا ساحتي، ولولا ذكرى المصائب التي جلبوها للدين والدولة؛ لقمت بشكرهم !

السلطان عبد الحميد الثاني

لست أدري إن بقي في أيامنا هذه من يعرف الكاتب آقا كوندوز؟ وقصة هذا الكاتب الذي ارتقى درجات الشهرة فجأةً بروايته Dikman Y ı ızı ld عام 1930 في موسوعة اللغة والآداب التركية هي كما يلي:

ولد عام 1886 في كاترين من سلانيك، وتوفي في أنقرة عام 1958، اسمه الأصلي أنيس عوني؛ يذكر إبراهيم علاء الدين G ö usa في مشاهير الأتراك أن والده هو البنكباشي قدري بك. بعد أن أتم تعليمه الابتدائي في ساراز وسلانيك التحق برشدية الصرب في أغري كاپي، ثم تابع دراسته في الإعدادية الحربية في غلطة سراي وأدرنة وقوللي، إلا أنه ترك تعليمه في الصف الثاني من الحربية بسبب مرضه، وتوجه إلى باريس، والتحق هناك بدراسة الحقوق والفنون الجميلة، ولكنه تركها أيضاً وعاد إلى إستنبول، ثم نفي إلى سلانيك. وبعد حادثة 31 آذار/ مارت حسب التقويم العثماني اشترك في جيش الحركة المتوجه إلى إستنبول متطوعاً... [311] .

هل يمكن أن يكون هناك مثال أفضل من هذا لإثبات أن السير الذاتية تكتب لخداع الأغبياء؟ وهل يمكن أن تكون هذه الحياة قد سارت بهذا الشكل البسيط بلا مشاكل؟... وُلِد في سلانيك، والده بنكباشي، وبدأ تعليمه هناك لكنه أتمّه في رشدية الصرب في إستنبول، فماذا يعني ذلك في المجتمع العثماني؟ لا وجود لأي تلميح عن هذا من سيرته الذاتية... وفجأةً نرى الفتى نفسه في الثانويات العسكرية، ثم يمرض ويتركها، ثم يغير رأيه ويتوجه إلى باريس، ومن هناك يعود إلى الوطن من دون أن يحقق شيئاً يذكر، وأخيراً، يرتمي في أحضان الحياة الإعلامية. تُرى ما سبب القلق الكبير وعدم الاستقرار اللذين يحيطان بحياة مؤلفنا كغشاءٍ رقيقٍ؟... وأيضاً يقابلنا الصمت المطبق في تراجمنا...

وبسبب كتاباته المعارضة واللاذعة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، ينفى إلى مسقط رأسه- ولكن، أي نفي هذا؟- ثم نجده متطوعاً في صفوف جيش الحركة المتجه إلى إستنبول لعزل السلطان عن العرش عام 1909، فلماذا هذا التطوع؟! سؤال بلا جوابٍ... ومن يجد في نفسه الفضول لمتابعة سيرته الذاتية من المعاجم ذات العلاقة، سيقع على الكثير مما يقال

في هذا الباب، إلا أنه يكفي أن نذكر هنا أنه كان نائباً في مجلس النواب من العام 1932 وحتى العام 1946. فعندما نربط هذا بما سنأتي على ذكره تالياً، ستدركون كيف اكتسب هذا المقام، وبأيّ عرق جبينٍ.

واللوحة التي تغطي 22 عاماً من حياته ما زالت صامتةً، تحاول الإفصاح. فسيرة حياته في ختام أطول قرنٍ في تاريخ الإمبراطورية (1886-1908) لم تكن سوى حكايةٍ عاديةٍ خاليةٍ من النتوءات المثيرة، ولا بد من أنها تخفي تحت سطحها أموراً تتحرك، ولكن، ما هي هذه الأمور؟

وأخيراً، تتسمّر عيناي على عنوان يخفي تحته السر الذي أبحث عنه في مجلةٍ قديمةٍ مصفرّة الأوراق: "في طريقي إلى السلطان"، والكاتب آقا كوندوز [312] .

تبدأ المقالة من اللحظة التي حصل فيها الانقلاب الدستوري، فنحن في 24 نيسان عام 1909 أمام البحيرة المشهورة في قصر يلدز، ينتظر مع الوحدة العسكرية التي تطوع فيها. يسود الأجواء تحرّك خبيث، وغمّ ثقيل . وهو هنا لحماية الهيئة التي دخلت السراي وفي يدها فتوى عزل السلطان عن العرش، ويعرف منهم: نائب Dra ç أسعد توبتاني باشا، وعن يمينه النائب اليهودي إيمانويل قره صوه، ويظنّ الآخرين عرباً. فلم يكن وقتذاك إلاّ حدثاً لم يتجاوز الثانية والعشرين من عمره. في حين نتعرف إليهما من قِبَل فتحي أوقيار بيك الذي كان في حديقة السراي أيضاً وهما السيناتور الأرمني آرام أفندي عضو مجلس الأعيان، ونائب لازيستان عارف حكمت باشا [313] .

وبينما كان هؤلاء الأربعة يتحركون باتجاه درجات المابين ؛ كانت هناك بعض الحوادث تتحرك تحت ستائر ذكرياته، وفجأةً تتطاول الأعوام حتى تصل إليه وكأنها حبال طرزان المتسلقة على جدران السراي تتدلى، فيتمسك ببعضها، ويغوص في غابات طفولته المظلمة، ويريد على الأرجح أن يحتمي بها، ومن الواضح أنه يعاني تأنيباً داخليًّا...

وإذا به قد التقى السلطان عبد الحميد، ويتراءى له ظلّه الأسود خلف النافذة التي يقف عندها قبل أربعة عشر أو خمسة عشر عاماً، لكنه في ذلك الوقت كان في خصره نطاق مزركش؛ بينما تحيط به الآن قنبلتان وخراطيش هوائية، كان يومها في يده أصابع السلطان الطويلة والناعمة أما الآن فتملأه جفوة السلاح وصلابته...

وفي عام 1897 يدخل الحديقة بسنواته الإحدى عشرة؛ ولم يكن معه سوى شخص مقرّب من القصر سيتكلم مع السلطان ليمنحه التسجيل

والقبول في مدرسةٍ داخليةٍ، فيظهر أمامهما فجأةً من بين الأشجار بضعة رجالٍ، فيلفت نظر آقا كوندوز رجل نحيل، ينحني بجسمه قليلاً نحو الأمام، ويتميز بلحيته ولباسه الأنيق. فيدعوه هذا الرجل ويسأله عما يفعل في الحديقة، فيجيبه آقا كوندوز ببراءةٍ وسذاجةٍ: "لقد جئت لأقابل السلطان، أريد الانتساب إلى المدرسة، وهو الوحيد الذي يمكنه أن يساعدني".

يُسرُّ الرجل بحماسة الفتى، فيطمئنه الرجل أنه سيتحدث إلى السلطان حتّى يأمر بتسجيله في غلطة سراي- أفضل مدرسةٍ في ذلك الوقت- وينقذ والده من النفي، ويعينه في الجيش برتبة بنكباشي ويأمر له بمقدار من المال. قبّل الفتى يد الرجل مراتٍ ومراتٍ، ثم عاد إلى بيته وقد تفتحت في أعماقه آلاف الأزهار، وبيده أمر السلطان، غير مدركٍ كيف يزفّ البشرى لوالده. وحين توسّط الطريق، أدرك فجأة أن الرجل الذي قبل يده هو السلطان عبد الحميد نفسه.

لقد كانت لحظةً رائعةً ابتسم له فيها القدر، في منعطفٍ مصيريٍّ من حياة آقا كوندوز. لكنكم تخطئون إن ظننتم أنه سيبقى يذكر صاحب الفضل عليه وعلى قلمه بالخير طيلة حياته.

فها هو في بداية العقد الثاني من عمره في ساحة السراي مرةً أخرى، يصوب سلاحه على الرجل الفارع صاحب النظرات العميقة نفسه الذي حوّل حياته ذات يومٍ تحوُّلاً أسطورياً رائعاً. والواقع أن عبد الحميد ذلك اليوم لم يكن يعزل عن العرش على يد النشء الذي تخرّج من المدارس التي افتتحها بنفسه فحسب، بل كان مصير الإمبراطورية كلها لعبةً في أيديهم. وإذا أردنا الحديث بلسان الباحث القدير ثيري زاركون، فإن الحكم الماسوني كان يستلم العرش؛ ليقوم بدفع الدولة العثمانية إلى المقصلة، وتقطيعها إلى أشلاء لا يمكن التعرّف إليها خلال تسع سنواتٍ [314] .

وهكذا كان على مثقفي تركيا أن يلتقطوا أنفاسهم في الأربعينيات من القرن الماضي، ليدركوا ما كان السلطان يحاول مقاومته.

إخلاص سالم الكردي

في قصر علاتيني حيث يمضي السلطان عبد الحميد بعد عزله عن العرش إقامته الجبريّة في سلانيك، أطلق سالم الكردي- من ضباط حراس القصر- النار عليه، إلا أن محاولة الاغتيال لم تبلغ هدفها. والغريب في الأمر أن سالماً هذا انتسب إلى ثانوية قوللي العسكرية بمساعدة عبد الحميد، وتلقى معونات مالية منه. وفي سنوات حرب الاستقلال قام هذا الشخص الذي يعرف أيضاً باسم سالم الطوبجي، بقتل عازفَين أرمنيَّين كانا يعزفان في ملهىً

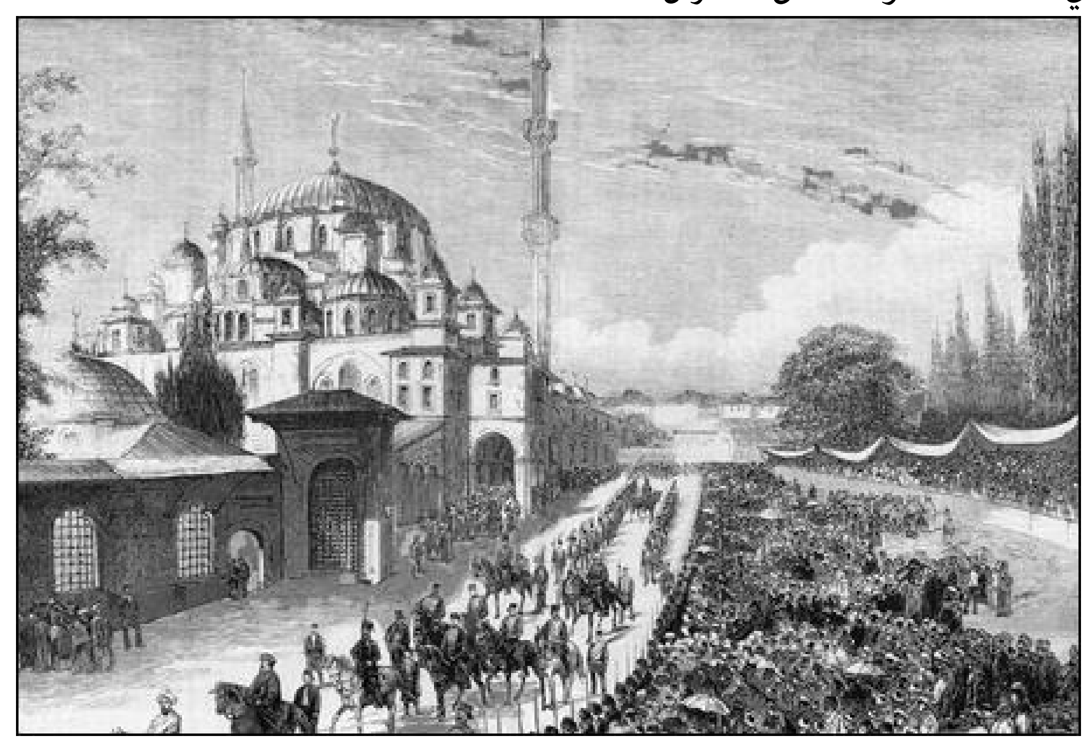
على العود بلا سبب. انظر: واصف بك، كنت ضابط حرس للسلطان عبد الحميد: قصر علاتيني.
مجموعة حياة التاريخية، العدد: 11، كانون الأول 1966، ص 29.

عبد الحميد بعينَي بطل الحميدية

إن الدول الأوروبية غارقة في وهمٍ غريبٍ: ترى أن السبيل الوحيد للخلاص يكمن في قبول مدنيّتها- حضارتها- مع أنه من الواضح أن الثقافة الإسلامية العثمانية فيها قابلية السيادة التي تليق بالعصر بمقدار ما في ثقافتها .
السلطان عبد الحميد الثاني

بطل الحميدية رؤوف أورباي (1881-1964) واحد ممن تشوشت أفكارهم في فهم السلطان عبد الحميد الشخصية متعددة الميادين. ولكن، كان له الحظ في معرفة السلطان عن قرب. وعلى الرغم من أن والده من البحرية الخاصة كان معجباً بالسلطان، فإنه- رؤوف- انضم إلى صفوف المعارضة، وانغمس في أفكار تبلغ حدود الافتراء عليه. غير أننا مع الأسف لا يمكننا أن نعرف مدى تمسكه بتلك الأفكار، فقد وصل إلى مقام الرئاسة في عهد الجمهورية، ثم أُبعد عن العمل فتوجّه إلى الخارج، وبعد عودته إلى تركيا بعد وفاة أتاتورك؛ آثر بإصرار أن يحافظ على صمته.

إلا أن الوثائق التي نشرت بعد وفاته تبين في سطورها أن أورباي لم يعد ينظر إلى السلطان من نافذة البحرية بل ينظر إليه بعينَي رجل دولة. فمراسم تقليد عبد الحميد السيف تخفي في ظلالها قيمة كبرى للضغوط التي كان يمارسها السلطان ليدخل بأمته بمهارة في سياسة التوازنات الكبرى التي يحفظ بها أمن بلاده وسكينتها. ولم يدرك ذلك إلا بعد الفراغ الكبير الذي خلّفه سقوطه عن العرش.



حفريةٌ تظهر مراسم تقليد السيف للسلطان عبد الحميد خان الثاني (L'illustration).

هذه العبارات دوّنها رؤوف أورباي عقب زيارته الأولى للسلطان:
على الطاولة الواسعة وسط غرفة الاستقبال الكبيرة، كانت هناك خارطة لموقع Kipert تعرض جغرافية الحرب الروسية اليابانية في نزاعهما البحري، تظهر عليها أراضي الطرفين وما يحدها من البحار، وقد ثبّتت الأعلام التي تبين مواقع القوات. رفع رأسه عن الخارطة ونظر إلينا. كانت نظراته الثاقبة وسيطرته على هدوئه تجعله يبدو وكأنه يدرك بالتحديد ما نفكر فيه. حتى إن بغنام باشا عندما خرج من مجلسه عبّر عن هذا الانطباع قائلاً: "إن سلطانكم يريد أن يعرف أفكار مخاطبه وآراءه؛ قبل أن يعبر عن أفكاره وآرائه ".

كان صوته خشناً يعرف بالصوت الداوودي، وكان يتكلم ويعطي كلماته حقها، ويوسع دائرة سؤاله عندما لا يكتفي بالجواب، فإذا اطمأن إليه؛ ينتقل إلى سؤال آخر بإشارة من رأسه. وعندما تنتهي المقابلة، يبين ذلك بأدب بحركة من رأسه. والاحترام الذي يبدأ من حدود اللطف والتواضع يلقن محيطه صورة الوقار في شخصيته .

كان يسأل بغنام باشا عن الحرب الدائرة، وهو السبب الرئيس في مقابلتنا إيّاه. وكانت الأسئلة كفيلة بأن تنتزع إعجاب القبطان الأميركي، فعبر عنها عندما اختلى بنا بقوله: "عجباً! كيف استطاع أن يمتلك هذه المعلومات التي تحتاج إلى الخبراء والمتخصصين في هذا المجال؟!"، ولم يتوصل إلى الإجابة حتى الآن [315] .

وكان النشاط والحيوية يبدوان في حديثه إلى المقربين إليه، في حين يتميز بكلامه القليل والموجز مع الغرباء، ومن يراهم للمرة الأولى على وجه الخصوص. والسلاطين العثمانيون عموماً يتميزون بقلة الكلام في أوساط العامة؛ كما هو مشهور عن السلطان مراد الأول على سبيل المثال.

بيّن جداً، أن عبد الحميد الثاني يتمتّع بقدرة عظيمة على التأثير، وبفراسة يستطيع بها اكتشاف شخصية المرء الذي يقف أمامه، وسبر أغواره من أسلوبه وتصرفاته. ومعظم الأجانب الذين التقوه يؤكدون ذلك فيه: لا يمكن أن يكون هناك شخص يعجز عبد الحميد عن إقناعه، عندما يلتقيه وجهاً لوجه.

لقد خطا رؤوف أورباي عندما كان برتبة يوزباشي عام 1905 خطوته الأولى للقاء عبد الحميد في قصر يلدز مع بغنام باشا، فلنطّلع على ما

حدث بعد ذلك من كلام رؤوف أورباي:

كنت قد ترفعت حديثاً إلى رتبة اليوزباشي، ومنح القبطان بغنام رتبة القائمقام بتعيينه مفتشاً للأسطول، وكنا بملابسنا الخاصة بالمراسم نقف للتحية الرسمية، حيث سمعت للمرة الأولى ذلك الصوت الخشن الداوودي المحبب وهو يبلغنا إرادته: "تفضلوا بالجلوس"، مشيراً إلى الأرائك المذهبة على يمين الطاولة ويسارها. انتظرنا تكرار إرادته ثلاث مرات تنفيذاً لتعليمات نادر آغا، ثم جلسنا متجاورين وقد عقدنا أيدينا ننتظر الإرادة السلطانية، وعيوننا منصوبة أمامنا. أما أنا، فقد كنت في حلم. كان نص التقرير الذي ترجمته لبغنام في الليلة السابقة على الطاولة في بقعة من الضوء، وعليه إشارات بالحبر الأحمر تحت الأسماء الخاصة المتعلقة بالمعارك .

وهنا يضع رؤوف بيك يده على نقطة مثيرة:

لقد كتب الأميرال تقريراً للسلطان بالإنكليزية، ولما كان يجيد الإنكليزية فقد ترجمه وقدمه إلى السراي. وعندما خرجوا من القصر، تفرغ السلطان لقراءة التقرير، ووضع خطوطاً حمراء تحت المعلومات المهمة والأسماء الخاصة. فهذه الحادثة تدل على أن السلطان عبد الحميد لم يكن يطلب التقارير ليطرحها جانباً؛ أو لمجرد إشغال الناس.

ثم يتابع فيقول:

ولن أخفي هنا شعوري بالمتعة والاعتزاز؛ لأنني قمت في تلك السنة المبكرة بترجمة ذلك التقرير الذي اهتم به سلطاننا ذلك الاهتمام الكبير [316] .

وهنا نقطة أخرى تلفت انتباهنا؛ فقد كلّف السلطان بغنام باشا بأمرٍ سلطانيٍّ ورد فيه: "فلتدققوا إن كانت العلامات الموضوعة على ساحات الحرب موزعة بالشكل الصحيح، ومنسجمةً مع التقرير الذي قدمه".

وما نراه بعد ذلك يعكس لنا مدى متابعة السلطان واهتمامه بالحرب الروسية اليابانية:

كان السلطان يتابع تحركاتنا بكل اهتمام، وكان بغنام يرتب الرايات، ويميز الأماكن المأهولة في البحار البعيدة التي أمضى فيها شطراً من حياته المهنية، ويثبت الأعلام التي تعود إلى الطرفين بناءً على أحدث المعلومات الوافدة.

كانت يدا السلطان تستندان إلى طرفي الطاولة بشكل متباعد، وهو يتابع أعمال البحار الأميركي الذي عيّنه مفتشاً للأسطول الهمايوني- السلطاني- بكل اهتمام. ثم أدركت من إرادته أنه يهتم أيضاً بما كنت أتحدث به إلى

بغنام باشا إلى جانب اهتمامه بالتقرير الذي ترجمته: "أعيدوا الكلام بشكل أبطأ، وبكلمات واضحة".

لقد كان بغنام مندهشاً من هذه التقنية بقدر دهشة رؤوف بيك. وعندما هموا بالتحية والخروج؛ تذكر السلطان عبد الحميد بذاكرته القوية العجيبة الشاب ذا الخمسة والعشرين عاماً: "رؤوف بيك: هل أنت ابن محمد مظفر باشا؟". نعم، بالتحديد، فيدعو له قائلاً: "قدر الله تعالى لك أن تخدم الوطن والأمة، وتعلو إلى أعلى المراتب في هذا الطريق".

ربما كانت هذه الحادثة عرضية لا تستدعي الوقوف عندها، إلا أنها توضح لنا بشكل رائع حجم المسائل الدقيقة التي ينشغل بها رجل الدولة في قصره الصغير، فإلى جانب متابعة ما يحدث في العالم، لا يفوته الوضع العائلي لضابط شاب عنده [317] .

انخرط رؤوف أورباي كرجل بحرية في الدعايات المغرضة، حتى إنه تناسى أنه في شهرته- بطل الحميدية - التي اكتسبها من قيامه بشراء الغواصتين الحربيتين عبد الحميد و عبد المجيد من إنكلترا عام 1904؛ مدين للسلطان عبد الحميد، وإلا، فلماذا كان يلمّح إلى أن السلطان لا يصلي حتى صلاة الجمعة؟

سألني بغنام باشا يوماً: "صديقي الشاب... متى يصلي السلطان في أيام الجمعة؟".

تمالكت نفسي بصعوبة وامتنعت عن الضحك، فقد سألت نفسي السؤال نفسه مرات ومرات من دون أن أجد له جواباً. نعم، كان السلطان العثماني يأتي إلى محلفه قبل الأذان بدقائق قليلة. وخليفة المسلمين في العالم وأمير المؤمنين، أين كان يصلي حين يكون في محفله؟ [318] .

فهل هناك عبارة أكثر وضوحاً من أن بطل الحميدية لم يدخل في حياته مسجد يلدز؟ لأنه لو دخل، لكان رأى إلى يساره محفل الحاكم في قفصٍ صنعه بيديه من أشجار الورد، حيث يمكن رؤيته في صلاته من خلال قضبانه، وكان بإمكانه حينئذ أن يتجنب أن يصدر منه هذا التلميح الذي يرقى إلى الافتراء الصريح على شخصٍ مسلمٍ، وأن يبقى حتى ختام حياته من النادرين الذين استطاعوا المحافظة على استقامتهم [319] .

وربما نفسر خصومة رؤوف بيك للسلطان عبد الحميد على أساس الجو العام الذي كان يسيطر على ذلك العصر. وهنا موضع الاعتبار.

إن تصرف بطل الحميدية هذا ما هو إلا مثال مرّ، ولكنه ليس وحيداً.

يحيى كمال و الأب الأخير
عبد الحميد الثاني

أمتي أو أبنائي، لا فرق بينهم عندي ...
السلطان عبد الحميد الثاني

بينما كان الجيل الأول من مثقفي الجمهورية ينتظرون بيأسٍ الأب الذي غاب ولم يعد، بحثوا عن السّلوان في أحضان الأمّ ، فهل وجدوا هذا السلوان؟ الأمر فيه خلاف...

فمهما عقّه أبناؤه- مثقفو عصره- وخالفوه؛ فإن عبد الحميد الثاني يبقى في عقلهم الباطن ممثلاً صورة الأب. وهل للعقوق معنى إن لم يكن في البيت أب؟ يبدو لي مهمًّا أن ندرك حجم المأساة التي عاشها هذا الجيل الذي شهد تحوّل إدارة الاتحاديين إلى حكم المافيات ورجال العصابات ولمّا يمض على رحيله عن العرش سوى ثلاثة أعوام ونصف، وشهدوا سحق وطنهم بعده بعشر سنوات.

لم يكن قد تجاوز أعوامه الثمانية عشر، عندما فرّ من ضغوط الأب ، ويعلن يحيى كمال [320] لمن يحادثه من الموظفين أنه يفرّ ليكتب مقالاته ضدّ السلطان من باريس، ولم يعد إلى بيته إلا بعد سقوطه عن العرش. وهناك في باريس سوّلت له المعارضة المزمنة وألقت في روعه أن أمّه الوطن تعيش حالة اغتصاب غير مشروع من قبل السلطان.

إنّ عبد الحميد الثاني، وبحرص سلطانٍ آسيويٍّ غيور قديم؛ قد تكفّل المملكة كما يتكفّل المرء زوجته، حتى إنّ الأرواح الجديدة- أبناءه، م.أ- كانوا يشمئزون من كل ما يتعلق بالمملكة القديمة، ويريدون الفرار إلى الخارج **[321]** .

وبينما يتمسك الأب بكلّ شغف بهذا الوطن الذي اعتبروه أمًّا لهم ويحافظ عليه، يتّحد الأبناء لقتل هذا الأب، وينجحون بالتفريق بينه وبين أمّهم... لقد تمّ إنزال الأب الكفؤ عن عرشه بعد إعلان المشروطية الثانية، ولكن للأسف، ظهر للعيان عجز أبنائه في فترةٍ قصيرةٍ:

حدث انقلاب عام 1908... وأسقط القانون الأساسيّ القديم، واجتمع مجلس المبعوثان ، ولكن، لم يكن في الميدان مكان للسلطة، ولأنّها لم تكن قائمةً، وقع الاحتلال العسكري عام 1909، ولم يبق في تركيا شكل معيّن للدّولة... وأنشأ الاتحاديون من موقع السلطة قاعدةً للإرهاب [322] . ولهذا

كانت الحيرة والعجز اللذان سُلِّم إليهما الجيل الذي فقد وليّ أمره؛ سببين لهذه الكلمات التي تحرق القلوب، والتي يعترف بها الدكتور ناظم، أحد قادة الاتّحاديّين النّشطاء، ليحيى كمال في الحرب العالمية الأولى: "نريد أن نتخلّى عن السلطة، ولكن لمن نتركها؟ قل لي: لمن؟! من نأتمنه عليها ونتركها له؟ ليس لنا بها أي مطمع، لكننا نتحمّلها؛ لأننا لا نرى خلفاً يستطيع أن يحملها".

لقد كانت قلّة الخبرة وانعدام الحيلة والإحباط سيّدة الموقف، وكاد يحيى كمال أن يختنق في ظلال الإرهاب الذي يمارسه الاتحاد والترقي في الحكم، وتدبّ في أعماقه إعادة النّظر في رؤيته للسلطان.

ففي روايته أنت لي في كل ليلة ، والتي بدأ بكتابتها عام 1956/1957 من دون أن يتمّمها؛ يتكلّم بشكل مثير عن هذه الهزة. فبطل الرّواية شابّ يبصر حلماً، وهو في باريس، يسمع بائع الصحف في الشارع ينادي le sultan est mort! : مات السلطان، فتضطرب مشاعره ويغرق في أفكار عميقة:

أخيراً، مات السلطان عبد الحميد، والكابوس الأكبر في حياة أولئك الذين فرّوا إلى باريس طلباً للحرّية، لم يعد له وجود. ولكن، ماذا سيحدث الآن؟ فعلى الرغم من كل شيء استطاع هذا الحاكم أن يدير الوطن، وعلى الرغم من كلّ شيء استطاع أن يحفظ الإمبراطورية المكوّنة من أقوام وأديان كثيرة. والآن في ظلّ تمرّد أعداء الداخل والخارج، كم هي المصائب المخيفة التي ستحلّ بالوطن؟

وحديث الفتاة في الرواية إلى الشاب العائد من باريس- أي يحيى كمال- عن خطورة تنحية السلطان عن العرش، ومحاولتها إقناعه بالتفاهم مع السلطان والعمل على مساعدته؛ يظهران أن يحيى كمال في رواية أنت لي في كل ليلة يريد أن تسري أفكار جديدة بين الشباب عن علاقتهم بآبائهم. وربما كان يظهر ندمه على يتم الشباب المتمرّد.

"النهاية تعود إلى الأصل" كما يقولون، فيحيى كمال هو نفسه الذي نظم قصيدة شعرية في مدح السلطان قبل فراره إلى باريس، وحاول إخفاءها عن العيون [323] . والقصيدة هي التي نظمها بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لاعتلائه العرش باسم أحمد آغا في صحيفة ارتقاء عام 1902:

فليعمّ السّرور ولتزدهِ الكائنات
ولتفض بالحبور اليوم كلّ الجهات

فاليوم أعطى هذا الملائكيّ الصّفات
السّلطنة الرّوح الجديدة والحياة
ربّ، فاحفظ لنا ليوم الحشر سلطاننا

فإذا طرحنا 1902 من 1957 تبقى 55 سنةً نحتاج إليها لنفهم قدر الأب الذي فقدناه.

عبد الحميد في نظر أتاتورك

إنّ نمط إدارة عبد الحميد هو التّسامح الأعظمي !
أتاتورك

نظام الدين نظيف Tepedenlio ğ lu واحد من أصحاب الأقلام المجنونة في الثلاثينيات؛ ينظر إليه على أنه أديب واعد في المستقبل، وقد استطاع دخول القرن الحادي والعشرين بالطبعة الجديدة من كتابه الجيش والسياسية . فالمخلوق الغامض المشحون بالألغاز، والذي ندعوه الوقت والزّمن؛ يمكن أن يتصرّف أحياناً مع الأقلام المشهورة بدرجة بالغة من القسوة.

ذكرى مثيرة تنقل نظام الدين نظيف إلى كتاب عبد الحميد، فما هي هذه الذكرى؟!

في 23 تموز عام 1958 تبدأ جريدة الحرّيّة بنشر سلسلة مقالاتٍ لنظام الدين، فلماذا هذا التاريخ؟ إنها الذكرى الخمسين لإعلان المشروطية...

يكشف في هذه الحلقة المؤخرة في 31 تموز 1958 عن أمرٍ بقي سراً حتى ذلك اليوم، يبين نظرة أتاتورك إلى عبد الحميد بعد أن بدت عليه علامات النضج كرجل دولة:

كنا في عام 1937 في موسم الصيف، وكنت أنشر أيامها مقالاتٍ بعنوان مقدونيا ؛ إذ اتصل بي ذات مساء قائد الحرس الشخصي- باش ياور- جلال بيك، ودعاني إلى قصر (دولمة بهچة). دخلنا القصر، وصعدنا على الفور إلى الطابق العلوي، وفتح الباب، فإذا أنا أمام الرجل الكبير. ألقيت التحية باحترام، وبعد جملة أو جملتين من المجاملة قال لي: "أقرأ مقالاتك. لا بد من أنك كنت طفلاً صغيراً عند إعلان الحرية! فهنيئاً لك، تستطيع أن تحيا تلك الأيام بشكل جيد. وواضح أنك لا تحبّ عبد الحميد أبداً ".

ثم أطرق قليلاً، وبدا وكأنه يفكر في أمرٍ وهو ينقر بقلمٍ ملوّنٍ في يده على كتابٍ فرنسيٍّ كبيرٍ مفتوحٍ أمامه، وأنا صامت، واستمر الصمت لحظات، ثم انطلق فجأةً يقول :

" أن تكره عبد الحميد فلا بأس عليك! ولكن إياك أن تسيء إلى ذكراه... دعني أيّها الولد أوجز لك قناعاتي الشخصية :

لقد أثبتت تجارب الأيام أن إدارة عبد الحميد لدولة عظمى، تعيش على أرضها شعوب كثيرة مجهولة المصير، وحدودها مطوّقة بالأعداء؛ كانت إدارةً تتمتع بالتسامح الأعظم، خصوصاً عندما تكون في أواخر القرن التاسع عشر

."

ثم أذن لي بالخروج [324] .

سطوره الأخيرة

ليس لي رجاء أعظم من أملي أنني سأقابل ربّي عندما أموت؛ بوجهٍ نقيٍّ .
السلطان عبد الحميد الثاني

قديماً كانت المراثي- ما يُرثى به الميت من شعرٍ أو نحو ذلك- تكتب عقب الهزائم في الحروب، وهذه المَرثاة كتبت في سيواس خلال الحرب العالمية الأولى، فكانت كمرآةٍ تعكس مشاعر الناس وتترجمها:
بلّغوا سلامنا للسلطان رشاد
لم تبقَ سوى الأسرة المخضّبة بالحنّاء
فمن للعساكر غير السلطان عبد الحميد؛ حتى يحقن الدّماء .
ولكن !
تمّ عزله، فانظر كيف جرت الأقدار وتقلبات الزّمان .

فمن للعساكر يحقن دماءهم سوى السلطان عبد الحميد ؟! إنها صورة عبد الحميد في ذاكرة التاريخ، تعكسها تلك الكلمات في زمنٍ يرشح موتاً، وينشر أشلاءً وأسرّةً تغرق في الدماء، وأرامل، وأطفالاً، وشيوخاً، وجوعاً، وفقراً، وعجزاً... نعم، إنه السلطان عبد الحميد يقترن ذكره بالحياة وليس الموت، والبيت نموذج صغير لذلك؛ كما تقول براءة دميرجي. ولئن كانت ذاكرة المثقفين عانت سكتةً وصمتاً؛ فإن فراسة الناس أدركت هذه العلامة الفارقة بين السلطان عبد الحميد وبين من جاء بعده من الحكّام: فبخلاف الحربين اللتين دفع إليهما عبد الحميد (حرب 93، وحرب تساليا 313)؛ آتت ثمرة جهوده الخارقة أُكُلها في قيادة السفينة إلى برّ الأمان بعيداً عن المواجهات الساخنة.

لقد استطاع في زمن السلم الطويل في عهده أن يعيد للأمة صورة الأبوّة التي افتقدت إليها بسبب الخسائر الفادحة في الحروب، وأن يحفظ تواصل الأجيال واستمرارها، وأوجد الصيغة السحرية التي أمّنت عودة الجنود إلى أهاليهم أحياء قبل أن يتم استهلاكهم في الحروب. ربما كانت فترة ذهبية طويلة حقنت فيها دماء الجيل الجديد، ولم يتركوا نهباً للحروب. ولم يكتفِ بذلك، بل أطلق إشارة البدء في انطلاقة جدّية نحو تربية وتعليم هذه الثروة الإنسانية التي أنقذها من براثن الموت.

لقد عمل على تحضير البنية التحتية لدولة عثمانية مدنية ابتداءً من المدارس وتشكيلات الشرطة إلى دار العجزة، ومن دار الفنون- أي العلوم-

في قونية إلى تشكيلات الإطفائية، وسخّر جهوده كلها لتحضير هذه الدولة لسنوات الحساب القادمة بين الدول، بل للانقلاب الدستوري الذي سينقلب على رأسها.

فهو الذي بنى جسر كركوك، وأنشأ صنبور الماء في قرية أق صو في بورصة، وأمر ببناء شبكة المياه التي روت بيوتات إستنبول، كما أمر بتركيب الساق الصناعية للشاب الأرمني أونّك، وعمل كل شيء ليحول دون ارتفاع أسعار الخبز ألا وهو الغذاء الأساسيّ للشعب، وأرسل طبيبه الخاص إلى زوجة موظفٍ في بريد لالة لي لتأمين ولادتها بشكل صحي. وعلى الرغم من مرور تسع سنوات على إنزاله من العرش؛ فإن نحيب النساء الباكيات من النوافذ: "كيف تتركنا وتذهب؟" كان خير دليلٍ على أن الشعب لم يستطع أن ينساه.

من أجل هذا كلّه؛ كان لا بد له من أن يخرج في رقصٍ طويلٍ متعبٍ مع ذئاب ذلك العصر، وينال قصب السّبق في هذا الرقص الذي لا يعرف الخضوع لأيّ قواعد. وكان لا بد له من حملات صعبة جبرية، وإرسال رسائل "نحن هنا"! إلى العالم، "نحن هنا" في أفريقيا والصين وخليج البصرة كما في الأناضول، ونحن جاهزون للصراع مع الذئاب في بلاد الأرناؤوط... هذه الرسائل جسّدتها تطبيقات واسعة الطّيف...

ثم بهدوئه وسيطرته على أعصابه؛ إلى الحد الذي يملأ ثيودور روزفلت رئيس الولايات المتحدة الأميركية غيظاً، وبمناوراته التي جعلت التهديدات الغضبى التي يطلقها عدوّ الأتراك رئيس الوزراء الإنكليزي جلادستون؛ تذهب هباءً أدراج الرياح، وبدهائه الدبلوماسي الذي نال تقدير واحترام رئيس وزراء الألمان بسمارك، وبحسن تخلّصه من الفخاخ الإنكليزية التي نصبت للدولة العثمانية؛ من خلال التفاهم وتحسين العلاقات مع الروس، وبانهماكه خلال ذلك في التّعبئة العسكريّة وإعادة التسليح والإعداد لحرب مستقبليه مؤجّلة لا مفرّ منها، وبنصبه مدافع كروبّ في خليج چ ناق قلعة... نعم، استطاع بكلّ ذلك أن يرسي الدّعائم الأساسيّة التي قاومنا بها القوى الإمبريالية عام 1915!...

ومن الخطأ أن نتجاوز اسم عبد الحميد عند الحديث عن حرب چ ناق قلعة، لماذا؟ لأن الجيل الذي خاض المعارك تخرّج من المدارس التي بناها وتعلم النضال فيها؛ ولأنّه استعمل الأسلحة التي وفّرها له، أضف إلى ذلك دعمه المعنوي وأدعيته في أثناء معركة چ ناق قلعة وهو يقرأ صحيح البخاري، والدعاء المتواصل في إقامته الجبرية في قصر بيلربيي... فكان في

المقدمة بتنظيم المقاومة، وفي الوسط داعماً بالسلاح والمدافع، وفي الخلف بالابتهال إلى الله والدعاء.

نعم، كان ما قام به عبد الحميد چ ناق قلعة حقيقية، ويمكن اعتبار مقاومته التي انتشرت زمناً أطول من حكمه چ ناق قلعةً صامتةً. غير أن ما يميز أعماله شيء واحد: هو أنه كان يسطّر أسطورة چ ناق قلعة وهو يحقن الدماء، فلم يكن الموت همّه بل الحياة، فكان يسعى لإطلاق الأغاني المفعمة بالحياة على امتداد أراضي دولته ولو كانت فقيرةً، وكان يرجو أن يعزف الرعاة في الأرناؤوط مع الرعاة في اليمن على الناي بكل أمانٍ كرعايا دولةٍ واحدةٍ؛ بدلاً من المراثي التي تنعى الشهداء، وأن يتخرج الشباب في أبو ظبي من مدرسة العشيرة التي كانت تقوم مكان ثانوية قباتاش جنوداً شرفاء تحت السنجق العثماني بدلاً من أن يكونوا خدماً لطبقة النبلاء الإنكليز. ويأسف المرء إذ يرى أن القليلين هم الذين يدركون الحكمة من عدم إرساله "الحلقة المولوية" إلى معرض شيكاغو، فقد كان يشعر بأنه يحمل مسؤولية إنقاذ العزة الإسلامية والشعائر الإسلامية التي يحاولون إنزالها إلى مستوى الاستعراضات الفولوكلورية.

لأنه كان خليفةً، آخر خليفةٍ، آخرَ سلطانٍ، آخرَ إمبراطور، آخرَ مقاومٍ عظيمٍ... وآخرَ حارسٍ كبيرٍ حمل السلاح بيديه، ووضع إصبعه على الزناد، من دون أن يضغط عليه.

لأنه كان آخرَ حارسٍ لآخر قلعةٍ في آخر جزيرةٍ...

ترى متى نفهم چ ناق قلعة التي كنت بحقٍّ تمثّلها؟! ونفهمك حقّ الفهم؟! وندرك العبء الكبير الذي كنت تحمله، والجهد الكبير الذي كنت تبذله في نصح الأمة الإسلامية كلها، ونتحرر من أعباء العقوق الكبير الذي قام به أبناؤك؟

وليكن ما قلته ذات مرّةٍ ختاماً لهذا السّفر المتواضع:

نحن كنهرٍ فاض عن مجراه... ولسنا أبداً أمّةً في نزعها الأخير. نحن أمة حيّة قويّة، والقوّة الفريدة القادرة على الحفاظ علينا أقوياء: هي الإسلام .

تمت ترجمة هذا العمل بعونه تعالى في

25 ربيع الثاني 1432 الموافق 30 آذار 2011

انتهى

---

[1] البقرة: الآية 251.

* الثغر: الموضع الفاصل بين بلاد المسلمين والكفّار، وهو موضع المخافة من أطراف البلاد؛ لسان العرب.

[2] فقد كانت القبعة وقتها رمزاً إلى أهل الكفر، كما كان الطربوش والعمامة من رموز أهل الإسلام. المترجم.

[3] من خلال الهدنة وتأجيل الصراع العسكري الذي يصفه المؤلف في ثنايا الكتاب بوضع اليد على الزناد من دون إطلاق النار. م.

* طغراء: علامة كانت تُرسم على المناشير والمسكوكات السلطانية، والعامّة تسمّيها الطرّة.

[4] منشأ هذا الكلام أن السلطان عبد الحميد كان يعتمد على جهاز معلوماتي قوي، وسيلُ المعلومات يعتريه الكثير من المتناقضات، فيضطر إلى التعامل معها جميعاً بما يتطلبه الحذر. فيبدو وكأنه يتعامل مع الأوهام. م.

[5] أي: السلطنة التي تجمع الأمة. وهو تعبير مجازي من باب اللزوم. فالموقد يمثل العائلة، والقبيلة، والعرق الواحد، والشعب. والبرونزي دلالة على المتانة والقوة. م.

[6] فقد كان السلطان عبد الحميد رحمه الله يعمل طيلة سنوات حكمه على كسب الوقت، وتجنيب الدولة العثمانية من مزالق الحرب من خلال المناورات السياسية؛ من أجل النهوض بأمته وهي في نزعها الأخير. م.

[7] في قصر بيلربي في إستنبول حيث بقي فيه تحت الإقامة الجبرية بعد اندلاع حرب البلقان حتى وفاته في 10 شباط 1918. وكان قبل ذلك محتجزاً في المنفى في قصر يهودي سمي باسمه؛ قصر آلاتيني في سالانيك. م.

[8] فقد كان رحمه الله محللاً بارعاً يربط بين الأحداث المتباينة، ويدرك الأهداف التي تختفي وراءها.

[9] إذ لم يكن هناك من يخلفه في حمل الأمانة. م.

[10] يقابل عام 1878م. م.

[11] دار السعادة: الاسم الذي كان يطلق على إستنبول في ذلك العصر. ويكتب: دار سعادت. م.

[12] العثمانية باعتبارها تمثل الملة الإسلامية والجامعة الإسلامية، فالعثماني

لا يعرف في حياته سوى الانتماء إلى الإسلام والعمل على خدمته. م.

[13] في 13 شباط عام 1878م عطل السلطان عبد الحميد مجلس المبعوثان، والذي كان يمثل المجلس البرلماني العثماني، وعلق الدستور وتولى شخصياً إدارة البلاد، ورفض التصديق على معاهدة أياستفانوس التي تسبب بها الصدر الأعظم ومجلس الوزراء والبرلمان؛ إذ حملوا السلطان على دخول الحرب مع روسيا. واستطاع السلطان بدبلوماسية دولية من تخفيف شروط المعاهدة، وكان من آثار ذلك تأجير قبرص للإنكليز لاستخدامها قاعدة لها. ولم يتم التوقيع على معاهدة الصلح مع روسيا حتى مؤتمر برلين. انظر: السلطان عبد الحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار. الدكتور محمد حرب، دار القلم، ص 39-40. م.

[14] Zürcher Jan Erik ، تاريخ التمدن التركي، ترجمة: Saner Yasmin Gönen ، ط 11، إستنبول 2001، إصدارات İletişim، ص: 122. وانظر أيضاً: Koloğlu Orhan ، عبد الحميد بين فكي الكماشة الأوروبية، ط 2، إستنبول 2005، إصدارات İletişim، ص 11.

[15] نجيب فاضل kısakürek مفكر إسلامي وأديب وشاعر تركي مشهور (1905-1983). م.

[16] أي: الملك. م.

[17] İdeolocya Örgüsü . م.

[18] باعتبار قرب عهده وشواهده الحية وآثاره وتأثيراته. م.

[19] أحمد حمد طنبنار، Beş Şehir ، ط 2، أنقرة، 1960، Türkiye İş Bankası Kültür Yayınları ، ص 10 وما بعدها.

[20] يلماز أوزتونا، (Sultan Hamid, Atsız ve Kapaklı)، ندوات التاريخ 3، إستنبول، 1988 إصدارات Ötüken ، ص 304.

[21] قام بعض الجنود بقتل بعض ضباطهم الشبان بحجة أنهم يقومون بتصرفات منافيةٍ للإسلام، ونادى الجنود بإعادة العمل بالشريعة الإسلامية وإبعاد ضباط الاتحاد والترقي عن الحكم، فاعتبر الاتحاديون ذلك تدبيراً من السلطان، فأرسلوا قواتهم من سلانيك لإسقاط السلطان. السلطان عبد الحميد، محمد حرب. م.

[22] انظر على سبيل المثال: سبعة أيام؛ Yedi gün ، 20 تشرين الثاني 1935، ص 29 وما بعدها.

[23] فقد كانت المشروطية ضد الحكم المطلق، لكنها سرعان ما تحولت إلى استبداد من نوع جديد. م.

[24] غياب فلسفة الحكم، والكفاءات، والاستعدادات. م.

[25] فتحي أوقيار، رجل في ثلاثة عصور؛ Üç Devir Bir adam ، ص 32 و146.

[26] يلماز أوزتونا، العدلية في عهد السلطان عبد الحميد، ندوات التاريخ، إستنبول 1998، إصدارات Ötüken ، ص 237.

[27] عثمان نوري لرمي أوغلو، الانقلاب الذي لم يرغب فيه الشعب: المشروطية، إستنبول، 1976، جريدة صباح، إصدارات الثقافة، ص 9-50.

[28] انظر: فرنسوا جورجيون، الصحوة الأخيرة: 1878-1908، مدير النشر: روبرت مانتران، تاريخ الإمبراطورية العثمانية، المجلد الثاني، من القرن التاسع عشر حتى السقوط. ترجمة: Tanilli Server ، إستنبول 1995، دار جم، ص 152.

[29] نظام الدين نظيف tepedelenlioğlu، السلطان عبد الحميد الثاني والجمعيات في الإمبراطورية العثمانية، ط 3، إستنبول 1978، (الطبعة الأولى 1964)، إصدارات ديوان، ص 71.

[30] Volkan Ş. Ediger ، النفط والبترول في الدولة العثمانية، أنقرة 2005، ODTÜ للنشر، ص 117.

[31] انظر: عثمان نوري Lermioğlu ، الانقلاب الذي لم يرغب فيه الشعب: المشروطية، ص 68، هامش 21.

[32] في حوار مع كمال قرباط قبل 12 عاماً. انظر: الأستاذ الدكتور كمال قرباط والتاريخ: حول العثمانية والسلطان عبد الحميد الثاني...، İlim ve Sanat ، عدد: 44-45، 1997 (II-I)، ص 38.

[33] هذا التعبير مقتبس من كتاب (Well-Protected Domains) بذل فيه مؤلفه Selim Deringil جهوداً كبيرةً، يمكن العودة إلى ترجمته التركية؛ وفيها للأسف بعض الضعف مقارنة بالأصل الإنكليزي: رموز السلطة والإيديولوجيا: عهد عبد الحميد الثاني. المترجمة: Gül Çağalı Güven إستنبول 2002، إصدارات Yapı Kredi .

[34] فرنسوا جورجيون، عبد الحميد الثاني 1876-1909 رئيس التحرير: Kemal Çiçek ، pax Ottomana: Studiez in Memoriam Prof. Dr. Nejat Göyünç ، أنقرة 2001، إصدارات SOTA & Yeni Türkiye ، ص 406-424. هذا النص الفرنسي بترجمته الجزئية وهوامشه التركية؛ في المجلد الثاني من العثمانيين في موسوعة المعارف (أنسكلوبيديا) التي أصدرتها دار يني تركيا، أنقرة عام 1999، ص 266-274. أما ترجمة كتابه فقد طبعت من

قبل دار Homer ، 200 6 .
[35] Çiçek ، المصدر السابق، ص 424، يقابل العثمانية المجلد الثاني، ص 273.
[36] ربما اختلط هذا اللفظ بالاصطلاح الإسلامي السائد، والذي يدور حول: إحياء ما اندثر من تعاليم الإسلام بين الناس، وإعادة ربط المفاهيم والأفكار بالكتاب والسنة، واكتشاف حلول المستجدات من شؤون الحياة فيهما. غير أن المقصود من التجديد هنا، وفي كل موضع من الكتاب هو العصرنة، علماً بأنها عصرنة خاصة بلون الحضارة الإسلامية؛ كما سيبينها الكاتب. م.
[37] انظر مثلاً، برنارد لويس: " The Emergence of Modern Turkey, Oxford Paperback, 1968, page 178 "، (لقد كان مجدداً متلهفاً فعالاً).
[38] أتسيز؛ مسائل في التاريخ التركي، ط 4، إستنبول 1997، دار عرفان، ص 85. ومقالة أتسيز في دفاعه عن عبد الحميد رداً عن بيامي صفا: عبد الحميد خان (السلطان الأزرق)، نشرت في مجلة أوجاق Ocak ، أيار 1956، إضافة إلى مقالة أخرى هي الأهم في نظري في إطار دفاعه عن عبد الحميد؛ وقد خصص لها خمس صفحات؛ بعنوان السلاطين العثمانيين في مجلة (Tanrıdağ) العدد 10-17 تموز 1942، ص 10-11. انظر: مسائل في التاريخ التركي Türk Tarihinde Meseleler ، ص 99-104.
[39] سميح ممتاز، في الزمان الأول، إستنبول 1946، دار تركيا. والحقائق التي تحولت إلى خيال في تاريخنا؛ إستنبول 1948. مكتبة حلمي. والجزء الثاني من الانقلاب الجذري (İnkilab Üss-i) لأحمد مدحت أفندي (من جزءين) وهو من أهم النصوص التي تدافع عن عبد الحميد في حياته.
[40] فهل كان ذلك بسبب شكوكه في من يحيط به من الرجال، أم بسبب حرصه على إظهار صورة الخلافة الإسلامية كدولة للمسلمين وغير المسلمين، وحرصه على سياسة التوازنات الداخلية؟! م.
[41] والترحم عليها. م.
[42] تعود إليه الأسواق المغطاة وتسمى باسمه، كسوق الحميدية في دمشق. م.
[43] Selim Deringil، İktidarın Sembolleri ve İdeoloji: II. Abdülhamid Dönemi (1876-1909)، رموز السلطة والإيديولوجيا: عهد عبد الحميد الثاني، ترجمة Gül Çağalı Güven ، إستنبول 2002، ص 162.
[44] انظر: Vahdettin Engin ، السلطان عبد الحميد وإستنبول، إستنبول

2001، دار Simurg ، ص 16.

[45] Akarlı Engin ، السلطان عبد الحميد الثاني: حياته وحكمه، العثمانية، المجلد الثاني، أنقرة، 1999، إصدارات يني تركيا، ص 254.

[46] ينبغي ألاّ نستخف بمنح السلطان عبد الحميد ربع ليرة ذهبية للأطفال الذين تم ختانهم عام جلوسه على العرش، والذي يصادف في 19 آب وقد جرت العادة أن تجري الاحتفالات بسنة الختان في نهايات آب؛ انظر: برهان فلك، البلدة الحالمة: أسكودار، إستنبول 1988، دار فلك، ص 121.

[47] Kazancigil Aykut ، العلوم والتكنولوجيا عند العثمانيين، ط 2، إستنبول 2000، سلسلة الأفق، ص 286-287. وانظر أيضاً: أيدن تالاي، السلطان عبد الحميد: خدماته وآثاره، إستنبول 1991، إصدارات الرسالة، ص 267-268. A. Süheyl Ünver Bibliyografyası, İstanbul 1998, İşaret Yayınları, s. 166 .. المُعِدّون: Gülbün Mesara, Aykut Kazancıgil, Ahmet Güner Sayar .

[48] سعيد نعوم دخاني، " Beyoğlu Pera iken: 5- Diğer simaler "، مجموعة الحياة التاريخية، عدد: 7، آب 1968، ص 35-36. كما يذكر دخاني إرسال باستور مساعده الذي يثق به ويعتمد عليه الدكتور م. نيكول إلى إستنبول ليعمل أعواماً طويلةً كموظف في المشافي العثمانية في إستنبول.

[49] Mesara, Sayar, Kazancigil المصدر السابق ص 269 نقلاً عن Süheyl Ünver ، بطاقات تعريف ورسالتان من لويس باستور في إستنبول، İÜ Tıp Fakültesi Macmuası ، العدد 2؛ 1964، ص 99-104.

[50] Mesara, Sayar, Kazancigil ، المصدر السابق، ص 185. نقلاً عن سهيل أنور، الدكتور حسين خلوقي في ألمانيا، Dirim ، عدد: 3، (1950)، ص 105-107.

[51] الكتب العلمية التي تنشر العلوم بين عامة الناس. م.

[52] Mesara, Sayar, Kazancigil ، المصدر السابق، ص 261. نقلاً عن سهيل أنور الأضرحة التي يشكّل كل واحد منها متحفاً في عهد المعلم ناجي؛ في بورصة. Türk Yurdu ، عدد: 289، (1960)، ص 45-46.

[53] زينب كَرمان، فيكتور هوغو في تركيا: فيكتور هوغو في الأدبيات التركية ما بين عامي 1862-1980. إعداد: تورغول إنال، فيكتور هوغو في تركيا بمناسبة الذكرى المئوية لوفاته، إصدارات جمعية الثقافة التركية الفرنسية، ص 279-280، 286، 287، 292.

[54] ينبغي ألاّ يتوهم القارئ هنا، أن أمر السلطان هذا يندرج في سياسة التتريك التي طبقها الاتحاديون بل يندرج في صراعه مع الحضارة الأوروبية، فالمراكز الثقافية الأوروبية اليوم تنقل ثقافتها والحضارة التي تحملها من خلال دوراتها اللغوية. وهذا ما نستطيع إدراكه من مجمل مواقفه وشخصيته. م.

[55] أي: الأمر السلطاني الخاص، أو المرسوم الخاص. م.

[56] وحيد الدين أنكين، المرجع السابق، ص 125-127. لاحظ أن القضية هنا هي قضية الحروف المستعملة.

[57] نيرمين پكين، السلطان عبد الحميد الثاني وتبسيط اللغة التركية، المترجم: نائل أوچار نقلاً عن 3 آذار/مارت حسب التقويم العثماني 1980، السلطان عبد الحميد الثاني في خواطر. Edebiyatı Türk ، عدد: 150، نيسان 1986، ص 23. وانظر: نهال سامي بانارلي، التركية عند عبد الحميد، مجموعة الحياة التاريخية، كانون الأول 1967، ص 5-9.

[58] هذه المعلومات التي يقدمها لنا عبد القادر أوزجان نجدها في المنتخبات التي أعدها محمد توسون بعنوان نظرة إلى السلطان عبد الحميد الثاني في القرن الحادي والعشرين، إستنبول 2003، ص 14.

[59] مذكرات غالب باشا: 4، مجموعة الحياة التاريخية، عدد: 9، تشرين الأول 1966، ص 82.

[60] انتبهوا جيداً، إنها ليست سفر برلك كاملة؛ لأن قيادة أركان الجيش العثماني لم تكن ترى الجيش اليوناني نداً لها.

[61] من أقوال الهانم فاطمة پسند.

[62] عصمت بوزداغ، عبد الحميد الثاني من نافذة بيت الحريم، ط 2، إستنبول 1995، إصدارات أَمرَه، ص 65-66. هذه المذكرات يحيط الشك بسلامتها، ومن المفيد الاستئناس بها إلى جانب الأدلة الأخرى، بناءً عليه يذكر الدكتور نيكولاس سين من شيكاغو زار إستنبول عام 1902، وتجول في مؤسساتها الصحية، وألف كتاباً عن المرضى فيها؛ يذكر في كتابه الأكواخ في حديقة قصر يلدز، والتي كان يتداوى فيها الجنود الذين أصيبوا في حرب 1897 مع اليونان. أي إنه كانت قد مضت على الحرب خمسة أعوام، وكان لا يزال في حديقة القصر 200 مصابٍ يتلقّون العلاج. انظر: حسن فوزي Batırel ، "ينبغي أن يُغطّي وجوههم الخجل"، التاريخ والمدنية، العدد: 41، آب 1997، ص 39.

[63] مذكرات غالب باشا: 4، مجموعة الحياة التاريخية، عدد: 9، تشرين

الأول 1966، ص 83.

[64] سفينة عثمانية كانت تزور اليابان غرقت في طريق عودتها، كما سنرى في ما بعد. م.

[65] ميم كمال Öke ، جاسوس في السراي: عهد عبد الحميد والجاسوس الإنكليزي اليهودي ويمبري في وثائق سرية، ط 2، إستنبول 1998، إصدارات العرفان.

[66] م. متين Hülagü السلطان عبد الحميد الثاني، أيام المنفى: مذكرات طبيبه الخاص عاطف حسين بيك، إستنبول 2003، إصدارات Pan ، ص 224.

[67] من أقوال ضياء شاكر، أيام السلطان عبد الحميد الأخيرة، إستنبول، 1943، مستودع أناضول للكتب التركية، المعلم فؤاد Gücüyener ، ص 261، "فكان في حالته تلك، كرجل يكاد لا يبلغ المنزل حتى يتمدّد بلباسه ملتمساً بعض الراحة من التعب". وانظر أيضاً: Hülagü ، المصدر السابق، ص 345، وفيه يذكر عاطف بيك أنهم اضطروا عند نزع ثيابه إلى قصها. وذلك ما حدث أيضاً مع السلطان محمد الفاتح بعد وفاته في Gebze ولا يزال لباسه مقطع الكمّين في معرض Topkapı .

[68] ولنذكر هنا أن خياطه الرسمي الذي يخيط له هذه الأقمشة الهولندي جين بوتر من أشهر الخياطين الأوروبيين. انظر: عفيفة باتور، مبنى بوتر أنسيكلوبيديا إستنبول بين البارحة واليوم، المجلد الثاني، إستنبول، 1993، ص 312-314.

[69] ينبغي لنا أن نأخذ في الاعتبار نسبية هذا المفهوم، وإلا وقعنا في التناقض. م.

[70] م. متين Hülagü السلطان عبد الحميد الثاني، أيام المنفى: مذكرات طبيبه الخاص عاطف حسين بيك، إستنبول 2003، إصدارات Pan ، ص 224.

[71] برهان فلك، البلدة الحالمة: أسكدار، ط 3، إستنبول 1988، دار فلك، ص 119-127.

[72] نشرت ترجمتها التركية دار İletişim بعنوان: الدولة الاجتماعية في الإمبراطورية العثمانية: السياسة والسلطة والمشروطية (1876-1914)، 2002.

[73] انظر: المجلة الاجتماعية التاريخية التي تصدرها قرة قشلة (ثكنة) ياووز سليم، آب 2003، عدد 116.

[74] تحسين باشا، مذكرات تحسين باشا في قصر يلدز: السلطان عبد الحميد، إستنبول 1999، دار Boğaziçi ، ص 396.

[75] عائشة عثمان أوغلو، والدي السلطان عبد الحميد (مذكراتي)، ط 3،

أنقرة 1986، دار سلجوق، ص 24-25. وبتعبير آخر: "الدين والعلم لا يتعارضان". م.

[76] خلوق شخصور أوغلو، دائرة السلطان عبد الحميد الخصوصية في يلدز، ونمط عيشه هناك، المجموعة التاريخية المصورة، عدد: 22، تشرين الأول 1951، ص 1008-1009.

* المابين: غرفة تفصل بين الحرملك (بيت الحريم) والسلاملك (يقابل بيت الحريم لاستقبال الضيوف الذكور) يقوم فيه آغا المابين.

[77] الابن الثاني للسلطان محمد الفاتح بعد السلطان بيازيد، كان أديباً شاعراً وخطاطاً. م.

[78] انظر: ترجمة صحيح البخاري وشرحه إلى الإنكليزية، محمد أسد: سنوات الإسلام الأولى، المترجم عن الإنكليزية: مصطفى أرمغان، إستنبول 2001، دار إشارت، وقد اعتمد محمد أسد في المتن على نسخة عبد الحميد. وفي كتابه نظرات الإسلاميين السياسية تحقيق لمؤلفه إسماعيل قرة حول اتهام السلطان عبد الحميد بعدائه للكتاب. (إستنبول 1994، دار İz ، ص 140 وما بعدها).

[79] وعليه نجد في أحد المنشورات الصادرة حديثاً (Demirel Fatmagül ve Çavaş Raşit ، "لائحة بأسماء الكتب التي أمر بإحراقها السلطان عبد الحميد الثاني في ضوء الوثائق المكتشفة حديثاً"، متفرقة، عدد: 28، فصل الشتاء، 2-2005، ص 13)؛ نجد 45 مصحفاً لا يحمل ختم نظارة المعارف، تماماً كما يحصل الآن عندما يعثر على المصاحف المطبوعة بغير إذن من هيئة المصحف الشريف التابعة لرئاسة الشؤون الدينية اليوم.

[80] انظر: قرة قشلة (ثكنة) ياووز سليم، منع طباعة آيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة في الصحف، التاريخ الاجتماعي، عدد: 86، شباط 2001، ص 38-40. وانظر أيضاً: قول أوغلو، عبد الحميد بين فكي الكماشة الأوروبية، ص 139.

[81] Kandemir ، فبوس يتحدث: كيف صورت عبد الحميد؟ أيدبير، عدد: 7، آذار/مارت حسب التقويم العثماني 1936، ص 53-55.

[82] كورل سارة، هدية السلطان عبد الحميد إلى مكتبة الكونغرس في الولايات المتحدة الأميركية، مجموعة الحياة التاريخية، عدد: 5، حزيران 1970، ص 32-34.

[83] عند النظر إلى ضخامة مختارات عبد الحميد في مكتبته. م.

[84] السيّدة ماكس موللر، رسائل من إستنبول، المترجمة: عفيفة بوغرا،

إستنبول 1978، الكتب الأساسية المترجمة 1001، ص 51-52.

[85] ضياء أركينز، شغف عبد الحميد بالكتب، تاريخ دنياسي، عدد: 32، 26 آب 1952، ص 1278.

[86] السيدة ماكس موللر، رسائل من إستنبول، المترجمة: عفيفة بوغرا، إستنبول 1978، الكتب الأساسيّة المترجمة 1001، ص 51-52.

[87] "صانعو الفخار"، أيدبير، عدد: 10، 1 حزيران 1936، ص 62-63.

[88] سلجوق غوناي، نماذج من السياسات العثمانية الجنوب والجنوب شرق آسيا في عهد عبد الحميد الثاني، جامعة أتاتورك، مجلة أبحاث كلية الآداب والعلوم، عدد: 18، 1990، ص 133-145.

[89] خديجة أوغور، سلطنة في أفريقيا العثمانية: زنجبار، إستنبول 2005، دار كرة.

[90] الكتاب الذي أعده محمد تَمَل وإن كان يعتبر البداية؛ فإنه يقدم أفكاراً جيدة عن العلاقات الدبلوماسية المباشرة وغير المباشرة مع دول أميركا اللاتينية. انظر: العلاقات العثمانية الأميركية اللاتينية في القرن التاسع عشر والعشرين، إستنبول، إستنبول 2004، دار النهر.

[91] صيفي صاي، "د. هدايت نوح أوغلو حول المكتبات؛ من توثيق وأرشفة وتنظيم وغيرها؛ وتحدياتها في تركيا" العلم والفن، عدد: 28، شباط 1991، ص 33. وحول أوضاع المكتبات في عهد عبد الحميد وتطورها بالوثائق؛ انظر: أتيللا چتين، بعض الوثائق المنشورة حول المكتبات في عهد عبد الحميد الثاني، جامعة أنقرة، مجلة أبحاث الآداب والعلوم، عدد: 13، 1985، ص 277-283.

[92] رشدي شارداغ، الملحن الذي صاهر القصر ثلاث مرات، Yıllarboyu Tarih ، عدد: 7، تشرين الأول 1978، ص 56-67.

[93] السلطان عبد الحميد، مذكراتي السياسية، ط 9، إستنبول 1999، Dergah Yayınları ، ص 157.

[94] وَدات كوسال، الموسيقى الكلاسيكية الغربية في الإمبراطورية العثمانية، العثمانية، المجلد 10، إستنبول 1999، إصدارات يني تركيا، ص 645.

[95] ضياء شاكر، موسيقى حريم القصر وباندو الحريم، مجموعة التاريخ المصورة، عدد: 48، كانون الأول 1953، ص 2761.

[96] عائشة عثمان أوغلو، والدي السلطان عبد الحميد (مذكراتي)، أنقرة 1986، دار سلچوق، 28-29.

[97] شادية عثمان أوغلو، حياة الحريم في عهد السلطان عبد الحميد

الثاني، الحياة، عدد: 1-10، 1963.

[98] على سبيل المثال: باندو البنات في القصر العثماني، Yıllarboyu Tarih ، العدد: 2، شباط 1985، ومنذ النظرة الأولى يتضح أن هذه المقالة منقولة إلى حدٍّ كبير من كتاب ضياء شاكر. وتشكل مذكرات ليلى ساز هانم عن حياة الحريم المصدر الأساسي في موضوع باندو البنات. انظر: ليلى ساز، الوجه الداخلي للحريم، إستنبول 1974، دار مليّت.

[99] متين أند، النجمات النسائية اللواتي زرن إستنبول، سكاي لايف، شباط 2006، ص 78-86.

[100] رضا شاكر، مسرح يلدز، مجموعة التاريخ المصورة، عدد: 51، آذار/مارت حسب التقويم العثماني 1954، ص 2972-2974.

[101] سرمنت مختار ألوس، الأوبرا والأوبريت في قصر يلدز، الخزينة التاريخية، عدد: 15، نيسان 1952، ص 785-787.

[102] انظر: الدم النقي لا يخدع أبداً، Tarih Yıllarboyu ، عدد: 8، آب 1979، ص 69.

[103] هامش 1/99 يعيد بعض الباحثين المسألة الشرقية إلى معاهدة Küçük Kaynarca التي تم التوقيع عليها مع روسيا بعد هزيمة الدولة العثمانية معها عام 1774 عقب حرب السنوات الست الطوال معها، وانتهائها بمعاهدة لوزان عام 1923. انظر على سبيل المثال: Matthew Anderson Smith المسألة الشرقية (1774-1923): بحث في العلاقات الدولية، المترجم: Idil Eser ، إستنبول 2001 Yapı Kredi Yayınları ، ص 11. (ولا يمكن بالتأكيد الاتفاق مع الكاتب في أحكامه المتحيزة التي تصدر منه بين الحين والآخر).

[104] غياث الدين كوكَّنت، سياسة السلطان عبد الحميد، مجموعة الحياة التاريخية، عدد: 2، آذار/مارت حسب التقويم العثماني 1970، ص 19.

[105] ربما يستحسن أن نطلق عليها منعطفات التاريخ. م.

[106] إن عدم اكتفاء إسماعيل صفا ورفاقه بالمساندة القولية في دعمهم للإنكليز، واستعدادهم للتطوع في القتال إلى جانبهم؛ مأخوذ من كتابات رفعت مؤيد التي أخرجها إلى النور علي شكري چوروك في مجلة الأدبيات التركية بتاريخ كانون الأول 2005، عدد: 386. وما ذكرناه من رسالة الموت في ترنسڤال من أجل المشروطية، ص 12-16، من دون اسم، والتي تنتقد بيامي صفا.

[107] يكثر في تاريخنا القريب أمثال هذا الموقف، إذ يطلب منا في كتب

التاريخ التي دوّنتها أيدٍ غريبة، بعيون غربية، أن ننظر إلى التجسس والاتصال بالعدو والتآمر على الدولة والأمة، وإلى سائر الأعمال التي ترقى كل واحدة منها إلى درجة الخيانة العظمى؛ على أنها بطولات في طريق الحرية أو النهوض بالأمة، وأن ننظر إلى قتلاها ممن حوكموا وأعدموا على أنهم شهداء... فهل ثورة غضب بيامي صفا- أياً كان توجهه- سوى ثورة غضب الإنكليز وحقدهم على عبد الحميد باعتباره رمزاً لأمتنا الإسلامية؟! م.

[108] هذا هو الاختلاف الأساسي بين السلطان عبد الحميد ومعارضيه الاتحاديين، فالسلطان يتحرك انطلاقاً من مفهوم الأمة الإسلامية، ويثق بها، ويحاول إحياء رابطتها الإسلامية، في حين يغلب على الاتحاديين المفهوم العرقي والقومي، الداء الذي تسلل إلى عقول ذلك الجيل في عصر صعود القوميات في أوروبا، وقد عشيت أبصارهم ببريق المدنية الغربية، فكانوا دائماً على شكٍّ وريبةٍ وعدم ثقة بأبناء المسلمين من العرقيات غير التركية. م.

[109] ليس المقصود من الجامعة الإسلامية هنا، فكرة جامعة الدول الإسلامية القائمة اليوم، فجامعة الدول الإسلامية كانت عملاً سياسياً بريطانياً لتكريس التجزئة بين الدول الإسلامية، والحيلولة دون وحدتها، إلى جانب أهدافها الأخرى التي تتعلق ببسط نفوذها في العالم. والجامعة الإسلامية التي سعى إليها عبد الحميد كانت في سبيل الوحدة الإسلامية والدفاع عن بيضة المسلمين وحمايتها من تكالب الدول الاستعمارية عليها. م.

[110] خديجة أويغور، زنجبار، ص 61-68.

[111] الأرشيف العثماني في رئاسة الوزراء BOA ، أوراق يلدز الأساسية YEE ، عزمي أوزجان، نقلاً عن 9-2638-72: " The Chaliphal policy of Sultan Abdülhamid II and Egypt " وثيقة مقدمة إلى مؤتمر في الرباط في نيسان 2002.

[112] يلماز أوزتونا، تاريخ تركيا الكبير، المجلد السابع، إستنبول 1978، دار Ötüken ، ص 196.

[113] أوزتونا، المصدر السابق، ص 205-208.

[114] الموصل وكركوك من أملاك السلطان، تركيا، 6 نيسان 2005.

[115] تحليل رائعٌ نقله جين فليكس مراسل الجريدة السويسرية لوزان عن عبد الحميد في لقاء معه في قصر بيلربيي عام 1917، مأخوذٌ من السر الكبير الذي أفشاه السلطان عبد الحميد قبيل وفاته، التاريخ يتكلم، عدد: 10، تشرين الثاني 1964، ص 778، عندما كان مدير تحريرها: جمال قوطاي المعروف بمعارضته السلطان عبد الحميد.

[116] فإنكلترا كانت دولةً مشروطيةً - ملكية دستورية - تملك أفضل صيغة حكومية للتمثيل الشعبي في ذلك الوقت، إلا أنها لم تكن دولة ديمقراطية. انظر: Muriel E. Chamberlain, 'Pax Britannica', British Foreign Policy 1789-1914, Longman 1995 ، ص 183.

[117] للمزيد من نماذج الديمقراطية الجبرية المُسَيَّرَةِ للولايات المتحدة الأميركية انظر: Karin von Hippel, Demokracy By Force: US Militari Intervention in the Post-Cold War World, Cambridge University Press, 2000 .

[118] فتحي أوقيار، رجل في ثلاثة عصور، إعداد: جمال قوطاي، إستنبول 1980، إصدارات ترجمان، ص 80.

[119] فيثير ذلك ضغينة المثقفين؛ إذ لا بد من صيغة سليمةٍ في العلاقة بين الحكّام والمثقفين تحقق تماسك النظام وقوته، والقناعة العقلية والرضى ركنان أساسيان لهذه الصيغة. فالحاكم يريد أن يطلق يديه، ويمتلك القدرة على الحركة السريعة، ويتحرر من القيود البيروقراطية. م.

[120] براءة دميرجي، خارطة في خنجرنا، إستنبول 2005، إصدارات ستون.

[121] أوزبك، مرجع سابق، ص 11.

[122] نادر أوزبك، الدولة الاجتماعية في الإمبراطورية العثمانية: السياسة، والسلطة، والمشروطية، 1876-1914، إستنبول، إصدارات الإعلام، ص 34-35.

[123] أورهان، عبد الحميد بين فكي كماشة أوروبا، ط 2، إستنبول 2005، إصدارات الإعلام، ص 86-87. ومن المفيد هنا أن نذكر أن عبد الحميد خصص راتباً لسانديسون وأنه تلقى راتباً قدره 15000 قرش من القصر في 1 كانون الثاني 1894، وبتعبير آخر: كانت تلك الطريقة هي الطريقة الوحيدة التي يستطيع من خلالها السلطان عبد الحميد ضمان الموضوعية في كتاباتهم. الموضوع الأخير بعنوان الذين تَلَقَّوْا هباتٍ وأموالاً من عبد الحميد في كتاب الصحف المقدمة إلى عبد الحميد: الوثائق التي لم تنشر خلال خمسين عاماً، إستنبول 1955، مكتبة التاريخ القريب.

[124] نادر أوزبك، عبد الحميد الثاني والأطفال الذين ليس لهم معيل: دار الخير العالي التاريخ والمجتمع، عدد: 182، شباط 1999، ص 11-20.

[125] رسالة دكتوراه في ألمانيا حول الحملة العدائية لعبد الحميد في عهد الجمهورية، انظر: Claude Kleinert, Die Revision der Histiographie des Osmanichen Reiches am Beispiel von Abdülhamid. Das spate Osmanische Reich im Urteil Türkischer Autoren der Gernwart

. 1995 Berlin ,1990-1930

[126] نيازي أحمد بان أوغلو، نظرة عامة في تاريخ الصحافة، فائز دمير أوغلو، مصدر سابق، ص 3. ومن أجل تقييم مشبع حول أوراق يلدز، انظر: ”II Abdülhamit of Archives Place Yıldız The“ ,Shaw .J Stanford . 237-211 :page ,1971 ,3 ,Ottomanicum Archivum

[127] گوكخان چتين سايا، فهم عبد الحميد: نظرة في الأبحاث التاريخية في القرن التاسع عشر، تفكير جديد في العلوم الاجتماعية: نحو فهم جديد، إستنبول 1998، إصدارات Metis ، ص 139.

[128] فرنسوا جورجيون، السلطان عبد الحميد، ترجمة: علي بركتاي، إستنبول 2006، دار هومر، ص 502.

[129] في الصفحة الرئيسة لجريدة صباح 4 أيّار 2004 هذا الخبر: "فضيحة Gökkafes التاريخية: صدمةٌ في ديوان المحكمة: تشييد البناء في بعد شطب عبارة: لا يسمح بالبناء، والتي كانت موجودة في سجلها العقاري منذ زمن عبد الحميد". وفي جريدة زمان 1 أيلول 2005 في صفحتها الأخيرة خبر منقول عن وكالة أنباء الأناضول مفاده: "استنبات نبات الفطر للمرة الأولى منذ عبد الحميد الثاني". وفي جريدة AkŞam 17 أيّار 2004، في عناوين الصفحة 15 هذا الخبر: "عثماني أنقذ ميلان ملك الصرب". وفي جريدة راديكال 24 كانون الأول 2002 تحت عنوان: الدواء العثماني إلى الشرق الأقصى، خبر مفاده أن كوريا الجنوبية قدمت لليابان في الجدل الدائر حول تسمية البحر الذي يفصل بينهما خريطة عثمانية تعود إلى عهد عبد الحميد 1896 كشاهدٍ لها.

[130] تقرير بنتائج التحقيق في محاولة اغتيال السلطان عبد الحميد خان، إعداد: رشيد گون دوغدو، إستنبول 2007، چامليجا للطباعة والنشر، ص 22.

[131] نجيب فاضل Kısakürek ، الخاقان المعظم عبد الحميد خان الثاني، ط 3، إستنبول 1977، B. D. Yayınları ، ص 312-313.

[132] حلمي كيرتيش، القنبلة التي ألقيت على عبد الحميد، أنسيكلوبيديا شهرية، عدد 2، آب 1949، ص 19.

[133] Jön Türk .

[134] أنجيلو إياكوفللا، الكوس والهلال: الاتحاد والترقي والماسونية، ط 2، إستنبول 1999، إصدارات سكن الوقف التاريخي، ص 41.

[135] يلماز أوزتونا، تاريخ تركيا الكبير، المجلد السابع، إستنبول 1978، دار Ötüken ، ص 233.

[136] عندما تطلق كلمة التبشير والإرساليات التبشيرية يراد منها الحملات التبشيرية الغربية التي كانت تشكل طلائع الاستعمار، وكانت أدوات للدول الاستعمارية. ولم يعرف المسلمون التبشير بهذا المفهوم، وكانت الدعوة الإسلامية تهدف إلى غاية نبيلة: تحرير الإنسان من عبودية الإنسان إلى عبودية الله رب العالمين. م.

[137] للمزيد من التفاصيل؛ انظر: محمد صراي، تاريخ الأتراك في تركستان الشرقية، ج 1، إستنبول 1997، دار الكتب، ص 165 وما بعدها.

[138] شهبندر زادة فيليبلي أحمد حلمي، السنوسيون والسلطان عبد الحميد (عصر حميدي ده عالم إسلام وسنوسي لر = العالم الإسلامي والسنوسيون في عهد عبد الحميد)، إعداد: إسماعيل جومرت، إستنبول 1992، إصدارات ses ؛ صوت.

[139] إحسان ثريا صرمة، "جامعة بكين الحميدية"، عهد عبد الحميد الثاني بالوثائق، إستنبول 1998، إصدارات بيان، ص 101-103. وقد نشرت جريدة ترجمان حقيقت معلومات هذه الرسالة أيضاً في 5 آذار/مارت حسب التقويم العثماني 1908، (2 صفر 1326)، وفي الكتاب نسخة عن الرسالة، ص 107-109.

[140] رشيد الدين خان: The Arab revolt of 1916-1918, Islamic Culture, No: 4, October 1961, page 256 . والرقم نفسه نجده عند زينة ن. زينة. إضافة إلى تقديم الفرنسيين للشريف حسين مبلغ مليون ومئتين وخمسين ألف فرنك فرنسي. انظر العلاقات التركية- العربية وميلاد القومية العربية. ترجمة أمرة أق باش، إستنبول 2003، إصدارات Gelenek ، ص 144.

[141] عن الحكم العثماني. م.

[142] الشريف من ولد الحسن، والسيد من ولد الحسين رضي الله عنهما. م.

[143] إعداد: محمد طوسون، نظرة إلى السلطان عبد الحميد الثاني في القرن الحادي والعشرين، إستنبول 2003، ص 252.

[144] سعدي قوچاش، لورنس ملك عربستان- البلاد العربية- بلا تاج، مجموعة التاريخ المصورة، عدد: 6، حزيران 1950، ص 215.

[145] John Rose, The Myths of Zionism, Pluto Press, London - An Arbor MI: 2004, page: 201 .

[146] انظر: هامش 132 في كتاب ماريا روزا Menocal ، ص 12 و136 (

.(Menocal

[147] موجز في مغامرات اليهود في العالم الإسلامي والبنية العثمانية، انظر: Groepler Eva ، اليهود في العالم الإسلامي والعثماني، ترجمة: سهيلا قرة، إستنبول 1999، إصدارات Belge . وفي موضوع اليهود العثمانيين انظر: روبرت أولسون، " Jews in the Ottoman Empir and their role in light of new documents: Addenda and revisions to Gibb and Bowen," Imperial Meanderings and Ripublican By - Ways: Essays on Eighteenth Century Ottoman and Twentieth Century History of Turkey, İstanbul, 1996, The Isis Press, p. 33-53 .

[148] تاريخ يهود تركيا والبلقان، الناقلان: Esther Benbassa و Aron Rodrigue ، المترجمة: عائشة أطا صوي، إستنبول 2003، إصدارات الإعلام، ص 80.

[149] انظر: The Ornament of the World, Backbay Books ، 200 3 . درّة الدنيا: نموذج الأندلس، المترجم إلى التركية: إحسان دورو، إستنبول 2006، إصدارات EtkileŞim. تعكس فيه الكاتبة ماريا روزا مينوكال بشكل رائع أحوال اليهود في الأندلس في العصر الذهبي ونموذج التعايش البراق فيه.

[150] عن هذه الجزيرة ومغامرات تفوق الخيال لاثنين من المحكومين فيها: الضابط الفرنسي- اليهودي. م- ألفرد دريفوس وجمال أفندي من شرطة إستنبول، انظر: حكمت فريدون أس، سبعة أيام في جزيرة الشيطان؛ عدد: 510، 14 كانون الأول 1942، ص 8-9. وكان دريفوس قد حكم عليه بالسجن مدى الحياة في جزيرة الشيطان، وعلى الرغم من ظهور براءته في ما بعد؛ لم ينجُ من السجن إلا بعفو من الرئيس الفرنسي إيميل لوبيه. م، وقد تم استثمار دعوى دريفوس سياسياً لإعادة بناء الشرف الفرنسي (الذي أريق في الأرض أمام الألمان عام 1870). تم اتخاذ دريفوس كبش فداء حتى لا يظهر تورط فرنسي أصيل. م. ويأتي ظهور الجنرال بولانجيه بطلاً سياسياً ولدته الظروف يستثمر دعوى دريفوس، وينظم الشعارات، ويوزع الإصدارات، جزءاً من هذه الجهود. للتوسع في قضية دريفوس، انظر: David Feldman, "Was modernity good for the Jews ?" المحررون: Bryan Cheyette و Laura Marcus ، Modernity, Culture and the Jew ، Polity Press: 1998 ، ص 181-182. وانظر: موريس غارسون، مسألة دريفوس، مجموعة التاريخ المصورة، عدد: 32، آب 1952، ص 1683-1687.

[151] انظر: Niall Ferguson, The House of Rothschild: Money's Prophets, 1798-1848, Penguin Books, 1999 .

[152] أحمد أوچار، المشروع الصهيوني في قبرص، التاريخ والمدنية، عدد: 41، آب 1997، ص 12-14.

[153] انظر: بنباسّا ورودريك، مصدر سابق، ص 16-27. وعندما لقي المهاجرون اليهود من أفريقيا الشمالية معاملة الدرجة الثانية في إسرائيل؛ شعروا بضرورة تشكيل حزب سياسي خاص بهم للدفاع عن حقوقهم. انظر: Walter Laqueur, The History of Zionism, Taurisparke Paperbacks, 2003, p. Xv .

[154] ميم كمال أوكة، المشكلة الفلسطينية: من الصهيونية إلى صراع الحضارات، إستنبول 2002، إصدارات أفق. ومن أجل بحث مستقل حول حساسية فلسطين عند عبد الحميد الثاني؛ انظر: رفيق شاكر النتشة، السلطان عبد الحميد وفلسطين، المترجم إلى التركية: نجم الدين Gevri ، ط 2، إستنبول 2004، إصدارات سمرقند.

[155] ميم كمال أوكة، جاسوس في السراي، الجاسوس اليهودي الإنكليزي ويمبري وعهد عبد الحميد في وثائق سرية، ط 2، إستنبول 1998، دار عرفان للنشر، ص 212.

[156] بهاء غورفرات، وثائق متعلقة بعبد الحميد الثاني؛ أرشيف يلدز، مجلة التاريخ التركي الوثائقي، عدد: 17، شباط 1969، ص 49.

[157] وردت أمثال هذه الأسئلة في كتاب الإسلام وقدر الإنسانية لمؤلفه غاي إيتون من المفكرين المعاصرين؛ أسلم في ما بعد، وتسمى باسم سيدي حسن عبد الله عبد الحميد. انظر ترجمته التركية للمترجم إحسان دوردو، إستنبول 1992، إصدارات إنسان، ص 48 وما بعدها. وعقدة الذنب النفسية التي أيقظتها إبادة اليهود في أوروبا وأميركا، عند مؤلف الكتاب، هي الشيء الذي جعل قيام دولة إسرائيل ممكناً.

[158] مذكرات مؤسس الصهيونية ثيودور هرتزل وعبد الحميد الثاني، ترجمة: Ergün Göze ، ط 2، إستنبول 2002، إصدارات Boǧaziçi ، ص 72، إضافةً إلى: سليمان قوجة باش، تركيا والصهيونية، إستنبول 1987، إصدارات وطن، ص 151 وما بعدها.

[159] ثيودور هرتزل، مذكرات، ص 203.

[160] انظر: فقرات للعبرة من التاريخ العثماني، مجموعة التاريخ المصورة، عدد: 9 (81)، أيلول 1956، ص 567.

[161] انظر: براق ألتونر، العثمانية أنقذت ملك الصرب ميلان، Akşam ، 17 أيّار 2004.

[162] مؤسس الصهيونية... المقدمة بقلم المترجم Göze Ergün ، ص 6-7.

[163] مذكراتي السياسية، ص 53. ميم كمال أوكة، المشكلة الفلسطينية: من الصهيونية إلى صراع الحضارات، إستنبول 2002، إصدارات أفق.

[164] انظر: أحمد أق كوندوز، إرادة للسلطان عبد الحميد تمنع استيطان اليهود في فلسطين، Türk Dünyası Tarih Dergisi ، عدد 3، آذار/مارت حسب التقويم العثماني 1987، ص 27-29.

[165] انظر: إبراهيم علاء الدين Gövse ، رأس الدّمّلة فلسطين، Yedigün ، عدد 781، 22 شباط 1948، 10-11.

[166] هذه الجمل مقتبسة بإيجاز من مذكرات رؤوف أورباي جمعها وأعدها جمال قوطاي في خمسة مجلدات. للاطلاع على النص الأصلي بتمامه؛ انظر: من العثمانية إلى الجمهورية؛ رجل في قرن Osmanlıdan Cumhuriyete Yüzyılımızda Bir İnsan: Hüseyin Rauf Orbay (1881-1964)، المجلد الأول، إستنبول 1992، إصدارات Kazancı ، ص 262-263.

[167] وهذه هي الأقوال التي تحدث بها بغنام باشا إلى رؤوف أورباي وهو من المعسكر المعارض لعبد الحميد: "إنّني في الحقيقة أتعجّب من سلطانكم! إنه رجل يشبه الألغاز... بل إنه لغز صعب جداً جداً جداً يستعصي حلّه... فالرجل الذي حبس الأسطول في الموانئ قرابة ثلاثين عاماً؛ هو نفسه الذي يرسلنا إلى أميركا، في طلبيّةٍ لشراء الغواصات بصلاحياتٍ وقرارٍ قطعيٍّ لم تعرف في أكثر البلدان ديمقراطيةً..."، قوطاي، المجلد 1، ص 278.

[168] الغنائم الحربية العائدة للسلاطين ذات القيمة المعنوية أو المادية. م.

[169] ضياء شاكر، مرجع سابق، ص 36 وما بعدها. وانظر: جمال الدين صراچوق أوغلو، فاجعة أرطغرل البحرية، التاريخ يتكلم، عدد: 44، أيلول 1967، ص 3332-3337. بحري س. نويان، غرق فرقاطة أرطغرل مجموعة الحياة التاريخية، عدد: 7، آب 1970، ص 40-45. خسرو Gerede ، فاجعة أرطغرل، مجموعة الحياة التاريخية، عدد: 1، شباط 1966، ص 52-58. وللاطلاع على الحادثة بعيون باحث ياباني معاصر؛ انظر: كوماتسو كوري، فاجعة فرقاطة أرطغرل في الذكرى المئوية، Annals of Japan Association for Middle East Studies, no. 5, 1990, pp. 113-172 .

[170] ثناء من رئيس وزراء اليابان على المدارس التركية، زمان، 13 كانون الثاني 2006.

[171] للاطلاع على بعض نماذج إرادة السلطان عبد الحميد الخصوصية المتعلقة باليابان، أصليّةً وموجزةً؛ انظر: وحيد الدين إنگين، عبد الحميد الثاني والسياسة الخارجية، إستنبول 2005، إصدارات يدي تپة، ص 251، و266، و332.

[172] مصطفى أرمغان، الكنائس العثمانية، وهل بنى عبد الحميد كنيساً؟ الوجوه والأقنعة في التاريخ العثماني، إستنبول 2005، إصدارات تيماش، ص 133-137.

[173] يلدز سلمان، كنيسة سانتا ماريا دراپاريس، موسوعة معارف إستنبول من البارحة إلى اليوم، ج 6، إستنبول 1994، ص 455.

[174] سعيد نعوم دخاني، " PaŞalar Musevi :iken-6 Pera Beyoğlu " مجموعة الحياة التاريخية، عدد: 8، أيلول 1968، ص 71.

[175] جليل Layıktez ، الكنيسة التي بنيت في روما بمعونة عثمانية: S. Parti in Gioacchino ، تسوية، عدد: 17، أيار 1995، ص 26-27.

[176] للاطلاع على موضوع العلاقات بين عبد الحميد ومواطنيه من الكاثوليك انظر: Charles A. Frazee, Catholics and Sultans: The Church and the Ottoman Empire, 1413-1923, Cambridge University Press, 1983, pp. 228-229 .

[177] طه طوروس، سلام مني إلى البابا في روما، Yakın :Yıllarboyu TarihDergisi ، عدد: 7، تشرين الأول 1978، ص 37.

[178] السلطان عبد الحميد، مذكراتي السياسية، إعداد: إصدارات Dergah ، إستنبول، 1999، ص 131.

[179] انظر على سبيل المثال: علي بولاچ، مقاطعة الدانمارك، زمان، 1 شباط 2006.

[180] يمكن العودة في هذا الموضوع إلى مراسلات سفير باريس صالح منير باشا. على سبيل المثال: عزيز أسنبل، الاتصالات السرية بين عبد الحميد وسفيره في باريس صالح منير باشا، تاريخ دنياسي، عدد: 16، 1 كانون الأول 1950، ص 683-686؛ عدد: 17، 15 كانون الأول 1950، ص 715-717؛ عدد: 19، 15 كانون الثاني 1951، ص 820-821. إضافة إلى: عزيز أسنبل، سفير باريس صالح منير باشا بقلم أخيه، تاريخ دنياسي، عدد: 15، 15 تشرين الثاني 1950، ص 638-642. وانظر مقالة كتبت بمناسبة وفاته: غالب كمالي

Söylemezoğlu ، صالح منير باشا، Yedigün ، عدد: 309، 7 شباط 1939، ص 12-13.

[181] الحوادث التي سأذكرها مقتبسة من مقالة زياد أبو الضياء: الأعمال المسرحية التي حال السلطان عبد الحميد دون عرضها في أوروبا، الآداب التركية، عدد: 150، نيسان 1986، ص 6-11، وهو ملخص ورقة عمل قدمها إلى المؤتمر الأممي الخامس للشؤون التركية، ونشر عام 1988 بعنوان: حساسية عبد الحميد الثاني في القضايا الدينية والمليّة.

[182] أحمد أوچار، تدخل عبد الحميد الثاني في الساحة الأوروبية: الحصار الدولي، المدنية والتاريخ، عدد 36، كانون الثاني 1997.

[183] ياووز سليم قرة قشلة، مسرحية أميرة شرقية؛ من بيت حريم السلطان؛ في أمستردام 1894، تاريخ دنياسي، عدد: 32، 26 آب 1952، ص 1278.

[184] Erhan Çağrı ، الجذور التاريخية للعلاقات الأميركية التركية، أنقرة 2001، دار إيميج، ص 359.

[185] جزمي أرسلان، السلطان عبد الحميد: حسناته وأخطاؤه، نقلاً عن ورقة عمل زياد أبو الضياء، إستنبول 1996، دار نسل للطباعة والنشر، ص 78-79. وللتوسع في موضوع هذه المسرحية؛ انظر: زكائي كونراپا، بيغمبريميز (نبينا)، دين الإسلام والعشرة المبشّرون، إستنبول 1963، ص 485-487.

[186] ضياء أركينز، شغف عبد الحميد بالكتاب، تاريخ دنياسي، عدد 32، 20 آب 1952، ص 1278.

[187] تحسين باشا، مذكرات تحسين باشا في قصر يلدز: السلطان عبد الحميد، ط 5، إستنبول 1999، إصدارات بوغاز إيچي، ص 160. أحمد أوچار، تدخل عبد الحميد الثاني في الساحة الأوروبية: الحصار الدولي، المدنية والتاريخ، عدد 36، كانون الثاني 1997.

[188] Henry Morgenthau, Secrets of the Bosphorus: Constantinople, 1913-1916, Londra baski: Hutchinson & Co., 1918 .

[189] المرجع السابق، ص 183.

[190] ربما الحديث عن الحضارة الغربية بأنها نتاج الحضارة الإسلامية، والاستدلال على ذلك بالعلوم التي أخذها الغرب من المدنيّة الإسلامية ذات يوم؛ نموذج آخر خطير للترديد الببغائي لما يقوله بعض المستشرقين الغربيين. في الواقع، إن الحضارة هي وجهة النظر عن الكون والإنسان والحياة وما

ينبثق عنها من المفاهيم التي تتحكم في سير الفرد والمجتمع في الحياة، وهي العقيدة وما يبنى عليها من أنظمة الحياة. فالحضارة الإسلامية تقوم على "العقيدة الإسلامية، وأبرز ما فيها الاحتكام إلى مفهوم الحلال والحرام المستند إلى الكتاب والسنة، يعرف بالاجتهاد، وهو مقياس للأعمال: به يعرف الخير والشر، والحسن والقبح، والتمسك به يبلغ بالإنسان والمجتمع إلى الرقي والتقدم والسعادة الدنيوية، وبه يبلغ الإنسان السعادة الأخروية. والكتاب والسنة والاجتهاد ثلاثية كافية لبناء نمط خاص للعيش: هو الحياة الإسلامية، وهذه الثلاثية كانت ولا تزال قادرة على بناء حضارة راقية متكاملة تحل مشاكل الفرد والمجتمع في خضم الحياة بمستجداتها". والحضارة الغربية "تقوم على عقيدة فصل الدين عن الحياة، وتبجّل الفرد وتجعله مصدراً لأنظمة الحياة، وتجعل السعادة في إطار المادة ومقدار ما يتمكن منها الإنسان، والاحتكام إلى الرأي العام الذي تنوب عنه البرلمانات...". فهاتان الحضارتان متناقضتان.

أما العلوم والتكنولوجيا ومنتجاتها فهي على العموم إنتاج إنساني موضوعي لا تختص بحضارة أو بدين. م.

[191] Vahdettin Engin, Abdülhamid ve Dış Politika, İstanbul, Yeditepe Yayınları.

[192] كان الألباي - الأميرالاي - ڤيدينلي توفيق باشا؛ وهو الرياضي العسكري المشهور؛ في الوفد الذي تم إرساله إلى الولايات المتحدة لإجراء الاختبارات العلمية لبنادق مارتيني أند هنري الأميركية. انظر: كاظم شيشان، "حسين توفيق باشا"، علوم وتكنولوجيا، عدد: 285، آب 1991، ص 42. موجز عن سيرة توفيق باشا الذاتية في بقية العصر لصالح زكي بيك؛ انظر: جلال صراچ، صالح زكي بيك: حياته وآثاره، إعداد: Yeşim Işıl Ülman ، إستنبول 2001، إصدارات قيزيل ألما، ص 45-57.

[193] أورال ساندر وكورثان فيشك، المئوية الأولى لتجارة الأسلحة التركية الأميركية من وثائق الخارجية الأميركية (1829-1929)، إستنبول 1977، Çağdaş للنشر. إحسان إلغار: تاريخ اللقاءات الأميركية التركية، التاريخ يتكلم، عدد: 27، نيسان 1966، ص 2209-2214. توفيق دمير أوغلو، الوثائق: السعي الأميركي لكسب الثروات، مجموعة التاريخ المصورة، عدد: 50، شباط 1954، ص 2923.

[194] المحرران أوزي بارام وليندا كارول، علم الآثار العثمانية، ترجمة: بيلغي ألتينوك، إستنبول 2004، دار الكتاب.

[195] Amy Singer, Constructing Ottman Beneficience, SUNY press, 2002

[196] أسامة المقدسي، " Ottoman Orientalism"، American Historical Riview ، عدد: 107، 2002، ص 768-796.

[197] تيموثي ميتشيل، احتلال مصر، ترجمة: زينب ألتوق، إستنبول 2001، إصدارات الإعلام.

[198] جمعت هذه المعلومات عن روزفلت من الإنترنت: http//navysite.de/cvn/cvn71man.htm .

[199] لمزيد من المعلومات عن حادثة كويل؛ انظر: عزمي أوزجان؛ ش. طوفان Buzpınar, "Church Missionary İstanbulda: Tanzimat, İslahat ve misyonerlik, 1858-1880 ، أبحاث إستنبول، عدد: 1، ربيع عام 1997، ص 63-79. Orhan Koloğlu, "Turning point fort the Arab Caliphate: Dr. Koelle affair" (1879-80)، مجلة الأبحاث التاريخية، جامعة أنقرة 2006. أقدم شكري للسيد أورخان الذي مكنني من الاطلاع على المقالة قبل طباعتها.

[200] Çağrı Erhan, Türk-Amerikan İlişkilerinin Tarihsel Kökenleri, Ankara 2001, İmge Kitabevi, s. 309-311 . وللكاتب نفسه: العلاقات العثمانية الأميركية، العثمانية، المجلد 2، إستنبول 1999، إصدارات يني تركيا، ص 243.

[201] William James Hourihan, "Roosvelt and the Sultans: The United States Navy in the Mediterranean", 1904 ، رسالة الدكتوراه التي نوقشت في جامعة ماساتشوستس، في شباط 1975، ص 148.

[202] ولذلك كان انهيار الدولة العثمانية وتمزقها بفعل الاتحاديين والمؤامرات الداخلية، ولم يكن بفعل الحروب مع الخارج. فالداخل كان منهاراً من الناحية الحضارية، وكان أبناؤها من النخبة مشتّتين بين المدنية الغربية وبريقها وبين مفاهيم الحضارة الإسلامية؛ وهي تتطلع إلى النهضة وتبحث عن عواملها. وربما كان السلطان عبد الحميد أيضاً يحاول تلمس مشروع النهضة هذا. م.

[203] قام رسام أميركي بتصوير السلطان عبد الحميد وهو يقلب النظر في القوى العظمى الأوروبية وقد وضعها على الخيول في أرجوحةٍ دوارة؛ إشارةً منه إلى دهائه وحنكته السياسية في العلاقات الدولية. انظر: نجم الدين ألقان، عبد الحميد الثاني والصورة العثمانية في الرسوم الكاريكاتيرية الأوروبية،

إستنبول 2006، إصدارات selis ، ص 84. وانظر: أورخان Koloğlu ، حقيقة عبد الحميد، ط 4، إستنبول 2005، إصدارات بوزيتيف، ص 542، وفيها هذه المرة رسم كاريكاتيري للسلطان عبد الحميد وهو يلاعب كل القوى الأوروبية على العصا فوق أنفه. وللمزيد من الرسوم الكاريكاتيرية الساخرة من عبد الحميد على البطاقات البريدية؛ انظر: كرم طوبوز، كاريكاتيرات البطاقات البريدية، وعبد الحميد والصورة العثمانية... Tombak ، عدد: 23، 1998، ص 43-52.

[204] نور الدين طوبجي، السياسة والمسؤولية، حركت، عدد: 3، نيسان 1939، ص 71.

[205] حدد المعماري فرديناند أرنودن مكانين لبناء جسر في كلٍّ منهما. الأول: في ممر أنابيب الغاز القائم حالياً بين سراي بورنو وأسكدار، والثاني: في المكان الذي يقوم عليه اليوم جسر السلطان الفاتح منذ عام 1986 بين روم إلي حصار وقنديللي. وكان في تصميم المشروع الثاني خطان للسكة الحديدية ومحطتان للقطار في بقركوي وبوستانجي. وكان يسمى الجسر الحميدي. انظر: خيري موتلوچاغ، الجهود الأولى في سبيل جسر المضيق، مجلة التاريخ التركي بالوثائق، عدد: 4، كانون الثاني 1968، ص 32-33. وانظر: أيدن تالاي، السلطان عبد الحميد: آثاره وخدماته، إستنبول 1991، إصدارات رسالة، ص 309.

[206] أفق گولصوي، مشروع سكة حديد اليمن، التاريخ والمدنية، عدد: 41، آب 1997، ص 44-49.

[207] للاطلاع على الصور الفوتوغرافية المتعلقة ببناء الخط الحجازي الحديدي الذي يمكن أن نقول إنه يتحدى الإمبريالية الأوروبية باعتباره الخط الوحيد الذي تم إنشاؤه وتشغيله بالجهود الصرفة للدولة العثمانية؛ انظر: الخط الحجازي الحديدي: ألبوم الصور الفوتوغرافية، إستنبول 1999، إصدارات البركة التركية. وهذه لائحة بالكتب الإنكليزية التي استطعت التوصل إليها في موضوع الخط الحجازي الحديدي:

Paul Cotterel, The Railways of Palestine and İsrael, Touret Publishing, 1983 .

R. Tourret, The Hedjez Railwas, University Press of Virginia, Charlottesville, 1980 .

وأخيراً؛ الكتاب الذي صدر مؤخراً: James Nicholson, The Hejaz Railway, Stacy International, 2005 .

وللاطلاع على بحث تركي مهم؛ انظر: مراد أوزيوكسل، حجاز دمير يولو، إستنبول 2000، إصدارات سكن وقف التاريخ. وقد قام المؤلف نفسه بإعداد وثائق عرض الخط الحجازي في التلفزيون التركي قنال 2.

[208] هذا الرأي من البروفيسور أنگين أقارلي في حديث هاتفي أجريته معه، وقد ذكره في رسالة الدكتوراه عن عهد عبد الحميد الثاني في 3 آذار/مارت حسب التقويم العثماني 2005. وقد بين رأيه هذا بالأدلة في مقالته: عبد الحميد الثاني: حياته وسلطته، العثمانية، المجلد 2، إستنبول 1999، إصدارات يني تركيا، ص 253-265.

[209] بقيت ولاية قونية سنوات طويلةً في عهد الجمهورية بعيدةً عن الاستثمارات سواء أكان في بنيتها التحتية أو الاقتصادية؛ لأسبابٍ سياسيةٍ. م. (سماعاً من كثيرٍ من الإخوة الأتراك).

* الصدور العظام: مفردها الصدر الأعظم.

[210] للمزيد من المعلومات عن سعيد باشا باعتباره أحد العقول المدبرة في حملات التعليم في عهد عبد الحميد؛ انظر: زكريا قورشون، " Küçük Paşa Said "، التاريخ والمدنية، عدد: 41، آب 1997، ص 33-37.

[211] الكاتب جواد شاكر Kabaağaçlı المشهور بصياد Halikarnas والذي يحتل مكانةً عاليةً في التيار الأناضولي في عهد الجمهورية؛ هو ابن أخ جواد باشا، والده شاكر.

[212] جمال قوطاي، ضابط عثماني؛ ضابط جمهوري، كوپرو، عدد: 26، أيّار 1979، ص 2.

[213] للاطلاع على الترجمة التركية من الإنكليزية للكتاب مع الشرح؛ انظر: الطريق الأكثر أمناً، ترجمة: علو ألاتلي وشهاب الدين يالچين، إستنبول 2004، إصدارات أفق. وجميل مريچ أحد أكثر المهتمين بخير الدين باشا التونسي من المثقفين؛ انظر: الطريق الأكثر أمناً: من العمران إلى الحضارة، إستنبول، 1974، إصدارات أوتوكان، ص 45-59. وحول المقالة نفسها؛ انظر: مصطفى أرمغان، قوس قزح التفكير: جميل مريج، إستنبول 2001، إصدارات أفق، ص 105-117. وقد تزوج الوزير صالح باشا بن خير الدين باشا التونسي بمنيرة سلطان ابنة أخ السلطان عبد الحميد ليدخل القصر صهراً. وكان من قدره أن أعدم عام 1913 في حادثة اغتيال محمود شوكت باشا على الرغم من عدم ثبوت الأدلة ضده، وعلى الرغم من رجاء السلطان رشاد بعدم إعدامه. انظر: يلماز أوزتونا، تاريخ تركيا الكبير، المجلد 7، إستنبول 1978، إصدارات أوتوكان، ص 171.

[214] م. متين Hülagü ، "السلطان عبد الحميد الثاني في أيام منفاه: مذكرات طبيبه الخاص عاطف حسين بيك"، إستنبول 2003، Pan للنشر، ص 247 و286.

[215] نهاد سميح بارانلي، تاريخ الآداب التركية المصورة، الكراسة 12، إستنبول 1977، ص 890-891. وانظر: نهاد سميح بارانلي، القبور المنسية، Yedigün ، عدد: 686، 28 نيسان 1946، ص 14.

[216] وهو ما تحدث به نامق كمال إلى ابنه علي أكرم، انظر: علي أكرم بولاير، حديث خاص مع نامق كمال، مجموعة الآداب والتاريخ، عدد: 6، حزيران 1979، ص 69 وما بعدها. والعدد: 7، تموز 1979، ص 67-68.

[217] Justin McCarthy, The Ottoman Peoples and The End of Empire, Arnold: London 2003, Introduction.

[218] "في الواقع كانت تجارة الدولة العثمانية مع روسيا عام 1900 تشكل نسبة 9 بالمئة. وكانت إستنبول تستورد كل عام 65 ألف طن من طحين القمح. وقد انقطعت هذه التجارة نهائياً بمجرد وصول الخط الحديدي إلى أنقرة وقونية"، ألبير أورتايلي، النفوذ الألماني في الإمبراطورية العثمانية، إستنبول 1998، إصدارات الإعلام، ص 157.

[219] تالاي، مرجع سابق، ص 288.

[220] في حوار أجري مع المعماري ودات بيك عام 1937 يتبين أن تكلفة البناء بلغت 100 ألف ليرة ذهبية، ولو تم إنشاؤه اليوم لبلغت 150 ألف ليرة ذهبية. (قان دمير، "مؤسس المعماريين الأتراك خريجي المدارس: المعماري ودات"، عدد: 205، 10 شباط 1937). وهو شاعر، موسيقي، وابن السيدة ليلى صاز من بنات القصر. وليلى صاز (1805-1930) بنت "الحاكم والحكيم" إسماعيل باشا كان والياً للتنوير في عهد عبد المجيد، وزوجها سري باشا من مثقفي القرن التاسع عشر المشهورين؛ من غريت. من أجل صورة مجردة من قلم من يعرف ليلى صاز، انظر: أرجمنت أكرم طالو، ليلى هانم شاعرة أدب التنظيمات، Yedigün ، عدد 638، 27 أيّار، 1945، ص 4-5.

[221] أورخان كول أوغلو، تقنية وسائل المواصلات والاتصالات الحديثة وتأثيرها في الدولة العثمانية. إعداد: أكمل الدين إحسان أوغلو، الدولة العثمانية تحاول اللحاق بالعصر؛ التقنيات الحديثة في المواصلات والاتصالات، إستنبول 1995، دار IRCICA ، ص 603-605.

[222] تالاي، مصدر سابق، ص 410.

[223] Tepeciklioğlu Semih .A، نظرة في تاريخ الطرق البرية التركية: ليس لك ما لا تستطيع الوصول إليه، مجموعة الحياة التاريخية، عدد: 1 شباط 1970، ص 41-45. ومما يستحق الذكر؛ النفق الذي تم إنجازه بالجهد البشري؛ شبين قرة حصار- غيرسون؛ بتوجيه وإشراف من خليل باشا.

[224] تالاي، مصدر سابق، ص 304 وما بعدها.

[225] الكتابة الحفرية المأخوذة من جادة مخالج والموجودة في حديقة متحف بورصة للآثار التركية الإسلامية شاهد حيّ على الأبعاد التي بلغتها العداوة لعبد الحميد ذات يوم. وكذلك الكتابة التي محيت بعد انقلاب 27 أيّار، والتي تؤرخ لجامع أنشأه عبد الحميد في مدينة المحمودية من ولاية أسكي شهير. وربما كان ذلك تقليداً لعمليات أورويل في مسح التاريخ...

[226] من أجل صورة قديمة لجسر دير الزور، انظر: مجموعة الحياة التاريخية، عدد: 11، كانون الأول 1968، ص 93.

[227] دوغان يواش، چشمة السلطان عبد الحميد الثاني في قرية أق صو في بورصة، مجلة تاريخ أبحاث الفنون. عدد: 16، 2002، ص 72-73.

[228] الناقلة: سميحة سامي موراللي، صبحي باشا: رجل دولة قدم الخدمات الكبيرة للثقافة التركية، مجموعة الحياة التاريخية، عدد: 11، كانون الأول 1968، ص 69.

[229] إحسان ثريا صرمة؛ مدارس البنات في عهد السلطان عبد الحميد في إستنبول، عهد عبد الحميد الثاني بالوثائق، إستنبول 1998، دار البيان، ص 66-70.

[230] حلمي كامل بايور، مقبولة ألدنيز، مجموعة التاريخ والآداب، عدد: 2، شباط 1980، ص 57، (كاتب المقالة ابن كامل باشا ومقبولة ألدنيز التي يتحدث عنها ابنته). وأمره بطرد طبيبة ألمانية تقوم بعمليات الإجهاض سراً خارج البلاد؛ أحد الأدلة الرائعة التي تبين حساسية السلطان الإسلامية، وشعوره بالعبء الذي يتحمله كخليفة يجب عليه صيانة الأمة من المنكرات. من أجل المزيد من المعلومات وأرشيف الوثائق انظر: ياووز سليم قرة قشلة، السيدة ماري زيبولد الطبيبة الألمانية المتخصصة بالإجهاض؛ التاريخ الاجتماعي، عدد: 82، تشرين الأول 2000، ص 39-44.

[231] "ومنحه الأولوية للمدارس الابتدائية والإعدادية بشكل خاص؛ نوع من تشكيل مواطني المستقبل ثقافياً وأخلاقياً". نادر أوزبك، الدولة الاجتماعية في الإمبراطورية العثمانية: السياسة والسلطة والمشروطية، 1876-1914، إستنبول 2003، دار الإعلام، ص 166. ويتحدث بنيامين فورتنا في كتابه الصادر من

جامعة أوكسفورد عن نمو عدد المدارس نمواً يفوق الخيال في سنوات حكم عبد الحميد، ويضيف: يعتبر باحثو التاريخ أن برنامج عبد الحميد في التعليم تعديل طفيف للقديم، في حين كان التغيير قد لحق التشخيص والدواء في عهد عبد الحميد، وارتفعت سوية المدارس. انظر: Benjamin C. Fortna, Imperial CLASSROOM .

[232] محمود جواد ابن الشافية نافع، نظارة المعارف العمومية: نشأتها التاريخية وأعمالها في القرن التاسع عشر، تاريخ المعارف العثمانية. إعداد: تاج الدين كايا أوغلو، أنقرة 2001، دار يني تركيا، ص 205.

[233] تستند المعلومات الواردة هنا في مجملها إلى مقالة بيرم كودامان بعنوان التربية والتعليم في عهد عبد الحميد. انظر: تاريخ الإسلام الكبير من الميلاد إلى اليوم، المجلد 12، إستنبول 1993، إصدارات (زمان + Çağ) ص 455-490. وهذه المقالة اختصار لكتاب منشور للمؤلف، انظر: نظام التعليم في عهد عبد الحميد، إستنبول 1980، إصدارات Ötüken . غير أن ثغرة هذا الكتاب تتجلى في عدم الوقوف عند عدد الطلاب ذكوراً وإناثاً، وعدد رشديات وإعداديات البنات. غير أنه في الصفحات 159-161 لائحة بمدارس رشديات الذكور والبنات والمختلطة الرسمية والخاصة في إستنبول نقلاً عن اللائحة السنوية عام 1909. ففي هذه اللائحة نرى أنه افتتحت 15 رشدية للبنات و15 مدرسة مختلطة في عام 1909 في عهد عبد الحميد. وفي اللائحة عدد تقريبي للطالبات في الإعداديات. ونصل إلى أن المدارس المختلطة بدأت في عهد عبد الحميد.

[234] وهنا لا بد من الإشارة إلى أن المبالغة في شأن محو الأمية- ومحو الأمية لا شك أمر مهمّ- ورفعه فوق قدره أسلوب آخر من أساليب التضليل، فالحضارة الإسلامية: هي مجموعة المفاهيم عن الكون والإنسان والحياة، ومقياس الأعمال، والخير والشر، والسعادة، وأنماط العيش، وأنظمة الحياة، والتي شكّلت من الأميين أمةً إسلاميةً، ومعظم الذين حملوا رسالتها إلى العالم كانوا أميين لا يقرأون ولا يكتبون، ولكنهم شكلوا هذه الحضارة الإسلامية العظيمة؛ والعثمانية جزء هامّ منها. وعندما اضطربت هذه المفاهيم وفقدت بريقها في نفوس أبنائها كان التلاشي والزوال. والحضارة التي تحملها الجمهورية التركية على النقيض من الحضارة الإسلامية التي كانت تحملها الدولة العثمانية، ولا يمكن اعتبارها امتداداً لها. م.

[235] على طريقة: من ليس معي فهو ضدي. م.

[236] عصمت أوزال، ثلاث مسائل: التقنيات- المدنية- التغريب، في الطبعة

الثانية بعد إعادة النظر. إستنبول 1984، دار Dergah ، ص 152-154.

[237] فريدريك كارل كينيتز، في ظلال السنجق (اللواء) الكبير: مدن الأناضول وشبه جزيرة البلقان ثقافةً وتاريخاً، ترجمة: 1001 كتاب تأسيسي: 45، القسم السادس عشر.

[238] للمزيد حول هذين البرجين انظر: أنور، Sujoldzic, The clock-tower's of Travnik, Travnik 1999 ، دار Sediment .

[239] المنزل والمرحلة لقياس المسافات البعيدة في أثناء السفر قديماً، تبلغ قرابة 24 كيلومتراً، وهي مسافة البريد، المكاييل والأوزان الإسلامية، ڤالتر هنتس، دليل الاستشراق، إصدارات الجامعة الأردنية، ص 82. وهي أيضاً مسيرة يوم، والمسافة بين خان وخان في نظام الخانات التي انتشرت أيام الدولة العثمانية. م.

[240] أوليا چلبي سياحت نامة، المجلد الخامس، قام بتلخيصه: متين چويك، إستنبول، من دون تاريخ، ص 385. إضافة إلى هذا الكتاب بلغة البوشناق، وفيه معلومات قيمة وصور مختلفة، Mustafa Gafic, Dervis M. Korkut: Kazivanja o Travniki, Travnik 1998 .

[241] شفاعة الدين دنيز، برج الساعة في صفران بولو، الفكر والتاريخ، عدد: 69، أيلول - تشرين الأول 2006، ص 62-65.

[242] لمزيد من التفاصيل حول لائحة الأبراج وصورها إضافةً إلى كتاب عجون؛ انظر مقالة كمال أوزدمير: أبراج الساعة: رموز التغريب في المدن العثمانية، Art Decor ، عدد: 18، أيلول 1994، ص 88-94.

[243] جانك بركانت، توقيع في إزمير: رايموند تشارلز بيري، سكاي لايف، شباط 2006، ص 66-76.

[244] للمزيد من التفاصيل؛ انظر: أيدن فلز، مشفى شيشلي للأطفال، مجموعة الحياة التاريخية، عدد: 4، أيّار 1970، ص 56، ومن أجل صورة البرج انظر: ص 59.

[245] من أجل أحد هذه الإدعاءات انظر: عابدين داور، أسطولنا في عهد عبد الحميد الثاني، مجموعة التاريخ المصورة، عدد: 29، أيّار 1952، ص 1486-1491.

[246] عثمان أونداش، أول ضابط صنع الطوربيد التركي: إدريس بيك، مجموعة الحياة التاريخية، عدد: 12، كانون الثاني 1969، ص 68-72.

[247] عفيف بيوك طغرل، لماذا ربط السلطان عبد الحميد أسطولنا؟ مجلة التاريخ التركي الوثائقية، عدد: 12، أيلول 1968، ص 77، النسخة الفوتوكوبية

للرسالة ص 78.

[248] أورخان توركر، من غلطة إلى قرة كوي: قصة ميناء، إستنبول، 2000، دار السّيل، ص 70.

[249] Muler-Winer Wolfgang ، ميناء إستنبول من العهد البيزنطي إلى العهد العثماني، ترجمة أرول أوزبك، 1998، Tarih Vakfı Yurt Yayınları ، ص 136 وما بعدها.

[250] أيدن تالاي السلطان عبد الحميد بآثاره وخدماته، نقلاً عن موسوعة المعارف الإسلامية، المجلد الخامس، إستنبول 1991، إصدارات الرسالة، ص 292.

[251] كم نتمنى اليوم لو كان في بلادنا مثل هذا الراعي، ولم تصكّ آذاننا أخبار الفساد والصفقات الخائنة التي يسعى وراءها من يسعى في سبيل حفنة من الأموال - تساوي، بل تفيض عن حجم الديون التي تثقل كاهل دولهم - ولا ينال منها إلا الفتات على طريقة الجزرة والحمار. م.

[252] عثمان نوري إنكين، مجلة الأمور البلدية، المجلد الخامس، إستنبول، 1995، إصدارات رئاسة قسم الشؤون الثقافية في بلدية مدينة إستنبول الكبرى، ص 2796 وما بعدها.

[253] Tutel Eser ، الموانئ، بين الأمس واليوم، موسوعة معارف إستنبول، المجلد السادس، إستنبول 1994، الناشر: بالاشتراك مع وزارة الثقافة وأوقاف التاريخ، ص 332.

[254] سرمت مختار ألوس، ميناء غلطة، الخزينة التاريخية، عدد: 13، تشرين الثاني 1951، ص 636.

[255] Evren Burçak ، أوتوموبيل، بين الأمس واليوم، أنسيكلوبيديا إستنبول، المجلد 6، ص 182.

[256] طرخان بايتوپ، الصيدلة والصيدليات في تركيا: من أجزاء خانة إلى الصيدلية (1800-1923)، إستنبول، 1995، باير، ص 73.

[257] Esin Atıl, "levni and the Surname: The Story of an Eighteenth-Century Ottoman Festival"، إستنبول 2000، دار Koçbank ، ص 53. و Özdemir Nutku ، الاحتفالات القديمة، إعداد: مصطفى أرمغان، هدايا وأعطيات إستنبول III : ألوان الحياة اليومية، إستنبول 1997، إصدارات: بلدية مدينة إستنبول: دائرة الشؤون الثقافية، ص 125.

[258] رشيد متل، تاريخ الغواصات التركية، إستنبول 1960، إصدارات قيادة أركان القوات البحرية، ص 1.

[259] Konstantin Zhukov & Aleksander Vitol, "The Origins of the

Ottoman submarine fleet", Oriente Moderno, xx (LXXXI), I, 2001, Page 222 .

[260] ألبير أورتايلي، النفوذ الألماني في الإمبراطورية العثمانية، إستنبول 1998، دار İletişim، ص 51 وما بعدها. Lothar Rathmann ، برلين - بغداد: دخول النفوذ الإمبريالي الألماني إلى تركيا. ترجمة: راغب زراق أوغلو. إستنبول 1982، دار Belge ، ص 27 وما بعدها.

[261] من أجل البحث في تحديث الجيش وسبل تسلحه في عهد عبد الحميد الثاني انظر: زكية تركمان، الدولة العثمانية وسباق التسلح في القرن التاسع عشر، مدير التحرير: كمال Çiçek, Pax Ottomana: Stadies in Memoriam Prof. Dr. Najat Göyünç, Haarlem-Ankara, 2001, SOTA-Yni Türkiye Yayınları, s. 351 vd .

[262] للمزيد من التفصيلات في هذا الموضوع انظر: رشيد متل، الغواصات في تاريخنا - 2 والوثائق في مجلة التاريخ التركي، عدد: 18، آذار/مارت حسب التقويم العثماني 1969، ص 79-81.

[263] نجاة گولان، بحريتنا بين الأمس واليوم، إستنبول 1988، دار كاستاش، ص 62.

[264] زوكوف وڤيتول المصدر السابق ص 231 نقلاً عن The Manchester Courier ، 28 آب 1887، ص 5.

[265] هذا النوع من التأويلات والتي سنتناولها بعد قليل من مذكرات رؤوف أورباي نصادفها في الإصدارات المختلفة الصادرة في عهد المشروطية، وعلى الأخص في المقالة التي كتبها علي حيدر أمير - ألباغوت - من أساتذة البحرية والتي نشرها - مجموعة الأسطول - عام 1913 بعنوان لا نريد الأسطول، يصل إلى حد اتهام عبد الحميد بأنه يتبع سياسة قتل للأسطول العثماني. انظر فخري چوكر، نصوص من تاريخ بحريتنا القريب، أنقرة، 1994، إصدارات قيادة الأركان العامة؛ قيادة أركان القوات البحرية، ص 56-65.

[266] انظر: متل، مصدر سابق، ص 6. وگولان، مصدر سابق ص 62.

[267] گولان، مصدر سابق، ص 59.

[268] متل، المصدر السابق، ص 6، (باش وكالت أرشيفي، يلدز ظرفي 114، ص 203-213).

[269] متل، المصدر السابق، ص 6-7، (التأكيدات تعود لي - م. أ).

[270] متل، المصدر السابق، ص 12.

[271] جمال قوطاي، شخصية مخضرمة من العثمانية إلى الجمهورية: حسين رؤوف أورباي (1881-1964)، المجلد: 1، إستنبول، 1992، دار كازانجي، ص 273.

[272] قوطاي، المصدر السابق، ص 278.

[273] الذكرى المئوية للغواصة التركية، إستنبول 1986، قيادة أسطول الغواصات، ص 9. (الكتيب الصادر من غير ترقيم، ورقم الصفحة من قبلي، م. أ).

[274] تورخان بايتوپ، وادي الورود، موسوعة معارف إستنبول من الأمس إلى اليوم. المجلد الثالث، إستنبول، 1994، ص 441.

[275] أرسلان ترزي أوغلو، مساهمات في تطور گول خانة والطبية التركية في ضوء الأبحاث الأخيرة، (Dergisi Kültür Tarih Dünyası Türk)، كانون الثاني 2009، عدد 265، ص 13.

[276] الأحرف الأولى للكلمات التي تشكل العبارة التالية: Askeri Gülhane Akademesi Tıp ، أكاديمية گولخانة الطبية العسكرية. م.

[277] ألبير أورتايلي، نهاية الإمبراطورية، إعداد: محمد طوسون، نظرة إلى السلطان عبد الحميد الثاني في القرن الحادي والعشرين، إستنبول 2003، ص 118.

[278] وهذا مقطع من شعره المنشور: (هي الذكرى تطل بعد زمان/ها قد أتينا، منك نطلب المدد/إن نرفع الأصوات؛ نقتل/واحسرتاه لاستبدادك القديم... أيها السلطان)، نقله لنا: محمد أيدن، أسرار عبد الحميد خان الثاني القيادية. إستنبول 1999، إصدارات İzci ، ص 200.

[279] لم أتمكن من العثور على النص الأصلي للأبيات إذ لم أتمكن من الحصول على كتاب أمين معلوف بعد نفاده من الأسواق. م.

[280] أمين معلوف، بدايات الطرق، المترجمون إلى التركية: سميح رفعت وأيقوت درمان، إستنبول 2004، إصدارات Kredi Yapı ، ص 117-118. ويعرب معلوف عن استغرابه من سلوك جده الشاعر في الموالاة فهو مدح في قصائده السلطان عبد الحميد، وحين جاء شقيقه رشاد مدحه أيضاً، كما مدح الضابط التركي المتمرد أنور الذي انقلب على السلطنة العثمانية ثم انقلب على الجيش الأحمر وتوفي عام 1922، ثم يمدح الجد بطرس مصطفى كمال أتاتورك، وبعده يمتدح السلطات الفرنسية ويطلب مساعدتها في دعم مدرسته في الضيعة. ولئن بدا هذا المزاج المتقلب لجده مستهجناً، إلا أن معلوف لا يعلم الكثير من التفاصيل التي قادت جده لاستبدال

مواقفه ليبرر للجد هذا السلوك بالقول المبجّل مع التحوير: ومن لم يبدل مواقفه، فليرمه بحجر.

[281] ولقد قال حينها: "إن سلانيك هي مفتاح إستنبول، فهل نتركها للعدو؟ لن أبرح المكان خطوة واحدة، أعطوني بندقية، ولندافع عنها معاً حتى النفس الأخير. أين جيشنا الثاني والثالث؟ ومن هم القادة الذين يديرون هذه الحرب؟ إنني لن أذهب من هنا مهما كلف الأمر، وعليكم أن تدركوا ذلك...". مذكرات الأميرة عائشة عثمان أوغلو، والدي السلطان عبد الحميد الثاني، نقلها إلى العربية: د. صالح سعداوي صالح. م.

[282] " fıkrala ibretli tarihinden Osmanlı "، مجموعة التاريخ المصورة، عدد: 37، كانون الثاني 1953، ص 2012.

[283] أنقرة: وهبي وقاص أوغلو، لعبة 31 مارت، كوپرو، عدد: 61، نيسان 1982، عدد: 25.

[284] Aksel Malik ، İtanbul'un Ortası ، أنقرة 1977، إصدارات وزارة الثقافة، ص 95.

[285] آقا كوندوز، أنا ذاهب إلى السلطان، Yedigün ، عدد: 315، 21 آذار/مارت حسب التقويم العثماني 1939، ص 7-8. وتكلمت مع عبد الحميد، عدد: 316، 28 آذار/مارت حسب التقويم العثماني 1939، ص 10-11.

[286] ولكن بعد فوات الأوان. م.

[287] ويفتح علي كمالي Aksüt آفاقاً جديدة في تقييمه المشروطية حيث يرى أن السلطان عبد الحميد كان يفكر في إعلانها كجزءٍ من مشروع إنقاذ شرق روم ألي؛ ولذلك لم يقاوم جيش الحركة، ولم يتردد في إعلانها. وهذا أمر يستحق البحث والنقاش. انظر: حادثة 13 آذار/مارت حسب التقويم العثماني؛ الرجعية، ينى تاريخ دنياسي، عدد: 19-20، 15 حزيران، 1 تموز، 1954، ص 751-752.

[288] حسين جاهد يالچين، "تاريخ السنوات العشر: 1908 - 1918"، Yedigün ، عدد: 143، 4 القانون الأول 1935، ص 25.

[289] للاطلاع على المكافآت التي نالها جميل باشا من القصر من حديثه؛ انظر: قان دمير، جراحنا جميل باشا يتحدث عن ذكرياته، يني تاريخ دنياسي، عدد: 8، 31 كانون الأول 1953، ص 333-335.

[290] انظر: سرمد مختار ألوس، احتفالات جلوس عبد الحميد الثاني، مجموعة التاريخ المصورة، عدد: 30، حزيران 1952، ص 1546.

[291] للاطلاع على مقالتين طائشتين كُتبتا بقلم Çölaşan Emin حول عبد

الحميد؛ انظر: الذين لم يستطيعوا أن يكونوا كعبد الحميد، حريت، 23 نيسان 2004، ونظام عبد الحميد، حريت، 11 تموز 2004.

[292] يحيى كمال، Portreler Edebi ve Siyasi ، ط 2، إستنبول 1976، إصدارات جمعية فتح إستنبول، ص 61-69.

[293] نرى معارضة عاكف لعبد الحميد بأقواله وتصرفاته من أشعاره في ديوانه الشعري صفحات إلى جانب المعلومات المفصلة في مذكرات متين جمال قوتاي. انظر: محمد عاكف، ط 2، أنقرة 1990، الإصدارات الثقافية لبنك العمال التركي.

[294] قوتاي، المرجع السابق، ص 210-211.

[295] م. أرطغرل دوزداغ، محمد عاكف أرسوي، إستنبول 2004، Kaynak Kitplığı ، ص 27.

[296] صفحات، ص 345-347. وقد كتب جميل مريج قائلاً: ليته لم يضم إلى صفحاته هذا الهجاء لعبد الحميد. انظر: من الثقافة إلى العرفان، إستنبول 1986، إصدارات إنسان، ص 225.

[297] صفحات؛ تحقيق ونقد، إعداد: م. أرطغرل دوزداغ، أنقرة 1990، إصدارات وزارة الثقافة، ص 335.

[298] يمكن أن تكون هذه الأقوال التي تحدث بها إلى إحسان أفندي اليوزقاتلي في سنوات مرضه في مصر عن عبد الحميد؛ دليلاً على تغيّر نظرته: "لئن تحسنت صحتي قبل أن يدركني الموت، فسأنظم في هذه الأمور، إضافة إلى رغبتي في تدوين ذكرياتي، وسيكون فيها اعتذار من السلطان عبد الحميد، وينبغي بيان بعض الأخطاء في عهد الجمهورية". كليات محمد عاكف، ج 3، إعداد: إسماعيل حقي Şengüler ، إستنبول، بدون تاريخ، إصدارات حكمت، ص 513.

[299] ربما تنحصر معارضة محمد عاكف للسلطان عبد الحميد في سياسته في الحكم، وهذه المعارضة دفعته للانضمام إلى جمعية الاتحاد والترقي بدافع التخلص من الاستبداد، وإقامة حكومة دستورية للمسلمين. واستغلته الجمعية، وأرسلته لمقابلة عبد العزيز آل سعود في صحراء نجد؛ لإقناعه بالعمل مع حكومة الاتحاد والترقي- جمال قوطاي: محمد عاكف في صحراء نجد- إلا أنه لم يوفق في ذلك، ولم يرغب عبد العزيز في مقابلته. غير أن عبد الحميد يلتقي بالسلطان عبد الحميد في فكرة الجامعة الإسلامية، ويرى ضرورة الوحدة الإسلامية: "إن التركي لا يستطيع الحياة بدون العربي، والتركي بالنسبة إلى العربي عينه اليمنى وذراعه اليمنى، ولا بد للمسلمين من أن

يتحدوا لأن الإسلام دين الوحدة". م. نقلاً عن السلطان عبد الحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار، محمد حرب، دار القلم، ص 265.

[300] للاطلاع على آراء الأمير صباح الدين؛ انظر: حلمي ضياء أولكان، تاريخ الفكر المعاصر في تركيا، ط 2، إستنبول 1979، إصدارات أولكان، ص 327-329. تظهر النتائج المذهلة عند مقابلة أفكار الأمير صباح الدين التالية في تشخيص المصادر الاجتماعية للاستبداد؛ بآراء الإمام بديع الزمان سعيد النورسي:

اعتقدت جمعية الاتحاد والترقي أن استبدال الحكم المطلق بالمشروطية، والدفاع عن نمط معين للقوى العامة بدلاً من نمط آخر؛ سيكونان دواءً من كل داءٍ، ولم يرد أعضاء هذه الجمعية أن يفكروا في ضعفنا الاجتماعي الذي ولّد الاستبداد. هذه النظرة الخاطئة التي تمثلت بزيادة الاحتياطات السياسية وحدها باسم المشروطية في تركيا، جعلتنا نعيش عصراً مأساوياً نبحث فيه عن أسوأ أيام العهد القديم. وما لم يكن هناك تشخيص علمي لأمراضنا الاجتماعية، فإن جميع أفكارنا التي تتناول موضوع الإصلاحات ستعمل على توليد المزيد من الأفكار العاجزة المضللة. ومهما كانت نوايا رجال الدولة أو الأحزاب المتمسكين بها سليمةً؛ فإنهم لن يقوموا بأيّ شيء سوى الإسراع بانهيار دولتهم.

[301] بديع الزمان سعيد النورسي، كليات رسائل النور بالفهارس والمعجم والمراجع، المجلد 2، إستنبول 1996، إصدارات nesil ، ص 1922.

[302] الناقل: مراد أوزيوكسل، خط الحجاز الحديدي، إستنبول 2000، إصدارات وقف التاريخ، ص 69، هامش 117.

[303] للاطلاع على آراء الأفغاني وعبده ورشيد رضا حول عبد الحميد؛ انظر: خير الدين قرمان- الكاتب والمترجم- الوحدة في الإسلام الحقيقي، إستنبول، بدون تاريخ، إصدارات نسل، ص 25 وما بعدها، 105 وما بعدها، 134 وما بعدها.

[304] أصل هذه المعلومات الموجزة هنا من النبذة التاريخية لشكران وحيدة: Islam in Modern Turkey: An Intellectual Biography of Bediuzzaman Said Nursi, New York: 2005, SUNY Press, p. 3 .

[305] بديع الزمان سعيد النورسي، مناظرات، إستنبول 1998، إصدارات يني آسيا، ص 150-151. وللتوسع حول مدارس العشيرة؛ انظر: بيرم كودامان، سياسة السلطان عبد الحميد الثاني في شرق الأناضول في ضوء المسألة الشرقية، إستنبول: 1983، دار Orkun ، ص 97 وما بعدها.

[306] عبد القادر باديللي، Hyat Tarihçe-i Mufassal ، (ج 1، ص 184)، الناقل: إسماعيل موتلو، بديع الزمان سعيد النورسي في أسئلة، المجلد 2، إستنبول 1995، موتلو للنشر، ص 18.

[307] الناقل: وهبي وقاص أوغلو، الرجل الذي يبكي من أجل أخطاء الآخرين، إستنبول 2005، إصدارات نسل، ص 138.

[308] اشتهرت رسائل النور باسم المكتوبات، وهي الرسائل التي تحمل الحقائق الإيمانية الكبرى التي عمل بديع الزمان على نشرها، ويتدارسها طلابه، ويعملون على نشرها على شكل فريقين: فريق الكتاب الذين يعملون على نسخ هذه الرسائل؛ حيث كانت طباعتها محظورة، وفريق القراء. المترجم.

[309] نجم الدين شاهينر، آخر الشهود الذين يتحدثون عن بديع الزمان سعيد النورسي، المجلد 1، إستنبول 1994، إصدارات يني آسيا، ص 307، وأنقل هنا المكتوب اللاحق؛ شاكراً ولي صرم بيك الذي أخبرني بهذه الملاحظة. وأخبرني الأخ محمد فرنجي الذي قرأ هذا الفصل مشكوراً وهو ينقل عن زبير كوندوز ألپ؛ أن مدير القلم الخاص في القصر آنذاك حال دون لقاء سعيد النورسي بعبد الحميد. وأن سعيد النورسي قال: "لو لم يحولوا دون اللقاء، لحصل المقصود"، أي أن سعيد النورسي لا يتهم السلطان، بل الوسط المحيط به في القصر. وهذه مشكلة أخرى نعانيها اليوم في دولنا القائمة، وعبد الحميد أمام أحد أمرين: إما إنه كان يفتقد إلى المواصفات والمؤهلات التي يبحث عنها في رجال عصره، أم إنه كان يخطئ في الاختيار. م.

[310] باديللي، المرجع السابق، ص 184.

[311] آقا كوندوز، موسوعة معارف اللغة والآداب التركية، المجلد 1، إستنبول 1977، إصدارات Dergah ، ص 83-84؛ معلومات التراجم المذكورة هنا منقولة بإيجاز. والكتاب الذي صدر عن حياته وآثاره في حياته: Murat Uraz ، آقا كوندوز: حياته، شخصيته، آثاره، ومقتطفات من آثاره، إستنبول 1938، سميح لطفي أرجياز، مكتبة سهولة. وانظر أيضاً: أرول Özbilgen ، معارضة عبد الحميد. ورقات عمل ندوة عن عبد الحميد الثاني وعهده، إستنبول، 1992، Seha للنشر، ص 178، هامش 66.

[312] آقا كونوز، "Gidiyorum PadiŞaha " ، Yedigün ، رقم 315، 21 آذار/مارت حسب التقويم العثماني 1939، ص 7-8. وتكلمت مع السلطان، Yedigün ، رقم 316، 28 آذار/مارت حسب التقويم العثماني 1939، ص 10-11.

[313] فتحي أوقيار، رجل في ثلاثة عصور، إعداد: جمال قوطاي، مجلد 1، إستنبول 1980، إصدارات ترجمان تاريخ، ص 44 وما بعدها.

[314] كانت الماسونية تنظم الاتحاد والترقي في محافلها على طريق الديمقراطية والعلمانية، وإعلان المشروطية الثانية، وقمع الرجعية في 31 آذار/مارت حسب التقويم العثماني، وتلعب دوراً هاماً لا يمكن التنصل منه في عزل السلطان عبد الحميد وإسقاطه عن العرش. ويميز الباحث الفرنسي ثيري زاركون هذه الفترة (1908-1918) بالدولة الماسونية. وهيئة النواب الماسونية كانت تطوف في فرنسا والمجر وإيطاليا، لتعلن فيها قيام الديمقراطية في الإمبراطورية العثمانية، وتهيئ الرأي العام لتأييدها. انظر: http://www.tesviye.org/sayi56/orta4.htm

[315] قوطاي، مرجع سابق، 1، ص 334.

[316] قوطاي، المرجع السابق، 1، ص 263.

[317] قوطاي، المرجع السابق، 1، ص 262 وما بعدها.

[318] المرجع السابق، 1، ص 270.

[319] فنحن نعلم من تواضعه ما يمنعه من طلب راتب تقاعدي، وعندما يسأله الناس أن يتحدث عن مذكراته المتعلقة ببطل الحميدية؛ يكتفي بالقول: "لقد أدينا واجبنا، وهذا كل شيء. للاطلاع على الندوة الأخيرة معه؛ انظر: التاريخ يتكلم، عدد: 8، أيلول 1964، ص 637-644. وقد قال للصحفي أيهان هونالب الذي زاره عام 1956: "بين الحين والآخر تلقبونني ببطل الحميدية، فأيّ بطولة هذه يا ولدي، لقد كان ذلك وظيفتي، فما الذي كان يمكن أن يفعله جندي في أمر قائده؟". أيهان هونالب، الطرق المؤدية إلى الجبال، إستنبول 1974، إصدارات 3، ص 17.

[320] يحيى كمال، طفولتي وشبابي وذكرياتي الأدبية السياسية، إستنبول، إصدارات معهد يحيى كمال، ص 82.

[321] يحيى كمال، فلتنحني أيتها الجبال: مقالات حرب الاستقلال، ط 3، إستنبول 1975، إصدارات جمعية فتح إستنبول، ص 299.

[322] يحيى كمال، تاريخ مصاحبة لري، إستنبول 1975، إصدارات جمعية فتح إستنبول، ص 54.

[323] حاول يحيى كمال أن يخفي قصيدته التي اقتبسنا منها الأبيات التالية؛ انظر: سرمد سامي أويصال، هذا هو يحيى كمال، إستنبول 1972، مكتبة آقا وانقلاب، ص 88.

[324] نظام الدين نظيف Tepedenlioğlu ، إعلان الحرية والسلطان عبد